الكاتب المصرى جمال الغيطانى احد اكبر الكتاب العرب المعاصرين ، نتاج جمال الغيطانى يطرح نوعاً من القطيعة مع الرواية الكلاسيكية العربية فى اعتماده على شكل روائى مفتوح . يأخذ ذرائعه من الواقع ولا يتقيد بالواقع . يشطح ، يمزج بين الخيالى والمعاش تغيب عنه الحبكة والعقدة والحل . تغيب وحدة الزمان والمكان يقترب النثر من الشعر ليتكون نص مغاير للصيغة التقليدية فى الكتابة العربية . نص يصعب تصنيفه .. ولئن كان الواقع المصرى هو المنطلق الذى تتشرنق حوله اعمال الغيطانى الا ان هذه الحكايات ليست حكايات تروى . بل هى انعكاس لتجارب وخبرات تولد مناخاً عاما مشرعاً على احتمالات تفسير عديدة .

عيسى مخلوف

مجلة اليوم السابع

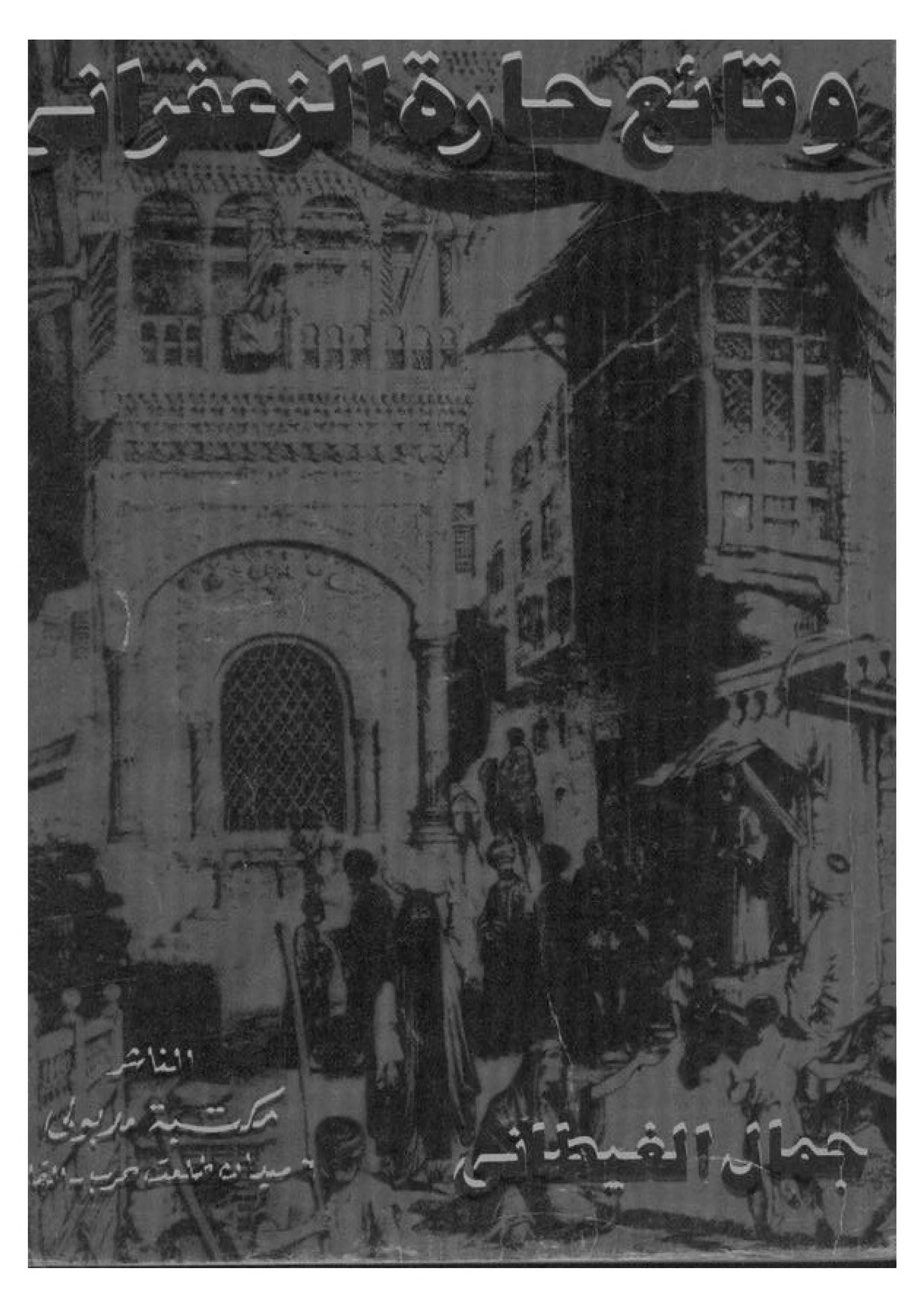
يبدو جمال الغيطانى بسخريته الحادة وكأنه اورويل الشرق

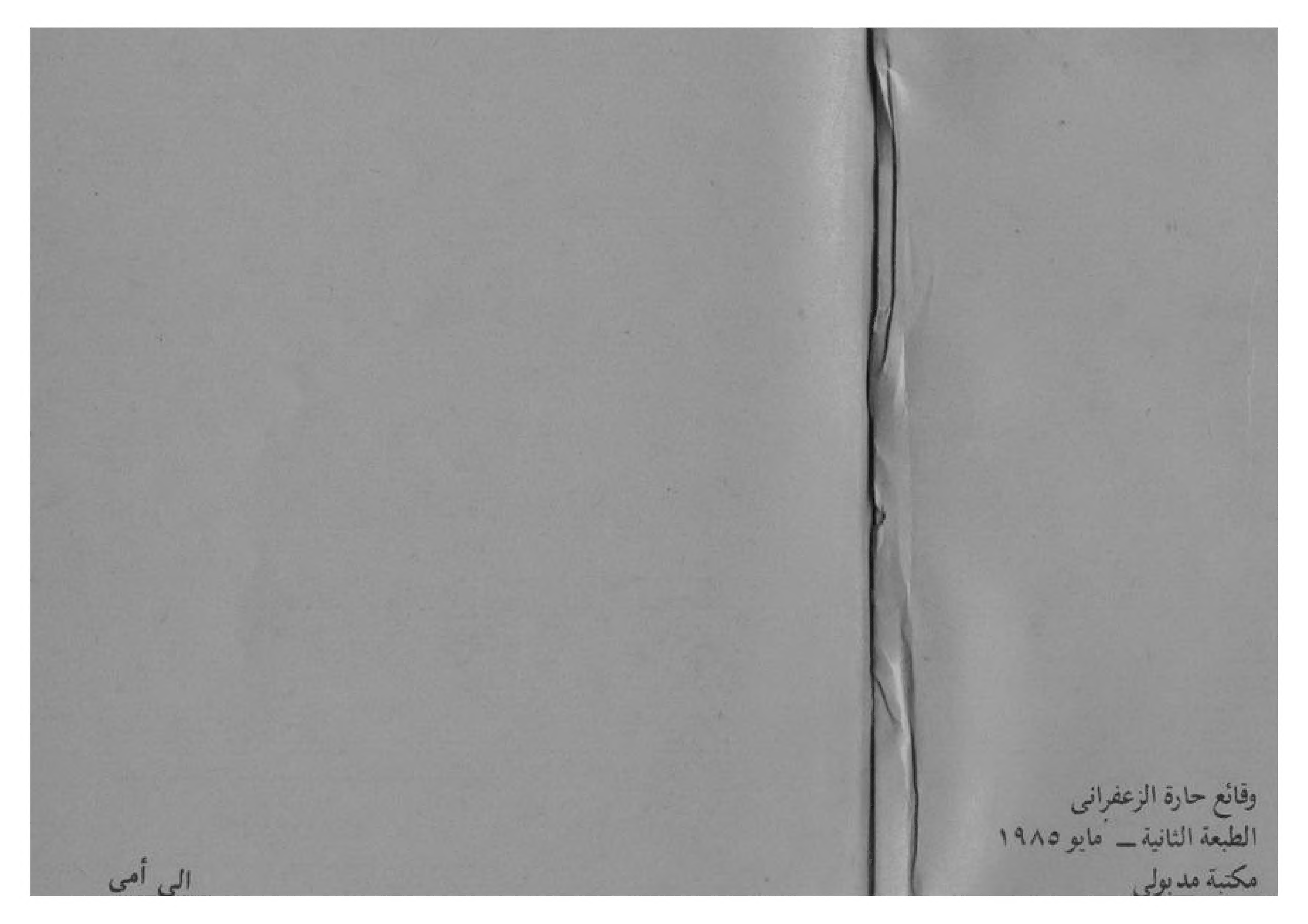
مجلة ليغنمو الفرنسية

جمال الغيطانى معلم ، استاذ بحق . واحد خلاصة الروائيين الكبار فى عصرنا .

مجلة كانار اونشيفيه الفرنسية

الثمن ٣ جنيهات


وقائع حارة الزعفراني
الناشر
مكتبة مدبولي
٦ ميدان طلعت حرب -
جمال الغيطاني



وقائع حارة الزعفرانى
الطبعة الثانية ـ مايو ١٩٨٥
مكتبة مدبولى

الى أمى

يَا فارِج الْكُرَبِ الْعِظام

« .. ملف (أ) يضم بعض الشخصيات من سكان حارة الزعفرانى ، معلومات مستقاة عنهم من مصادر شديدة العلم بما يجرى فى الحارة .. »

.. مساء السبت أول شعبان . و بعد انتهاء الأسطى عبده مراد من صلاة العشاء بمسجد الحسين . وحضور الاحتفال الدينى الذى تقيمه الإذاعة بمناسبة غرة شعبان ، حسم أمراً طال تردده فيه .. أسرع الخطى متوجهاً إلى حجرة الشيخ عطية بأسفل المنزل رقم « ٧ » بحارة الزعفرانى . يعمل الأسطى عبده سائقاً بمؤسسة النقل لعموم مدينة القاهرة ، وقبل التحاقه بالعمل مارس قيادة عربات الأجرة ، وفى هذا المجال عمل بالأشغال التالية .

(أ) عام ١٩٤٩ و بعد تسريحه من الخدمة العسكرية عقب انتهاء حرب فلسطين ، عمل سائقاً على سيارة أجرة تنقل الركاب بين القاهرة والإسكندرية ، طراز فورد ١٩٤١ ، سعة سبعة راكب ، يملكها تاجر خيش بالخرنفش اسمه الحاج أبو اليزيد ، حدث أن دب خلاف بينهما فعاد متعطلا ..

(ب) بعد ثلاثة شهور من البطالة ، عاد إلى العمل سائقاً على عربة تعمل داخل القاهرة ، لمدة عشرة أعوام لم يختلف مع صاحب السيارة ، وهو حاج طيب يعمل مقاولا للأدوات الصحية ، يتحدث دائما عن الحظ فى الحياة ، كيف هجر بلدته فى أقصى الصعيد ثم جاء إلى القاهرة ماشياً على قدميه . أعطاه الله حتى أصبح من القلائل الذين يقومون بتجارة وتركيب الأدوات الصحية من أحواض ومراحيض وخلافه . كما امتلك سيارة نقل ، وعدداً من سيارات الأجرة ، أحب الأسطى عبده عمله لتنوع زبائنه وتبادله الحديث معهم ، يقص دائماً حادثاً جرى له فى الحرب عندما خاض معركة حامية ضد اليهود فى بلدة فلسطينية اسمها (المجدل) ، أسفل ركبته جرح يحمل آثاره حتى الآن ، يقص مشاعره لحظة نفاذ الشظية عبر جلده ، كيف ظن أنه مات ، كيف حرك أطرافه ؟ كيف أفاق ؟ مرة واحدة كشف عن مكان الجرح عندما ركب معه شابان من مصر الجديدة إلى ساقية مكى وأبديا تجاوباً معه . بل أن أحدهما انتقل إلى جواره مما سره كثيراً .

(جـ) اعتباراً من ١٩٥٧ ، انتقل الأسطى عبده للعمل بإحدى شركات الأوتوبيس الأهلية . عمل على خط يصل ميدان السكاكينى بالقلعة ، لم يقطع علاقته بالتاكسى ، يعمل به ساعات بعد انتهاء ورديته ، لا يعرف بالضبط متى ارتبط بالست بثينة . لكن الثابت بين الأهالى فى حارة الزعفرانى أنه تعرف إليها من التاكسى ! ، عندما تقول النسوة هذا يخفضن أصواتهن و يبدو على وجوههن اشمئزاز من التاكسى « يعنى لم يطلبها من عائلة » يتناولن جانباً آخر من حياة الست بثينة وهو عملها كراقصة أثناء الحرب العالمية الثانية وجمعها ثروة تقدر بحوالى أربعمائة جنيه أغرت الأسطى عبده على الاقتران بها . اشترت له- قبل زواجها- حلة كاملة وثلاثة بنطلونات ، وخمسة قمصان وعدداً من الجوارب . وملابس داخلية ، يقول البعض- وهؤلاء قلة- أنه تزوجها قبل حرب فلسطين ، ثم طلقها ، بعد عودته و يعيش معها الآن فى الحرام ، و يرد آخرون بأنه لم يطلقها ، العصمة فى يدها . وهى تعتدى عليه كثيراً بالضرب ، و يبدو خائفاً منها حتى فى مشيه عند عودته من عمله فى الظهيرة هادئاً مطرق الرأس لا ينظر حوله ولا يسمع له حس كأنه يود عبور الحارة بسرعة ، استهدفه صبية الحارة أحياناً ، صاحوا عليه ، أخرجوا ألسنتهم ، لم ينهرهم ، لم يحرك ساكناً ، بدا خائفاً منهم ولم يشك صبيا منهم إلى أمه أو أبيه ، فى هذه الليلة ، أول شعبان ، لم يدخل بيته ، قطع الحارة حتى نهايتها ، يلاحظ أن الحارة سد لا تؤدى إلى حارة أخرى . يقوم فى آخرها المنزل رقم « ٧ » ، تحت سلمه حجرة ضيقة يقوم بها الشيخ عطية ، دخل الأسطى عبده ، تربع أمام الشيخ الذى أوشك رأسه أن يلامس السقف المائل ، عبث بحبات المسبحة المعلقة على صدره ، قال « خيراً » ، قال الأسطى بسرعة وإيجاز— كما أوصته امرأته بثينة- أن حياته الزوجية مهددة و بيته سيخرب ، ولا يدرى ما يفعل ، لم يعد قادراً على القيام بواجباته الزوجية منذ أسبوع ، عندما تزوج امرأته سألته قبل العقد ، هل بإمكانك سقى الأرض يوميا ؟ لم تصدقه عندما أومأ مجيباً إنما أختبرته جيداً ، منذ هذه السنوات البعيدة لم ينقطع عنها إلا فى أيام الحيض .

إنها تمرض ، يدركها هزال إذا لم يأتها يومياً ، ومرور أسبوع جاف مجدب فترة فظيعة خاصة أن أحواله لا تتحسن وأعصابه تتوتر ، بحيث يتردد مرات قبل ذهابه إلى البيت ، يخشى عليها من الفتنة لأن طبعها حامى ، لن تستطيع صبراً مع هذه الحال . قال أنه استعمل وصفات بلدية واشترى أعشاباً من الحمزاوى ، وطبق نصائح سائق تاكسى عجوزاً خبر الدنيا بالطول و بالعرض ، برقت عينا الشيخ عطية فى السواد . سمع صوت أوراق تقلب ، أجرى حسابات ، لفظ تمتمات بصوت يشبه صوت طفل ، لم يستطع الأسطى ، رفع البصر ، لكن خيل له أن الشيخ لا ينتبه له ، الأوراق تقلب بطريقة غامضة ، همس منكسراً : أنه إذا لم يشف فستطرده ، بعد صمت قال الشيخ .. « تعال إلى صباح الجمعة الذى يلى صباح الجمعة المقبل قبل طلوع الشمس

— ٢ —

. . يعمل سيد أفندى التكرلى موظفاً بمؤسسة الأمانات العامة ، يدخل الحارة ومعه أفندية يرتدون نظارات طبية . وزراير مذهبة فى أطراف قمصانهم وأحذية غير متسخة ، بعضهم يمسك حقائب سوداء أنيقة ، عدد من أهالى الزعفرانى يقولون أن ثمن الحقيبة الواحدة عشرون جنيهاً . تثور تساؤلات عديدة حولهم ، هل هم أقاربه ؟ أو معارفه من ذوى النفوذ ؟ بعضهم يشغل وظائف هامه فى الوزارات والمصالح ذات الصفة الخاصة . علاقاته بهم سهلت الكثير من أمور الأهالى ، لم يتأخر عندما لجأت إليه الست وجيدة تطلب منه الوساطه لخدمة ابنها أسامة الذى أنهى المرحلة الابتدائية وإدخاله أحد مراكز التدريب المهنى ليقضى فترة بسيطة يتخرج بعدها متقناً لصناعة أو حرفة مما يوفر على عائلته مصاريف طائلة ، و يساعدهم فى مواجهة أعباء الحياة ، وعندما تنفجر البالوعة يقوم بالاتصال الفورى ويجىء أثره عدد كبير من العمال ليزيلوا جميع الآثار القذرة وتنظيف الحارة تماماً ، وعندما لدغ عقرب « علية » ابنة الست خديجة

الصعيدية ذهب معها إلى المستشفى ، عادت لتروى كيف كلم الأطباء ، كيف تحدث إلى الممرضين والممرضات ، كأنه وزير أو مدير ، إنه الوحيد الذى يستطيع إعادة التيار الكهربائى إلى الحارة بعد انقطاعه بدقائق ، كثيرون يتحدثون عن الطريقة التى يديربها قرص التليفون ، إيقاع صوته وهو يصيح « آلو » إنه الوحيد الذى يستطيع الحديث فى أى وقت من تليفون مقهى المعلم الداطورى ، وعلى الرغم من خدماته العديدة لأهالى الزعفرانى فإنه لا يختلط بهم ، لا يعرف أحد شكل بيته من الداخل ، أكد البعض امتلاكه ثلاجة وسخانا وريكوردر كاسيت ، لم تستطع إحدى النساء التصنت عليه لأن مسكنه يقع فى الطابق الأخير من بيت أم كوثر الخامس إلى يمين الداخل من حارة الزعفرانى ، فى مواجهته بيت الحاج عبد العليم المنخفض ذو الطابقين ، هكذا يقوم فراغ فسيح فى مواجهة شقة سيد أفندى ، وبتاريخ ٤ /٨/ ١٩٧١ ، نقلت أم صبرى إلى الست بثينه خبراً هاماً ، رأت سيد أفندى يدخل بصحبة رجل أسمر يرتدى جلباباً أبيض وعقالا ويتكلم قائلا « إيش .. مادرى .. أخى » مصمصت بثينة شفتيها ، قالت أنه رجل محير وامرأته الحلوة مستمرة فى تجاهلها لنساء الزعفرانى ، لو وقفت قليلا فى شرفتها لا تومىء لجارة ، تبدو مشمئزة ، قالت أم صبرى ، البيوت أسرار ، ومادامت متعالية هكذا ، ولا تلقى على جاراتها السلام فما الذى يبقيها فى الحارة ، لماذا لا تنتقل إلى حى أكثر رقياً ؟ تجد فيه نديداتها ومن يزرنها وتزورهن ؟ إن نساء الحارة يرصدنها ، يلاحظن حركاتها عندما تقف فى الشرفة أحياناً ، أو تنشر غسيلا ، أو تطل ممسكة بجردل ماء ، تنتظر خلو الزعفرانى من المارة لتسكبه . بعد قطعها للمسافة القصيرة الواقعة بين البيت ومدخل الحارة تتحدث النساء عن ثيابها ، يحاولن تخمين أسعارها ، من قامت بتفصيلها ؟ عطورها الفواحة ، كما تحظى تسريحة شعرها باهتمام كبير ، غير أن قوامها الطويل كعود النبات الأخضر المرتوى ، وطريقة خطوها تجعل الجميع يرمقونها بإعجاب ، حدث فى العام الماضى أن عويس الفران أقسم يميناً أثناء استعداده لنقل طاولات العجين من

منزل حسن أفندى أنور أنه رأى عربة طويلة تقف فى ميدان الحسين ويركبها سيد أفندى وامرأته . تذكرت امرأة حسن أفندى ما نقله إليها ابنها حسن ، أثناء عودته متأخراً من السينما رآهما ينزلان من عربة لونها أحمر. عويس أخبرها أن لون العربة أبيض ، نقلت ما سمعته إلى زوجها لكنه نهرها ، أنها فى حالها ولا علاقة لها بما يركبه سيد أو غيره ، طلب من حسان ابنه ألا يعود إلى نقل مثل هذه الأخبار. أما الست أم نبيلة فأصغت إلى ما يتردد بحذر، لاتحب الخوض فى سيرة أحد لأنها تخشى سوء العاقبة التى قد تحل بابنتها ، ونبيلة لم تتزوج حتى الآن ، لكنها لم تستطع السكوت عن نقل ملاحظة ، إذ أنها رأت زجاجات خمر فارغة ملقاة فى الزبالة التى يزيلها عبده الواحاتى الكناس ، سألته ، قال أن مصدرها شقة سيد أفندى ، قالت أنه رجل « سبور » يسمح لمعارفه بالسهر فى بيته . ولم يحدث أى بادرة منهم تضايق الجيران ، لكن طرأت عدة ظواهر لوحظت خلال الأيام الأخيرة ، ربما بدا بعضها عادياً بالنسبة لواقع الحياة فى الزعفرانى ، كثيراً ما تستيقظ الحارة فى ساعات الليل المتأخرة بسبب شجار يدور بين أسرة واحدة ، ربما يقف أحد الأفراد ويهدد برمى نفسه ، أو يلفظ سباباً فى الحارة مع أنه موجه ضد أحد المقيمين معه بين جدران أربعة ، اشتهرت بهذا أسر بعينها . وخناقات معينة ، منها مثلا سلسلة المشاجرات الحادة التى نشبت بين زنوبة الممرضة وزوجها عمر الذى عمل كمسارياً فترة من الزمن ثم فصل لسبب لا يعلمه أحد . وخناقات عائلة أم صبرى . وزعيق فريدة البيضاء ضد زوجها حسين رأس الفجلة . ويتميز زعيقها بطبيعته الفكهة مما جعله يحظى بترحيب الأهالى فلا ضرر منه ، ويصبح مسلياً عندما ترفض مداعبات زوجها القزم . وإذا احتج وخرج من البيت تقف فى الشرفة وتخرج لسانها ثم ترش المياه عليه ، بمجرد اختفائه عند المنحنى تبدأ حواراً مع إحدى جاراتها كان شيئاً لم يحدث . والحارة ترهب شجار الست بثينة ، لانها تعرف أكبر قدر من الشتائم والأوصاف البذيئة ، ولها قدرة على لفظها بكميات كبيرة فى أقصر وقت . وأحياناً تعتدى على غريمتها

بطرحها أرضاً ثم ضربها بالشبشب فوق أدق أجزاء جسمها حساسية، أن الأهالى لايتركون الشجار محتدماً ، كثيراً مايذهب الجيران إلى الأسرة المتصارعة، يقضون الساعات ، كل فرد من الأسرة يعرض مايضايقه بصوت عال ، أحياناً يهدد البعض بالانتحار، يشرعون فعلا فى سكب البترول ، أو إلقاء أنفسهم من النوافذ ، هنا يسرع الجميع ، يتعالى الصراخ ، وهكذا عرفت أدق أسرار حارة الزعفرانى ، تلك أمور عادية . لكن أن يصدر زعيق من بيت التكرلى فهذا يثير اهتماماً مضاعفاً ، فى اللحظات الأولى ظن الداطورى أن الأصوات صادرة من بيت الموسيقار « قرقر » لكن طبيعة الأصوات بدت مختلفة ، طريقة الزعيق نفسها اضطرته إلى نقل جسده الضخم وفتح النافذة محاولا تتبع مصدر الصوت لدهشته البالغة فوجىء أنه التكرلى ، أما عاطف الجامعى ساكن الطابق الثالث بنفس المنزل ، والمهتم بإكرام امرأة التكرلى فقال ، أنه عندما سمع ارتفاع الأصوات ، وتكسير الأطباق ، أطل من نافذة المنور الداخلية حيث يمكنه سماع أقل حركة فى البيت ، الصمت الليلى فى الزعفرانى ثقيل جداً ، لا توجد طرق قريبة تجرى فيها سيارات أو ترامويات ، الأطفال يأوون إلى بيوتهم مع نزول الليل ، تختفى صيحاتهم و يضيع ضجيجهم ، بدأ صوت التكرلى واضحاً أثناء رده على شخص آخر يتكلم بسرعة ، لهذا لم يستطع عاطف تمييز ألفاظه خاصة أن لهجته غريبة ، وفيما يلى بعض ما فاه به التكرلى .. « أنا لست مسئولا » ، « لن أرد مليما » .. « العيب فيك أنت » ، فى الأيام التالية تكررت المشاجرات و بدأ طلوع الحس من بيت التكرلى ، وفى اليوم الرابع سمع عاطف ، والمعلم الداطورى ، وحسان بن حسن أفندى أنور ، وأم سهير ، كلهم أصغوا إلى صوت إكرام الناعم الباكى « احتملت كثيراً . لم أعد أطيق .. لم أعد ... » .

الاسم : حسين الحارونى ، الشهير برأس الفجلة ..

المهنة : بقّال ، يعمل مسحراتيا للحارة والحارات المجاورة ، ورث المهنة عن أبيه .

محل الميلاد : حارة الزعفرانى رقم « ٣ »

محل الإقامة : حارة الزعفرانى رقم « ٣ »

الملامح المميزة : طوله ١٢٧ سم ، رأسه منبعج إلى أعلى بميل . مسحوب كقمع السكر أو رأس الفجلة ، عينان مستديرتان كالبلى . سوادهما متجه إلى أسفل دائما كأنه ينظر هلعاً . شفتاه منفرجتان ، أحياناً يرى خيط رفيع جداً من لعاب يصل ما بين فمه وذقنه .

الحالة الاجتماعية و بعض ماجرى فيها :

فى أواخر ديسمبر عام ١٩٥٧ ، جلس حسين رأس الفجلة أمام مقهى الداطورى صباح يوم أحد مشمس خلت فيه الشوارع من المارة توقفت فتاة بيضاء تمسك صفيحة ممتلئة بالكيروسين (فيما بعد عرف أنها تشترى حاجات البيت) . ضحكت لفتاة أخرى جاءت من الاتجاه المقابل وسألتها عن الخياطة التى فصلت فستانها الجديد ، اضطر رأس الفجلة إلى الميل قليلا ليرى الفتاة البيضاء ، ملأ عينيه منها حتى رأى حبات نمش متناثرة على وجنتيها ، مال على المعلم الداطورى ، «إبنة من هذه ؟» ، بعد نظرة متثاقلة قال المعلم « تتزوجها ؟ » إتسعت إنفراجة فمه ، قبض على مبسم الشيشة ، هز رأسه متمنياً بصوت عال لو حدث هذا ، عندئذ أدلى المعلم ببعض المعلومات ، قال ان فريدة هذه إبنة الأومباشى « حدقة » من أحباب الحسين لم يؤذ أحداً ولم يش بانسان ولا يتعاطى المخدرات برغم عمله فى قسم الدرب الاحمر الذى تتبعه الباطنية المزدحمة بتجار

الحشيش والأفيون مما يتيح له فرصة الكيف المجانى ، أب لسبعة ، ثلاثة ذكور وأربع فتيات . قال الداطورى انه لن يرفض له طلبا ، سيرحب لأن فريدة فرحة عمره الأولى ، فى اليوم نفسة وقبل بداية المساعى ، صعد رأس الفجلة إلى سطح البيت حيث تقيم والدته أم الخير فى غرفة بنتها بنفسها ، لا يدرى أحد عمرها الحقيقى ، جسدها محنى حتى ليكاد رأسها يلامس قدميها ، يزعم البعض أنها تجاوزت المائة عام وأن الأسنان الخضراء نبتت لها . لا تتصل بأحد ، لا تقف مع النساء ، أحيانا تعبر الحارة على مهل شديد ، تقصد زيارة أحد الأولياء . يتدلى من عنقها كيس من القماش المتين لا يدرى إنسان محتوياته الحقيقية ، تغيب أياما عن الظهور، لا يلفت اختفاءها نظر أحد ، لكن يحدث أحياناً أثناء وقوف الأهالى فى الشرفات أن يدركهم إحساس غريب ، أنهم مراقبون ، يرفعون رؤوسهم إلى أعلى ، تدركهم رعدة إذ تلتقى عيونهم بنظرات أم الخير التى يبدو رأسها مطلا على الحارة كلها ، يخفى السور جسدها فكأن دماغها مقطوع الصلة به . لا يتصل بشىء ، يحار البعض ، كيف انتصب جسدها المنحنى ، لا تلفظ كلمة ، لا تومىء بتحية ، تظل ساعات ناظرة فى اتجاه واحد ، يخيل للجميع أنها ترقبهم ، كل إنسان يظن أنها تنظر إليه هو شخصياً ، يضطر البعض إلى إغلاق النوافذ والشرفات ، إذا ما أطلوا بعد فترة يجدونها على نفس الوضع ، ثم تختفى أياما ، أحياناً تتوقف أثناء سيرها البطىء فى الشارع تنظر من أسفل إلى شخص مما يجعله يولى بعيداً ، هى كل عائلة رأس الفجلة ، لا يقدم على عمل إلا إذا أخطرها ، لا ترد عليه ولا تجيبه ، ربما يدرك من ملامحها أو حركاتها أو يحس علامات معينة تعنى لديها الرفض أو القبول . لم تتحرك عندما أخبرها . لكنه مضى متحمساً إلى الداطورى وقال إن أمه قد وافقت ، عندما شاع خبر زواجه قوبل بردود فعل مختلفة ، بعض النسوة أبدين إمتعاضا ، خاصة أم صبرى ، وأم حمادة (توفيت منذ أربع سنوات) ، كلتاهما أم لفتاة أو أكثر ، هيئته غير مشجعة لكن المعروف أنه يرقد فوق ثروة ومع بخله الشديد ، لا يرى طوال السنة إلا

بجلباب واحد ، يقال انه لو خلعه فسيقف الجلباب منتصبا لكثرة ما يحمل من قذارة ، ورث عن أبيه بيتاً بأكمله فى حارة الزعفرانى ، وبيتاً آخر فى درب الفراخة . وترددت الشائعات : أنه ينوى هدمه وإقامة عمارة ضخمة مكانه ، ورث أيضاً دكان البقالة الواقع أمام حارة درب المسمط ، أهم ما فيه وعاء زجاجى مستطيل ، ملىء بالليمون المخلل الضخم الذى تشقق لقدمه ولانت بذوره ، يبيع الليمونة الواحدة فى أيام الرخص بثلاثة قروش ، أما الآن فثمنها خمسة ، يبذل فى إعداده جهداً كبيراً ، يعتبر تخليله سراً لا يجوز البوح به ، لكن أخطر ما يمتلكه مخزن ضخم كبير يقع تحت بيته فى الزعفرانى ويمتد إلى ما لا يعلمه إلا الله ، مدخله أشبه بالقبر ، يقال انه مسكون ، يتفرع الى عدة مخازن كلها تحت الأرض ، رأس الفجلة يدخله فى أى وقت ليلا أو نهاراً ، يمتلىء المخزن بقطع أثاث ، وسجاد . وقبعات ، وإطارات صور قديمة ، ومرايا ، وكتب بلغات مجهولة ، واسطوانات ، وعلب خشب ثمين مطعم بعاج وصدف ، وآلات حديدية ، ومصاعد كهربائية ، ومطابخ تدار بالفحم ، فى إحدى الصفقات أخرج رأس الفجلة من المخزن موتور سيارة ضخما وقبض ثمنه أربعمائة جنيه من أحد التجار ، يقال ان المخزن به عربات كاملة تنتمى إلى طرز مختلفة ، أول أوتومبيل دخل مصر يوجد لديه ، كما رآه الأهالى يحضر جسما معدانيا هائلا ، سئل عنه فقال انه مدخنة قطار، رأس الفجلة يغلق البقالة يومى الأحد والجمعة ، يمضى إلى المزادات ، ينتقى منها . يعرفه جميع أصحاب الصالات الأهلية والحكومية فى البلد . كل ما يشتريه يأتى به إلى المخزن ، حدث فى عام ١٩٥٤ أن أرسل أحد الخبثاء عريضة إلى قسم بوليس الجمالية مضمونها أنه يشك فى وجود مومياء فرعونية ، وحلى ذهبية أثرية وجثث موتى لدراسة الطب فى مخزن رأس الفجلة ، حولت الشكوى لسبب ما إلى مديرية البوليس السياسى الذى هاجم المخزن ليلة خميس ، أحضروا رأس الفجلة ، فك الأقفال الغليظة والعوارض الحديدية الضخمة المثبته ، أبدى كربا هائلا ، عجزوا عن إيجاد أى أثر لمومياوات أو جثث ، ذكر

قائد القوة المهاجمة وجود كثير من الآثار الفرعونية لكن بالكشف عليها وجد أنها مقلدة ومسموح تداولها. ترددت أقوال كثيرة بخصوص واقعة تفتيش المخزن، بعضهم أكد أن رأس الفجلة تمكن بوسيلة ما من اغلاق أقسام كاملة من مخزن، بحيث لا يستطيع أدق الباحثين الشك فى وجود منافذ أو حجرات أخرى. (يؤكد بعض الأهالى وجود ممر تحت القاهرة كلها يبدأ من المخزن و ينتهى فى صحراء دهشور)، قيل ان رأس الفجلة رشا قائد القوة بمبلغ هائل ليدلى بتقريره المضلل، وقيل ان للمخزن رصدا من الجن يحجب ما فيه عن البشر عدا رأس الفجلة، لكن البعض قالوا ان الدولة علمت بوجود كميات كبيرة من الذهب فى القبو، لهذا رفضت لفت الأنظار إليه. مع إبقاء رأس الفجلة تحت رقابة صارمة ودائمة حتى لا يهرب الذهب إلى الخارج، واعتبرت هذه الكميات من الاحتياطى الاستراتيجى لاقتصاد البلاد. انعكس هذا على ميزانية عام ١٩٥٥، والمصانع التى أنشئت فيما بعد بفضل هذا الغطاء النقدى الغريب، بعد هجوم البوليس السياسى أغلق محل البقالة سبعة أيام متصلة. قضاها رأس الفجلة فى المخزن يرتب مقتنياته، لم يره أحد لمدة أسبوع. وهذا يعنى وجود مصادر الاكل والمياه بالداخل والا فمن أين أكل وشرب طوال هذه المدة؟ يشاع عنه أيضاً هواية جمع النقود. لديه حساب فى البنك الأهلى فرع الأزهر ولأن البنك يحتفظ بسرية حسابات عملائه لم يستطع أحد الإطلاع على مقداره، يقول دائماً للمقربين منه انه لا يدخر أبدا. والجميع يتحدثون عن كميات نقد سائلة فى بيته، لكنه على حق فهو يجمع النقود ولا يدخرها. يحتفظ بكل ما يصله من قروش معدنية مستديرة أو مثقوبة، يضعها فى صفحية كبيرة حتى تمتلىء، فى بعض الليالى يحضر طشتا يقلب فيه القروش، يصغى إلى صوت اصطدامها المعدنى، يرتبها صفوفا، يعدل وضعها، يكتب بها حروفا وكلمات، ينظم منها أشكالا هندسية غامضة، فيما بعد عرف من فريدة أنه يحتفظ بصفيحة ممتلئة بعملة فضية فئة القرشين المسدسة المصنوعة من الفضة الخالصة والتى اختفت من السوق تماما لأن القيمة الحقيقية للقطعة الواحدة

تتعدى الخمسين قرشاً بالنظر إلى ما تحويه من فضة. لديه صفيحة أخرى تحوى عملات ذهبية مستديرة يحصيها كل خمسة عشر يوما مرة و يغسلها بماء الورد، لديه عملات من زمن الدولة العثمانية، والمماليك، وعملات هندية، ونقود حبشية، وأخرى صينية، وكلها اما من الذهب أو الفضة، نساء الحارة كلها يدركن هذا، تمنين لو تقدم إلى إحدى بناتهن، أم صبرى دعته الى بيتها، أولمت له فهو يحب أن يدعى الى غداء أو عشاء لأن هذا يوفر ثمن وجبة وهو غير ملزم برد هذه الدعوات لأنه بلا زوجة، تندرت علية أم علية فقالت للست بثينة، ربما يتخوف من الزواج لضياع حجته فى عدم رد الدعوات. فجأة. دخل الحارة ثلاث عربات كارو تحمل أثاثا. عربة تحمل مقاعد ودولاباً منصوباً صففت بداخله جلابيب وفـ[illegible]ن زاهية، أخرى تحمل وسائد وأغطية وردية اللون، وصينية بها ثلاث قلل مملوءة بالمياه ومغطاة، ظهر رأس الفجلة، بدأ يشرف على طلوع الأثاث، وعندما انتهى الحمالون قامت مشاجرة بين سائقى العربات ورأس الفجلة حول الأجور، والحقيقة أنه لم يتجن عليهم كثيراً. العربات لم تمش مسافة كبيرة، لكن العربجيه أصروا على بقشيش مضاعف لأنهم لا ينقلون أثاث عرس كل يوم، لم تستمر المشاجرة كثيراً، إذ أن رأس الفجلة تنازل ومنحهم ما طلبوا وهذا يحدث نادراً فى حياته. و يعتبر وصول الأثاث مصحوباً بالزغاريد والطبول نهاية لمرحلة مناقشات طويلة مع أهل العروس، فى البداية عرض رأس الفجلة إعداد الجهاز من مخزنه فى مقابل ألا يدفع مهراً، رحب الشاويش «حدقة» بالفكرة فلو قبض مائة جنيه مهراً لاضطر إلى إضافة ضعفها وهذا أصعب بالنسبة له، لكن أم العروس رفضت الاقتراح لأن أول فرحتها يجب ألا تبدأ حياتها على أثاث قديم، وهنا قال رأس الفجلة أنه سيدفع فى العروس خمسين جنيها ورقة واحدة، أبدت الأم انزعاجا، قالت ان ابنتها تساوى أكثر من ذلك، بعد أخذ ورد ومناقشات تدخل فيها المعلم الداطورى استقر الرأى على أن يدفع رأس الفجلة ثمانين جنيها و يلزم باعداد المطبخ وأكواب الشاى والستائر وطقم صينى

كامل والشوك والملاعق والسكاكين ومرتبة واحدة ، قال للمعلم الداطورى إن لديه سريراً مطليا بماء الذهب ، لسنوات طويلة تمدد فوقه أحد أغوات القصر الملكى ، يعنى لم تضاجع فوقه امرأة . منذ حصوله عليه صمم ألا يفرط فيه برغم الأثمان العالية التى عرضها تجار التحف . سينصبه وسينام فوقه ليلة وفوق السرير الآخر ليلة ، وهنا قال الداطورى افعل ما تشاء لكن لا تتحدث كثيراً عن أمور بيتك . أومأ رأس الفجلة مطيعاً . قبل عقد القران بيومين وقعت مشكلة ، فريدة لم يتجاوز عمرها أربع عشرة سنة ، لكن الداطورى توجه إلى طبيب ودفع له خمسة جنيهات أضيف مقابلها ثلاث سنوات إلى عمر فريدة ، هكذا أصبحت عروساً فى السابعة عشرة ، بعد أسبوع من الدخلة تهامس نساء الحارة بأن فريدة لا تزال عذراء ، لا يعرف كيف انتشرت هذه الأنباء ، أضاف الشبان تفاصيل عديدة ، ذكروا خوف البنت من الرقاد إلى جواره بسبب لمعان عينيه فى العتمه ، واشمئزازها من لعابه ، تحدثوا عن كرهها له من أول ليلة لأنه عندما خلا بها بدأ يتفحصها ، يتحسس ذراعيها . يعد أسنانها ، يحصى أصابع قدميها . يطرق مفاصلها . بلغت الداطورى بعض الهمسات . استدعاه وأطلعه على ما يقال ، قال رأس الفجلة إن البنت لا تزال صغيرة ، لا تدرى شيئاً عن هذه الأمور . كلما اقترب منها تبكى فيبتعد مرتبكا . هنا ضربه المعلم على ركبته ، البكاء علامة الرضا ، عليه ألا يضيع دقيقة واحدة و يأتى بما يخرس الألسنة ، قال إنه لم يسع فى زيجة وفشلت أبدا ، يجب أن يستر ماء وجهه ، فى اليوم التالى لم تفتح نوافذ العروسين ، لم يفتح دكان البقالة لم ترفع العوارض الحديدية لأبواب المخزن ، تهامس الأهالى ، رأس الفجلة يصفى حسابه ، بعد ثلاثة أيام مضى إلى دكانه ، جاءت بعض السيدات يزرن الجارة الجديدة قدمت لهن الشربات . بدت حلوة نضرة ، لكن أم صبرى قالت لأم سهير مساء اليوم نفسه ، انها طفلة لم تنضج بعد . انها خفيفة وبها طيش ، قالت أم سهير صحيح انها بيضاء وعيناها خضراوان كورق الخس ، لكن النمش يغطى رقبتها ، أشارت أم نبيلة إلى نحافتها ورقة جسدها ومثلها لا يجدى

معها وصفات العطارين ولا أدوية التسمين ، ونبهت أم علية الى أنفها الحاد الطويل ، واتفقت الست وجيدة وامرأة البنان وروض وامرأة حسن أفندى أنور أن ساقيها نحيفتان ، ولاحظت زنوبة الممرضة ما غاب على الجميع . فالمشروب الذى قدم ينقصه السكر وهذا يعنى عدم اتقانها لشئون البيت ، وهنا أجمع كلهن على ملاحظة واحدة هى صغر سنها مما يجعل قيامها بواجباتها الزوجية من كنس وطبخ أمراً مشكوكا فيه ، أكدن أنها لن تعمر طويلا ، ثم لاحظن فى الأيام التالية عدة ظواهر : إبتعاد فريدة عن مخالطة جاراتها حتى أنها لم توجه التحية إلى أم سهير المواجهة لها تماما والتى لا يفصلها عنها إلا عرض الحارة الضيقة ، مما استفز أم سهير وصاحت تنادى ابنتها (عمرها أربع سنوات وقتئذ) . « ياسهير . يا بنت العسكرى » و ... التحرش واضحا لأن والد سهير تجار وليس جندياً . لوحظ أيضاً اقبال فريدة على مصاحبة البنات الصغيرات ، حدث فى ظهيرة يوم ثلاثاء أن سمعت أم يوسف ضجة فوق السلم . وعدداً من الصبية يتصايحون ، فتحت باب الشقة ، زعقت لتطرد العيال الذين يحدثون ضجة تهدد بازعاج عمهم طاحون أفندى غريب الذى يشقى طوال الليل ولا يذوق النوم فى هذه الحارة القذرة ، ثم دعت إلى الله كالعادة أن يتوب عليهم من الزعفرانى ، لم تكمل أم يوسف كلامها ، فوجئت بفريدة تجرى وراء الأطفال ، تلهو معهم . من ناحية أخرى أجرت أم علية استجواباً دقيقاً لابنتها التى اعترفت باستدعاء فريدة لها ، أعطتها قطعة (مداغة) طلعتا فوق السطح وعلى مرأى من الأم العجوز خططا الأرض بطباشير أبيض ، وأحضرت فريدة علبة ورنيش قديمة ، بدأتا فى الوثب على ساق واحدة ، ودفع علبة الورنيش عبر المربعات المرسومة فوق الأرض ، لعبتا « الأولى » ، مع مرور الأيام ، زارت فريدة بعض البيوت ، بدت مرحة ، ضاحكة ، لا تعول هما ، لا تقلق من غد ، لا تشكو نقصاً فى زيت أو سكر ، ولا تميل هامسة لتقترض خمسة قروش ، لا تتردد فى خوض أى حديث ، حتى ان أم سهير سألتها عن أحوال زوجها ، لم يتخل عنها مرحها الطفولى وهى تصف

أحواله . أدلت بمعلومات قيمة تناقلتها الألسنة ، بسرعة ، ساهمت في تغيير الصورة الشائعة ، قال الحاج حنفي عباس البهائم ان الله عوضه خيراً ، بل أحسن إليه العطاء ، قالت أم سهير ان ما وصفته فريدة يفوق كل التقديرات ، ونبهت إلى طريقة مشيها بعد الزواج ، قالت أم صبرى انها قابلت فريدة عند محمد الخضرى ولاحظت امتلاء حافظتها بالنقود ، وبدا واضحاً من المتابعة الدقيقة التي قامت بها أم سهير بحكم موقعها القريب لما ينشر من ثياب على الحبل الغسيل أن عدد الأطقم الداخلية الشفافة الغالية تجاوز العشرين ، جميعها وارد الخارج والفساتين لا حصر لها ، أبدت الست بثينة قلقا بالغاً عندما رأت صباح أربعاء عربة صغيرة تدخل الحارة ، يدفعها رجل يرتدى قميصاً وبنطلوناً وصندلا ، تحمل غسالة كهربائية ، أبدت غيظا مكتوماً ، ستصبح الغسالة محوراً لأحاديث النساء ، سيذهبن للاطلاع على طريقة تشغيلها ، الست بثينة حريصة على سبقها الى شراء الأجهزة الحديثة ، مهما طال الزمن بحارة الزعفراني لن ينسى سكانها أول راديو دخل الحارة عام ١٩٥١ . أثناء حفلات أم كلثوم الشهيرة تضعه على حافة النافذة المطلة على الحارة بعد استدعائها لأبى غزالة الكهربائي وتركيبه فيشة بجوار النافذة ، يصغى الرجال والنساء ، إذا حدث أن تشاجرت احداهن مع الست بثينه تعلن غضبها ، ليس من المعقول أن تفتح الراديو لتستمتع إحدى عدواتها ، هنا يتساءل الرجال عن ذنبهم ، يقول حسن أفندى أنور « انت الخير والبركة » . تشعر برضاء لأن ما يقال لها بصوت عال يعتبر تعريضا بغرمائها ، تعلن أنها من أجل الناس الأصلاء في الحارة من أجل الكرام وليس من أجل الدخلاء الذين ابتليت بهم الزعفراني على آخر الزمن . الذين طفحتهم الأحياء القذرة . من أجل الذين بنوا الحارة طوبة طوبة وحرصوا على بعضهم البعض ، من أجل الطيبين ستفتح الراديو . لا تنسى الحارة أيضاً أنها أول من أدخلت البوتاجاز . يوم أحضرته زفه الأطفال ، وقفت أمام كل بيت تشرح للنساء مزاياه وطريقة تشغيله ، وعندما يحين ميعاد تغيير الأنبوبة تزعق من النافذة منادية أحد

الأولاد ليستعجل الرجل ، أثناء تبادلها الحديث مع احدى جاراتها يعلو صوتها فجأة ، « صينية البطاطس في الفرن ولابد أن تدخل لتلاحظها » . عموما لم تصبر الست بثينة طويلا ، بعد شهر واحد من وصول الغسالة إلى بيت رأس الفجلة دخلت الحارة عربية يد تحمل غسالة مختلفة الطراز ، أعلنت في حديث لها مع الست ألطاف أن غسالتها لا مثيل لها وأنها غالية الثمن ولا يوجد منها في مصر الا أربع . ثلاث في قصور الحكام والرابعة في بيتها هي . تعمدت الحديث بصوت عال أثناء وقوف فريدة في الشرفة ، لكن امرأة رأس الفجلة لم تلق بالاً إلى الاستفزاز المتعمد . في المساء قال قرقر الموسيقار لطاحون إن الأربعمائة جنيه مدخرات الست بثينة نقصت بعد شرائها الغسالة ، في الصيف التالى لزواج رأس الفجلة فوجئت الحارة بسابقة ذات شأن ، إذ رأت أم سهير في صباح باكر عند نزولها لتشترى الفول والحليب ، رأس الفجلة يرتدى معطفاً جديداً ويمشى بجوار امرأته وخلفهما رجل يحمل حقيبتين ، أومأت إليهما أم سهير بتحية صباحية ، تساءلت عن وجهتهما ، قالت فريدة بلهجة صبيانية أنهما مسافران لقضاء أسبوعين في المصيف ، سرعان ما انتشر الخبر في الزعفراني كلها ، أصبح المحتوى الرئيسى للحديث الصباحى المتبادل عبر الشرفات وفوق السلالم ، قيل إن هذا من علامات الساعة لأن رأس الفجلة لم يذهب إلى سينما أو مسرح أو مدينة ملاه في حياته ، كيف هان عليه السفر ومصاريف المصيف ، قال الداطورى « الحب يصنع المعجزات » لاقى الخبر انزعاجاً شديداً لدى الست بثينة ، ألقت اللائمة فوراً على الأسطى عبده زوجها . ذكرته باقتراحها منذ عامين للسفر إلى المصيف أسبوعا لراحة بدنها ، لم يرد ، لم يقسم أنها لم تقترح عليه هذا أبدا . طلبت منه حكى هذه الواقعة لكل من يقابله ، فكرت في الذهاب معه إلى إحدى قريباتها ، تختفى أسبوعين وترجع لتقول انها سافرت إلى رأس البر ، بدا لها الأمر مكشوفا ، سيقولون انها غارت من امرأة رأس الفجلة ، لم تنم ، في اليوم التالى قامت بعدة زيارات سريعة إلى جاراتها ، هاجمت فريدة التي أدخلت بدعاً جديدة إلى الحارة ،

أكدت أن الذهاب إلى المصيف عار لأن النساء يكشفن صدورهن وأفخاذهن ، وفوق الرمال تحدث أمور منكرة ودنيئة ، خفضت صوتها عندما قالت إن البنت لعبت برأس الفجلة وأغرته على السفر . هناك ستنفرد به و يسهل عليها خداعه مع الشبان ، في الحارة ترقبها عيون الأهالي الأحرار ، والأطهار ، لكن هناك يحدث كل شيء تحت عيون أعتى الأزواج . قالت لو أنها ابنة حلال لاصطحبت الأم العجوز معها لم يكفها تسببها في الجفوة بين رأس الفجلة والعجوز ، انما تركتها وحيدة تنوء بثقل أعوامها المائة ، أكدت أن رأس الفجلة رجا فريدة لتوافق على سفر أمه ، قال لو تركاها فربما تموت وحيدة ، تأكلها القطط والفئران . رفضت فريدة تماماً ، لماذا ؟ لتسرح في المصيف بدون رقيب . فجر أمس أنت العجوز طويلا وأشفقت عليها الست بثينة ، يجب على نساء الحارة الوقوف يداً واحدة في مواجهة هذه المسخرة ، يكفي افلات رأس الفجلة وزواجه من حارة أخرى ، ردت أم علية غاضبة ، لو جاءها مثله في كفة وثقله ذهباً في كفة أخرى فلن تقبله زوجاً لإبنها ، قالت الست بثينة لنفسها ، المرأة تبدى الرفض الآن لكنها حفيت في الجرى وراءه لتزوجه علية حتى أنها اقترضت ثلاثة جنيهات لتشترى أوزة وسمنا وخضارا عندما أولمت له ، قامت الست بثينة بعدة زيارات يومية متعاقبة لجاراتها لدرجة أنها نسيت وزارت أم يوسف مرتين في يوم واحد وقالت نفس الكلام وعندما انتبهت إلى ذلك أدركت الضرر الذى قد يلحق بهدفها . لكنها أبدت حرارة وغيرة لا نهاية لها طوال الأيام التالية حتى تقاطع الحارة الفاسقة الصغيرة ، وأمام دكان محمد الخضرى قالت أم نبيلة لأم يوسف ان الست بثينة آخر من يغار على الحارة وذلك لماضيها في الرقص وفجورها المعروف ، لم تكمل وطلبت من أم يوسف ألا تذكر شيئاً على لسانها مما قالته تجنباً لوجع الرأس ، بعد أربعة عشر يوماً سمعت أم سهير ضجة وحركة في الزعفراني ، أطلت والصباح باكر ، نوافذ بيت رأس الفجلة مفتوحة ، صاحت تستفسر عمن بداخل الشقة ، من يدرى ؟ ربما دخل بعض اللصوص ، اصغت إلى وقع خطوات سريعة

فوق بلاط الشقة ، فريدة تطل مبتسمة ، جلدها الأبيض اكتسى لونا برونزيا . أبدت أم سهير ترحيباً قالقاً ، وصلت الأنباء الى الست بثينة حوالي العاشرة فهي لا تستيقظ من النوم أول النهار كنساء الحارة و يقال هذه عادتها منذ عملها كراقصة أيام الحرب ، علمت بترحيب أم سهير الحار وقوبلها بالحرف الواحد ، ان الحارة أظلمت بسفر فريدة ، وأضاءت بعودتها ، علمت أيضاً بزيارة فريدة لأم يوسف وامتدادها ثلاث ساعات ، لم تعرف ما جرى خلالها ، والحقيقة أن فريدة حملت كيساً مليئاً بحب العزيز وآخر به حلوى سمسمية وحمصية ، قدمتها إلى جارتها ، حكت عن المصيف . كيف نزلا البحر في مكان قصى ، لم يتوغلا إلا لموضع غطت فيه المياه ثدييها ، ضحكت ، قالت ، إنها ضغطت رأس زوجها في الماء مرات ، تخبط بيديه كسمكة لم تفارقها الروح ، لكنه تجرأ وفعل مالا يجب فعله في الماء ، أبدت أم يوسف دهشة ، قالت فريده انه تساءل عن إمكانية حدوث هذا الأمر عليه ، جلسا متواجهين على مقربة من الشاطىء الضحل ثم اقترب منها ، رأساهما يبدوان للناظر من الشاطىء منفصلين ، لكن جسدهما ملتحمان تماماً ، قالت أن هذا مثير للغاية ، وتلك أجمل مرة ، اشترى لها كل ما اشتهت ، أكلت جلاس اسمه كلوكلو وجمبرى سويسي مشوى ، تعرضا لمضايقات أثناء مشيها في الغروب ، أضحكها بعض ما أطلقه الشبان على زوجها ، تساءل أحدهم ، كيف ينجب هذا القرد تلك الحورية ؟ هنا ضحكت فريدة ودفعت أم يوسف في ركبتها ، قالت « ظنوني ابنته » في المساء لا ينزلان ، دائماً يجذبها إليه أول الليل ، لا يتركها حتى الفجر ، تضحك فريدة بخجل طفولي ، تساءلت أم يوسف ، هل حدث هذا كل يوم في المصيف ؟ قالت فريدة هذا يحدث يومياً منذ زواجها ، في البداية بدا لها الأمر بلا معنى لدرجة أنه كثيراً ما غمره العرق وارتفع صوت تنفسه أثناء نومه معها بينما تتسلى بمص قطعة حلوى ، أو تضربه على ظهره معاتبة بين الحين والحين ، أو تطلب منه أن يروى لها نكتة ، والغريب أنه يلبى كل ما تطلبه لكنه لا يتوقف أبداً ، تعودت ذلك ، تصغى أم يوسف متعجبة للبساطة التى

تحكي بها محدثتها وتتخيل ما تسمعه وتقول لنفسها ، ياسلام ، يضع سره في أضعف خلقه ، قالت فريدة إن زوجها ابتهج جداً ، لو رغبت السفر في أي وقت فسيغلق البقالة ويصحبها ، ضحكت أم يوسف ، قالت إن سفرها لم يعجب البعض ، أبدت فريدة دهشة ، بعض نساء الحارة لا يضمرن الحب للناس ، لا يتركن الخلق في حالهم ، من هؤلاء بثينة الراقصة ، لا ينجو أحد من كلامها ، غجرية تفرش الملاءة ولا تتورع عن خلع ثيابها كاملة في أي مشاجرة تخوضها ، منذ سفر فريدة لم تكف عن التشنيع ضدها ، ترددت أم يوسف عندما لاحظت عدم اهتمام فريدة ، قالت إنها تطلق اسما لا يليق على سي حسين ... زمت شفتيها ، قالت إنها لا يمكنها لفظه فهي تحترم سي حسين وتراه رجلا يفي بكل ما يحتاج إليه بيته ، قاطعتها بحركات سريعة هزت جسدها ، كأنها طفل يجذب ذراع والده ليشتري له الحلوى « والنبي قولي والنبي قولي » ، استغفرت أم يوسف ، قالت « تسميه رأس الفجلة » ، لمدة لحظة بدا على فريدة تعجب ثم علا ضحكها مرحاً ، قالت أم يوسف إن الأمر لا يضحك ولو سمعت من يصف زوجها بمثل هذه الكلمات لفتحت كرشه ، تخيلت فريدة لحظة دخول زوجها ، عيناه المحملقتان إلى الأرض ، رأته بعيني عقلها إذ يستيقظ في الليل ، يتأمل نقوده ، أحياناً أثناء إنهماكه تقرصه ، تدفع أصابعها تحت إبطيه ، تدغدغه ، لا يتمالك نفسه ، يتلوى ضاحكا ، ما أدق الوصف . في العصر نادتها أم سهير ، بدا ذهابها إلى الحريم مسلياً ، تصغي إلى حكايات وتسمع أخباراً ، أخذت معها بعض الحلوى ، قالت أم سهير إن هذه تكاليف لا داعي لها ، لم ترد فريدة إلا بكلمتين « خدي .. خدي .. والنبي خدي » صاحت أم سهير أثناء تناولها لأقراص السمسمية والحمصية ، اللهم صلي على النبي ، اللهم أحرسها اللهم نجها ، يابركة السيد ، بعد حديث قصير قالت إن لديها ما تود إطلاعها عليه ، مرة أخرى أصغت فريدة إلى ما قالته بثينة عنها ، ما أدهش أم سهير أن فريدة لم تبد إنفعالا إنما قامت فجأة بحجة انتظارها لبعض صديقاتها ، في الحارة وقف ثلاث فتيات

يرتدين الزي المدرسي ، صحن مرحبات عندما رأين فريدة ، علمت الست بثينة أن كل ما قالته وصل إلى فريدة مضافاً إليه ما لم تتفوه به ، كتمت غيظها أرجأت إنتقامها منهن إلى فترة أخرى ، تمنت لو أبدت البنت المفعوصة أي بادرة عدوانية عندئذ تريها عجباً ، تفجر كل ضيقها . تخوض معركة من أعنف معاركها ، خناقة تؤرخ بها الحارة لسنين مقبلة ، فريدة لم يهمها من الأمر كله إلا وصف ، « رأس الفجلة » ، وعندما صادفت بثينة في الحارة وتذكرت أنها صاحبة الوصف سرت روح مرح عابث داخلها ، أحنت رأسها محيية ، لكن بثينة تجاهلتها ومطت شفتيها احتقاراً ، ما غاظها تجاهل البنت لاستفزازها مما جعلها تعتبر ذلك تحدياً يجب ردعه ، لم تعد فريدة تنادي زوجها إلا « يا رأس الفجلة » ، في ليلة قالت له « أحبك يا رأس الفجلة » ، صفق بيديه ، حرك ساقيه عالياً ، قال مبتهجاً ، « قولي مرة ثانية » ، كررت « أحبك يا رأس الفجلة » وهو يبدي مزيداً من السرور مع أنه خاض في اليوم نفسه مشكلة بسبب هذا الوصف ، إذ صاح عليه بعض الأولاد ، « هل هلالك يا رأس الفجلة » . أبدى غضباً ، طار وراءهم لم يلحقهم ، حدث أن انفصل أحد الخبثاء من الصبية واسمه حمدي عن رفاقه ، اقترب قائلا إن زعيم الأولاد هو « مرزوق » ابن أم مرزوق ، اتجه رأس الفجلة فوراً إلى قسم الجمالية ، طلب من الضابط النوبتجي فتح محضر ليدلي بأقواله ، أرسل الضابط يستدعي مرزوق ، عندما رأت أمه العسكري وبيده ورقة صاحت ، « ياخرابي » ، ذهبت إلى القسم ليأخذوها بدلا من ابنها ، بكت ، استعطفت رأس الفجلة ، ذكرته بأولاده المقبلين ، أصر على شكواه وضرورة المضي في الإجراءات وإرسال الصبي الى الإصلاحية لأنه كاد يفقد حياته بسببه ، في هذه اللحظة دخل عسكري ممسكا بمرزوق من ياقة جلبابه ، صرخت أمه « وحياة الست فريدة » ، اضطرب رأس الفجلة قليلا ، لحظ الضابط تردده ، سأله « هل ترغب في التنازل عن شكواك ؟ أومأ موافقاً ، هنا التفت الضابط الى مرزوق طالباً منه تقبيل رأس عمه ، تقدم الصبي خائفاً ، لم يشب على قدميه كثيراً لأنها

متقاربان فى الطول ، أقسم فيا بعد لأصحابه أن ملمس دماغ رأس الفجلة كثمر اللفت ، احتج بعض الأهالى ، يعرض مستقبل صبى صغير للخطر ؟ على الأقل يتسبب فى ضربه بالقسم مما يصيبه برعب لا تزول آثاره مهما عاش ، وربما سبب هذا مرضاً ، شجعت هذه الأقوال « مرزوق » ، تربص منتظراً مرور رأس الفجلة تحت الشرفة ، وألقى الماء المتجمع فى صينية القلل ، تصادف وقوف امرأته ، رأته مبتلا ، شبت على قدميها ، غمزت بعينيها عندما رأته يرتجف برداً ، أصرت متخابثة على استحمامه فوراً بالماء البارد الطاهر ، تمنت وجود صاحباتها لينظرن سرواله وخوفه كصبى من المياه الشتوية ، بعد يومين رماه مرزوق برأس كرنبة ، اتجه إلى الداطورى طالباً منه التدخل لحمايته ، هنا استدعى المعلم أم مرزوق وطالبها بوضع حد للاعتداءات المتكررة والتى يمكن أن تستفز رأس الفجلة . وتعهدت أم مرزوق بمنع ابنها فهى وحيدة بلا سند ، وزوجها يعيش بعيداً عنها ، ولا تستطيع الذهاب إلى القسم مرة أخرى ورؤية الضابط « أبونجوم » فيا تلا هذا من شهور وأعوام نضجت فريدة . أصبحت أنثى فاخرة وأما لفتاتين ، نشوة وميرفت ، إنهما لا تحملان من أبيهما أى شبه ، عندما تخرج الأسرة تبدو الأم وابنتاها كشقيقات متقاربات السن ، أما أبوهم فغريب أرسل لصاحبتين ، لم تتخل فريدة عن لهجتها الصبيانية ، شاركت ابنتيها اللعب واللهو لتشبع رغبتها فى العبث الصبيانى ، الثابت أن الفتاتين لا يكنان احتراماً لوالدهما . إذا ما نشب نزاع طفيف تنحازان فوراً إلى جانب أمهما ضد رأس الفجلة ، من يراه الآن لا يلمح آثار مرور الزمن ، شعر رأسه أسود كما هو ، خطواته ، حجم جسمه لم يزد ، لم ينقص عيناه تطلان على العالم بتعبير لم يغيره تعاقب السنين ، غير أن أهالى الزعفرانى يمكنهم القسم غير حانثين إن واحداً لم ير رأس الفجلة يخرج من بيته خلال الأيام الثلاثة الأخيرة : الثابت أيضاً أن أى واحد من الأهالى لم يستفسر عن غيبة رأس الفجلة ، لم تسأل عنه أم سهير التى تسكن فى مواجهته ، لم تذكر أم يوسف كلمة ، بل إن عدداً من نوافذ الزعفرانى لم يفتح خلال الأيام الأخيرة ،

حتى نافذة الأستاذ عاطف الأعزب الذى تعودت الحارة وقوفه قبيل الغروب مرتدياً حلته الكاملة صيفاً وشتاء ، يبدو أن بعض الهموم غير العادية شغلت الأهالى عن بعضهم البعض ، الثابت بالدليل القاطع ، وبالرجوع إلى عدة مصادر تاريخية ، وإلى حكايات المعمرين الشفهية ، أن هذه سابقة لم تحدث قط فى تاريخ الزعفرانى . فى اليوم الرابع لاختفاء رأس الفجلة خرج من باب بيته ، اتجه إلى داخل الحارة ، لم يطأ هذا الجزء طوال حياته إلا مرتين . الأولى للعزاء فى وفاة جد حسن أفندى والثانية لمعاينة شيزلونج قديم أرادت صاحبته المرحومة أمينة بيعه بعد أن ضاق بها الحال ، توقف قليلا أمام البيت الأخير . عبر الباب المظلم ، جاءه الصوت غامضاً كأنه قادم من تحت الأرض :

« أدخل بسلام الله » :

مع خطوه إلى داخل الحجره سمع الشيخ عطية يقول إنه يعرف كل ما جاء حسين الحارونى ليقصه ، لن يخبره بشىء إلا يوم الجمعة المقبل . بشرط مجيئه قبل طلوع الشمس على الدنيا بسبع دقائق ...

— ٤ —

الساعة الثامنة مساء اليوم ، الأربعاء ، ساعة حاسمة بالنسبة لعاطف الأعزب ، الموظف بالهيئة العامة لزراعة الخضراوات ، خريج الحقوق ، الجامعى الوحيد بالزعفرانى ، الساكن بمفرده فى شقة ثلاث حجرات وصالة بالطابق الثالث ، منزل رقم ٥ ، أو كما يعرفه الأهالى بيت أم محمد مع أنها ليست مالكته ، نسب إليها لأنها أقدم ساكنة ، ولجلوسها الدائم أمام بابه ترى الضوء ، تشم الهواء ، أحياناً تتبادل الحديث مع النساء ، أما صاحبة المنزل فهى أم كوثر الاسكندرانية المقيمة بحارة بير جوان ، لا تجىء إلا مرة واحدة فى الخامس من كل

شهر لتحصل الايجار، الآن ينظر عاطف الأعزب من بين فرجات المصراع الخشبي للنافذة، يبدو جزء من أرض الحارة والبيت المواجه له، يضيق بضوء الفانوس، يودلو اعتمت الحارة كمعظم لياليها مع أنه تبرع كثيرا لشراء مصباح كي يبقى الفانوس مضاء، الأولاد لا يبقونه سليما يومين متتاليين، أثناء لعبهم يشوط أحدهم الكرة فتحطم اللمبة، يسرعون بالجرى مع أن أحداً لن ينال منهم. ربما زعق عليهم البعض لاعنين جدودهم وأباءهم وأمهاتهم اللواتى يدفعنهم إلى الحوارى تخلصاً من زحامهم وضوضائهم، يود الآن لو تحطمت اللمبة، يلمح قشر بطيخ، بقايا خضراوات، حطام سلة ملقاة، منذ سنوات أضيئت الفوانيس بالغاز، يذكر رجلا يحمل سلماً طويلا يسنده الى الجدار. يشعل المصباح، يتغيب أحياناً فيطغى الليل بلا مقاومة. الآن يخفق قلب عاطف، يبتلع لعابه، «روض» تعبر الحارة، يتجه إلى باب الشقة، يفتحه على مهل، يصغى إلى وقع الشبشب فوق السلالم. لا يسمع حساً مما يدل على صعودها بحذر، إذا استوقفتها امرأة فلديها الحجج والأعذار، عندما تطرق الباب ستدخل معه إلى حجرة النوم فوراً، الغرفة الأولى لا يوجد بها إلا مكتب وثلاثة كراسى ورف يحمل كتباً قليلة، دخولها غرفة النوم مباشرة سيوفر عليه مرحلة الانتقال من غرفة المكتب، سيدعوها للجلوس فوق السرير. فى لحظات قصار يستدعي مراحل تعرفه بروض، في خروجه ودخوله يعرف أن حركاته مرصودة. أقل نظرة تحسب عليه فهو الأعزب الوحيد. فى الشهور الأولى التى تلت بدء إقامته، جاءه الحاج حتفى عساس البهائم، تحدث إليه، اقترح عليه إحضار والدته من البلدة لتقيم معه، تخدمه وتؤنسه، أجابه بجفاء، لم يتحدث إليه أحد بعدها. عندما عرف الأهالى أنه موظف محترم وجامعى أظهروا له احتراماً، لم يبد منه ما يضايقهم، مع مرور الأيام لاحظ أن نساء الحارة يرقبنه باهتمام لحظة خروجه اليومى قبل الغروب، يرتدى حلته ونظارته و يلمع شعره فى ضوء النهار الخافت الراحل، يمشى متمهلا حتى يختفى عند المنحنى، فى هذه الفترة ــ رحيل النهار ــ تطل

النساء، يتبادلن الحديث أو يطلن النظر إلى الحارة حيث لا تتجدد الحركة و يندر ظهور الغريب فيها لأنها حارة سد، تدور تخمينات كثيرة حول مقصده. قالت الست بثينة إن زوجها أثناء عمله بالتاكسى بعد الظهر، أوقفه ثلاثة شبان وامرأتان. فوجىء أن أحد الثلاثة هو عاطف، من الحديث المتبادل عرف أنهم يقصدون بيت أحدهم، بخبرته الطويلة فى التاكسى أدرك نوعية السهرة التى سيقضونها، لم يعرفه عاطف، بدا أكثرهم مرحاً، وأفدحهم مجوناً. لشدة دهشته ظنه شخصاً آخر لكنه رأى وجهه جيداً فى المرآة المعلقة أمامه. فى رواية أخرى قالت أم يوسف إنه شوهد مع بنت كالقمر فى شارع فؤاد، علقت أم سهير قائلة إن هذا طبيعى بالنسبة لشاب فى سنه، ليفعل ما يشاء خارج الزعفرانى مادام يحافظ على حرمة جيرانه ولا يجرح مشاعرهم، ثم قالت أم يوسف بعد فترة إنها رأته يقبل البنت الممرضة فى مستوصف الشهداء، لم يفت الست بثينة السؤال عن الظروف التى رأتهما فيها أم يوسف؟ قالت إنها ذهبت لتأخذ حقنة بنسلين فى العضل بسبب التهاب لوزتيها، عندما دخلت المستوصف حوالى الثالثة والنصف وجدته خالياً. المفروض أنه يغلق من الثالثة حتى الخامسة لكن فكرية الممرضة تسكن شبرا، و بدلا من ذهابها وعودتها فإنها تفضل البقاء فى المستوصف، إذا جاءها أحد ومعه حقنة تستفيد بالقرشين إذا أعطت الحقنة فى العضل. وثلاثة إذا حقنت فى الوريد، عندما دخلت لم تجد فكرية فى الصالة، ولأنها تتردد كثيراً على المستوصف عرفت أنها موجودة فى غرفة الغيارات، لأن حجرتى الكشف مغلقتان ومفاتيحها لدى الطبيب، قطعت الممر القصير الموصل لحجرة الغيارات التى هى فى الأصل مطبخ الشقة. هنا كاد قلبها «ينط» من صدرها. رأت سى عاطف منحنياً على فكرية يعصرها فى أحضانه، يقبلها كما يحدث فى السينما، يمص شفتها السفلى بينما تمص هى شفته العليا، شهقت الست بثينة، «يابنى الشيمة»! قامت لتقص الحكاية على أم سهير، أضافت موقفاً عرت خلاله صدر فكرية الممرضة وأحاطت ثديها الأيمن بيد عاطف، لم يفتها أيضا

إدراك لهجة الاعجاب التي تتحدث بها أم يوسف عن سي عاطف ، بعض النساء أدركهن حنق خفي لعدم التفاته إلى ما تحويه الزعفراني من كنوز ، في البداية قلن لأنفسهن إنه تعلم في الجامعة ومن الطبيعي أن يرافق فتيات جميلات ، لكن فكرية سمراء وقبيحة وممرضة ، والحقيقة أن عاطف حريص جداً ألا يشوه سمعته برغم تعرضه لضغوط من أصحابه . حدث أن اصطحبوا بعض الفتيات ، حاروا في التوجه بهن إلى شقة ، رفض بشدة التوجه إلى بيته ، منذ حوالي ستة شهور وأثناء خروجه الصباحي قابل شابة بيضاء ، واسعة العينين ، تحمل طبقاً مليئاً بالفول ، تجاوزته ، قاوم رغبة خفية في النظر إلى الخلف ، قضى يوماً مشبعاً بالنظرة الخملية الأسيانة . شبه خفي يجمعها مع « رحمة » لم يحدده بالضبط ، أهي طريقة المشي .. ؟ أم طبيعة النظرة ؟ إنه يرقب نساء الحارة من عزلته ، لم يرها من قبل ، من هي ؟ في اليوم التالي قابلها عند جامع سيدي مرزوق ، الحركة هادئة في الطريق ، صبية مدارس ، رجل يبدو أنه يعمل كمساريا إذ يمسك حافظة جلدية تحوي تذاكر ، تمهل قليلا بجوارها ، تسرب إليه وجودها الأنثوي ، بعد خمسة أيام من اللقاءات الصامتة توقفت أمامه . فتحت ملاءتها ، لمح ثوبها المنزلي القصير ، على مهل بدأت تحكم لف الملاءة ، هل تشبه رحمة في نظراتها ؟ تشابكت عيناهما ، قالت بوهن ، صباح الخير ياسي عاطف ، وسرت حرارة في دمه ، مشت أمامه ، تجاوزت بائع الفول ، ودكان الحليب و بوابة بيت القاضي ، مالت إلى حارة قرمز ، قال صباح الخير ، قالت صباح الهنا ياسي عاطف ، زرع صوتها شوكا في جسده ، إلى نخاعه نفذ هذا التعب الذي يطل خفيفاً من عينيها ، قالت إن اسمها روض ، ابنة أم صبري ، لم يرها من قبل لإقامتها في بيتها بالدرب الأحمر ، لم يعد بيتها الآن ، طلقت من زوجها عبد الرسول عامل المصبغة ، تكررت اللقاءات خاطفة ، سريعة في قبو قرمز ، في احدى المرات أمسك ذراعها حتى انحسرت الملاءة عن كتفيها ورجته إتقاء الفضيحة ، هي تحت أمره لكن في الستر ، كيف والعيون مفتوحة ؟ لاحظ أهدأ أوقات الحارة ، بعد الغروب اليومي ،

تخلو الشرفات ، يمكن لروض الخروج حتى شارع الجمالية ثم العودة بخطى سريعة إلى بيته . أم محمد تنام مع مجيء الليل ، على المكوجي لا يأتي مبكراً وامرأته الريفية تغلق الباب خوفاً من المدينة . الآن يفتح عاطف أفندي باب الشقة ، بقدر ما يرغب ضمها ، بقدر ما يود التطلع إلى عينيها طويلا ، باحثا عن الشبه الخفي والمعنى الغامض المستعصي عليه ، يشدها إلى صدره ، تهمس « أنا مشتاقة .. مشتاقة قوى » . تلقي ملاءتها فوق السرير ، يبدو ثوبها المنزلي القصير ، يكشف عن طلائع فخذين ، مرمريين ، قويين ، لم يترهلا ، تتحرك حتى تفسح له مكاناً ، عندما ألقمته شفتها السفلى بدأ قلبه يثب . ماذا جرى ؟ في المرات السابقة مع الأخريات لم يتأخر حتى هذه اللحظة ، مغامرات عابرة ليس من صفاتها الاستمرار . نساء يجهلهن ، لا تخصه واحدة منهن ، كاديتهور و يعرض سمعته للخطر تحت القبو مقابل ضمة أو قبلة . لا ينقصه الآن إلا أن يبدأ ، حرارة جسدها تصله ، لكن ... ربما حدث هذا بعد التصاقه بها ، يقبل رموش عينيها ، يمسك طرف الثوب ، تحرك جسدها لتساعده في خلعه . تدفع نهديها المستيقظين إلى صدره ، ماذا جرى ؟ إبتعد . يواجه أوضاعاً لم يعرفها من قبل . « مالك .. مالك ياسي عاطف ؟ » ، صوتها مشبوب بالرغبة ، يقول ، « أفضل لو تكلمنا قليلا » ، بدا له قطار بلا جرار ، وجه بلا أنف ، يصغى إلى ارتعاشاتها وتأججاتها ، حتى الآن لا يستطيع معالجة هذا اللهب ، تدرك روض صعوبة الأمر ، عليها بالانتظار قليلا رغم خدر جسمها المصحوب بدفء أنفاسها التي تفقد السيطرة عليها فتتحول إلى ما يشبه الشخير الخفيف غير المنتظم . منذ مجيئها إلى الزعفراني لم يقربها ذكر . من السهل عليها الذهاب إلى المعلم فرغلي الفاكهي ، ترددت عليه كثيراً أثناء إقامتها مع زوجها ، منذ لقائها بالأستاذ لا تفكر في المعلم ، لم تستجب لمداعبات الحاج نصيف صاحب المخبز ، ملأ عليها الأستاذ عقلها وقلبها . بعد تحية الصباح الأولى مر يومها حلماً طويلا ، تعيش خطوه المتأني ، أصبعه عندما يزيح النظارة إلى أعلى . تنظر من النافذة وسرور

خصب يملؤها . هذا الأفندى يخصها بنظراته ، بأحاديثه ، بملامستها فى القبو ، كثيراً ما حسدت البنات اللواتى يتعلقن بأذرع الأفندية ، بنات الثانوى الماشيات بجوار شبانهن ، وجناتهن المحمرة خجلاً ونشوة ، عندما مرت بأعمارهن رأت الشقاء كله والتعب كله ، تذكر مرورها أمام حديقة ، غطاء خضرة ، يجلس فوقه شاب وفتاة ، تذكر لون حقيبتها البيضاء التى اسندتها الى جوارها ، تمنت لو خرجت الى حديقة مع رجل ، ليس المعلم فرغلى ولا الحاج نصيف إنما إنسان آخر لم تستطع تحديد ملامحه وقتئذ ، حنون ، يهمس إليها بكلمات وتحمر خجلاً ، تمنحه نفسها راغبة ، لا يفك رباط سرواله الطويل بمجرد اختلائه بها ثم يخور فوقها ، هل يقبل عاطف أفندى مصاحبتها يوماً إلى حديقة ؟ ألن يخجل من ملاءتها اللف ؟ تود عندئذ لو أخبرت زوجها السابق عبد الرسول الصباغ ، أذاقها الهوان ، إنتقلت معه عبر حجرات مظلمة ، زعيقه الصباحى ، يرمى إليها قروشاً عشرة ، عندما تتساءل . . كيف تدبر أمرها بهذه القروش القليلة ؟ يزعق ، إن يوميته سبعة عشر قرشاً ، هل يضرب الأرض فتطرح بطيخاً ؟ هل يصنع الفلوس ؟ يكفى أنه لا يفطر ولا يتناول غداءه معها ، لتدبر نفسها وتحمد ربها ، لولا المعلم فرغلى و بعض زياراتها القليلة لمحمد الكتبى الساكن خلف الجامع الأزهر لتعفن فمها من الجوع وجف اللبن من ثدييها ومات ابنها سيد . محمد الكتبى يحلو له تأملها عارية ، يطلب منها الوقوف ، يمر بلسانه على ظهرها ، بأسى ، هل مثل هذا الجمال يلقى الإهانة ؟ أما المعلم فرغلى فيقول بعد أن يدس فى يديها ريالا إنه لم ير امرأة أمتعته كما تمتعه روض ، و يتبع كلامه بتجشؤ تقشعر منه ، تود لو تقول هذا لعاطف ، كلهم أبدوا إعجابهم بأنوثتها . إنه صامت ، يرقد بجوارها هادئاً ، عريه يسعدها ، الآن اجتازت لحظة أدركت معها أن لا أمل . بدأت تشعر براحة ، بعد أن تجرد من ثيابه لم تر الهالة التى تحيط به لحظة خروجه ، بدا جسمه نحيلاً وساقاه رفيعتان جداً ، لكن من الآن يمكنها التباهى بينها و بين نفسها بأنها رفيقة عاطف ، خريج الجامعة ، لم تدرك طبيعة عمله ولا اسم الوزارة أو الهيئة التى

يعمل بها ، أو نوعية التعليم الذى تلقاه ، يكفى شهادته العالية ، صحيح أنها لن تستطيع إعلان علاقتها ، لكن مجرد ترديدها التفاصيل بينها و بين نفسها سيرضيها جداً ، إذا قابلها محمد الكتبى أو المعلم فرغلى فستعتذر عن صحبتهما ، ستقول أنها تعرفت إلى شاب طيب معه شهادة عالية وموظف ، إنه يغار عليها جداً ، وعدها بصحبتها إلى حديقة ، لا ، ستقول أنه يخرج معها يومياً إلى الحدائق ، يجلسان على شاطىء النيل ، يمسك يدها ويهمس لها ، ربما يسخر المعلم فرغلى ، يبدو حزن فى عينى محمد الكتبى ، ستقول بسرعة أنه سيتزوجها ، لقد عرفها بأمه والترتيبات تجرى كالمعتاد فى أى زيجة محترمة ، ودت لو تقول لها هذا ، كأن مجرد نطقها يحققه فعلاً ، أما الآن فعليها بذل جهد مضاعف لترضيه ، ظهر اليوم ، أذابت نصف صابونة معدا - اقترضتها من فريدة امرأة رأس الفجلة ، ينظر إليها وفى عينيه كرب هائل ، يود لو تقدم ، تموت فى مخيلته لحظات تمنى لو تحققت ، يود لو تكف عن احتكاكها كهابه وتمر بر أناملها على ظهره ، يهمس « قومى . . البسى » ، يرى خصرها الرقيق ، استدارة ردفيها ، إنبساط فخذيها ، صدرها النافر لم تبله مداعبات زوج غشوم وآخرين لا يدرى عنهم شيئاً وفقر مدقع ، ماذا جرى ؟ ماذا لو عرف أصحابه ؟ كيف يذكر الموقف بعد إنصرافها ؟ كيف يعبر الزعفرانى ؟ قالت أنها ستجىء مرة أخرى ، صاح . . انتظرى . . قام ، ستر جسمه بملاءة السرير ، دس يده فى جيب جاكتته ، مد إليها جنيهاً كاملاً ، اتسعت عيناها ، فيها عتاب وذلك التعب ، قالت « . . لا يصح ياسى عاطف » . . .

— ٥ —

. . طلب الشيخ عطية من عويس الفران أن يحدثه عن أمرين ، الأول تفاصيل أحواله ، ما جرى له منذ نزوله القاهرة ، الثانى ، اسم أمه ، بدا لعويس سهولة الطلب الثانى ، أوشك على التفوه بالرد ، لكن نظرات الشيخ إتقدت فى عتمة الغرفة ، خيل لعويس أنه رأى حبتى مسبحة مستديرتين توهجتا فى الظلام

موضع العينين ، طلب سماعه أولا ، قال عويس ــ ورهبة تغشاه ــ أنه خلال الأيام الأخيرة وقع له عارض يمنعه من رزق جاءه في الشهور الماضية ، هذا العارض يساوى بينه و بين النساء ، هنا جاء صوت الشيخ غريبا كأنه صادر من غرفة شديدة الاتساع يتخللها دخان كثيف منتظم . ولم يستطع عويس تسديد البصر إلى الأمام . تساءل الشيخ عطية عن عدد الأيام التى تعطل فيها كرجل ؟ . قال عويس ، سبعة ، قال إنه تلطم طويلا ، ومارس مهناً صعبة منذ مغادرته قريته في الصعيد وهو ابن ست عشرة سنة ، جاء إلى مصر ماشياً ، في طريقه جنى قطنا وحصد غلة وتسلق النخيل مربوطا بحبل ليجمع محصول البلح . عزق أراضى . نقل المياه بالشادوف . حمل الحجارة من فوق الشاطىء إلى القوارب الكبيرة . كبس القطن بقدمية واستنشق الشعيرات . حتى نزل القاهرة فمضى إلى مقهى السلام بالحسين حيث يتوافد بلدياته . في البلدة قالوا له ، أبواب الرزق مفتوحة في مصر ، ربما ضرب معه الحظ فيمتلك ثروة كبعض أهالى البلدة الذين فارقوها حفاة ثم أصبحوا تجارا كبارا ، بل أن أحدهم وهو ابراهيم بك يقوم ببناء العمارات الحكومية . يسكن بيتاً حوله حديقة في مثيل الروضة ، من الصعب مقابلته لانشغاله وسفره المستمر . على بابه خفيران يمنعان الداخل إليه . عنده طباخ وأخصائى في عمل نوع معين من الحلوى يحبه و يشتاق إليه كثيراً ، حول اصبعه خاتم بألف جنيه ، قال عويس إنه لازم المقهى طويلا والمعلم لا يأخذ ثمن المشاريب ، هكذا يعامل بلدياته ، ينتظر إلتحاقهم بعمل ، عندئذ يحصل ديونه ، يقولون إن ابراهيم بك مدين له حتى الآن بعشرة قروش ، يقول إنه لن يسدد « البريزة » ، ستبقى دينا عليه حتى يتعظ و يتقى ، ابراهيم بك يجىء إلى المقهى كلما زار الحسين . يجلس فوق الدكة المفروشة بالحصير و يدخن النرجيلة و يتحسر على أيام زمان البسيطة الخالية من الهموم الكبيرة . قال عويس إن المعلم يستوجب القادمين من البلدة ، يستطلع أخبارها . من مات ؟ من ولد من تزوج ؟ من قتل ؟ هل أقيمت بيوت جديدة ؟ والطرق . . ألا تزال كما هى ؟ عندما ذكر

عويس خبرا عن الدار الجديدة التى شيدها الحاج أبو الفضل سأل المعلم عن عدد أدوارها ، لون طلائها . شكل مدخلها ، سمك جدرانها ، دورة المياه ، هل أقيمت خارج الدار كبقية بيوت البلدة ، أو أن البيت له دورة خاصة به ؟ عويس لم يدخل الدار ، أمثاله يترجلون إذا تصادف مرورهم راكبين أمام الحاج . لكنه وصف الدار وصفا تفصيليا ، علل هذا برؤيته الدار قبل سكناها عندما دخلها حاملا صندوقا خشبيا كبيرا يحوى مالا يعلمه ، أبدى المعلم تأثرا ، هز رأسه حزنا ، قال أنه لن يعرف ملامح البلدة عندما يسافر إليها ، كل شىء يتغير ، كل شىء لا يبقى كما هو ، في الأيام التالية طلب المعلم من عويس أن يكرر وصفه للبيت الجديد ، استفسر عن كيفية إمداده بالمياه ، وشكل صوامع القمح داخله ، وكيف يبدو إذا نظر   ، من بيت عائلة عمران المجاورة ، استمر عويس يصف البيت يوميا حتى جاء المعلم صنبر صاحب الفرن القائم عند مدخل الزعفرانى ، طلب رجلا يعمل عنده لنقل الخبز ، حسن حظ عويس أن شخصاً آخر وصل منذ أيام إلى المقهى قادما من البلدة مما جعل المعلم يتخلى عنه بسهولة و يقدمه إلى الحاج صنبر ، هكذا تجاوز حدود المقهى الذى لم يعرف مكانا غيره ، لم يعد يتخذ رصيف الحسين مستقرا لجسده في الليل ، يأوى الآن إلى الفرن ، في الصباح يفتح الباب فيدخل الهواء البارد مبدداً من صدره رائحة الهباب والسقف المنخفض وبقايا العجين المتخمر والردة ونشارة الخشب . يجىء الأولاد يطلبون عددا من طاولات العجين ، في البداية يطلب من الأطفال الإنتظار ليصحبوه ، بعد أسبوعين عرف البيوت السكان بالاسم ، وعددا من سكان الحوارى المجاورة المتعاملين مع الفرن ، يكفى مجىء طفل ، يطلب عددا من طاولات العجين عند الست كوثر في درب الرصاص مثلا ليومىء عويس برأسه ، يقول له سألحق بك بعد تخمر العجين ، في منتصف النهار يمضى بالأرغفة الساخنة الشهية فوق قفص ، يمنحه الزبون تعريفة أو رغيفا طازجا على سبيل البقشيش ، يحدث أحياناً أن يقلق في رقاده ، يسمع دقات مكتومة صادرة من أحد بيوت

الزعفرانى ، يعرف فورا أن الست أم سهير أو أم يوسف ـ تبعا لقوة أو ضعف الدقات ـ ستخبز اليوم ، تعود النوم بالفرن ، لم يعد يزعجه اظلامها المعتم ، زحف الحشرات طرية الملمس ، جرى الفئران الضخمة ، ولا أقوال السكان عن العفاريت التى تسكن الفرن بالذات ، فى ليلة نام بجفن بطيخ ، فى الصباح أحس بشيء متكور فى سرواله ، مد يده ، وجد ثعباناً غليظاًآوى إلى الدفء بين ساقيه ، سألت أم يوسف أكثر من مرة عن حالته أثناء نومه بالفرن ، قالت إن عفريتاً سد طريق زوجها ، أما ابنها يوسف فقابله عسكرى سأله عن حارة الزعفرانى ، قال له أنت بها ، ضحك العسكرى وأدار ظهره موليا ، هلع يوسف إذ رأى ساقيه عاريتين لها حوافر كالمعيز ، لجأت إلى الشيخ عطية ليعد لها حجابا يزيل أثر الصدمة من ابنها ، ولولاه لجن يوسف ، قال عويس إن حديثه مع أم يوسف أثاره ، وقوفها فى قميص النوم وثدياها الصلبان خاصة عندما تميل لتساعده فى رفع الطاولات الخشبية ، عندما أرسلت له مع ابنها طبقا من البطيخ انتهب مرقده ، تذكر أحاديث بلدته عن نساء مصر ، ضعفهن أمام الصعايدة ، مرة التقى بالصبى يوسف يشترى أرغفة ، انزعج ، سأله ، هل كفوا عن الخبز؟ قال يوسف إن الأرغفة البيتية خلصت ، سيخبزون غدا ، أم يوسف تعجن مرتين فى الأسبوع . انقضت أيام ، يتوقع لحظة تستدعيه إلى داخل الشقة ، يطبق عليها ، يصغى إلى تأوهاتها ، تجول أصابعها فى شعر صدره ، لكنه لم يتجاوز عتبة الباب حتى أيقن أن طبق البطيخ لم يعن شيئاً ، عندما ذهب إلى كرعة فى حارة موسى داعبته ، دفعته فى صدره ، قرر ألا يدع الفرصة تفلت ، عندما دعته للدخول ليلتقط أنفاسه ارتجفت ساقاه ، رمى نفسه عليها،انخلع قلبه عندما صرخت ، استمر محاولا احتضانها ، استدعى مشهدا من فيلم رآه فى سينما الكواكب عندما احتضن البطل امرأة قاومته ، عند لحظة معينة ارتخت يداها فجأة وأغمضت عينيها بينما راح الجمهور يزعق معبراً عن إعجابه بألفاظ السباب ، عاد عويس إلى الفرن مضروبا ، متورم الرأس ، صفعه الحاج صنبر ، طرده ، أثناء خروجه سمع إحدى

النساء تتساءل .. من يتصور يوما أن عويس .. وقال البعض أنه كثيراً ما اصطحب الساقطات إلى الفرن ، جاءه الليل بلا مأوى ، فى ساعة متأخرة دخل الزعفرانى ، الفرن يقع عند مدخل الحارة ولا يحتل إلا جزءا ضيقا من الأرض بينما يمتد عمقه إلى حارة المسمط مما يجعله منفصلا عن الزعفرانى ، اعتلى الطاولات المرصوصة ، يبكى عندما تذكر أن يدا غيره رصت الطاولات ، نام فوقها حتى الصباح . أهالى بلدته أوصوه بادخار جزء مما سيكسبه للأيام السوداء . اقتطع مقدارا من دخله ، ثلاثة جنيهات وضعها فى منديل ، عقده ، ربطه أعلى ذراعه ، اضطر إلى سحب قروش من المبلغ الذى ود لو نماه بحيث يصل إلى عشرين جنيها ، عندئذ يحقق حلمه ، يشترى عربة يد مطلية بلونين . أحمر وأبيض . يرسم عليها شكوكو ونساء يرتدين ملاءات لف وعلى مقدمتها يكتب الله أكبر بخط كبير ويرسم علم البلاد . يبيع الآيس كريم صيفاً وحمص الشام شتاء ، يلتف الأولاد حوله . يطلب منهم الانتظام فى الدور ، يخصص ركنا لعرض البسكويت الأحمر المعلق على البخت ، عربة تمكنه من استئجار غرفة وسفره إلى البلدة شهرا واحدا يعود بعده مع إحدى بنات عمه . فى اليوم السابع لطرده اشترى بثلاثين قرشا كيزان ذرة شامية . شواها فى فرن بعيد بحارة الجوانية ، تذكر الرجل العربى الذى يجيء من نزلة السمان بالهرم راكبا جملا ، على جانبيه جوالان مليئان بالذرة النيئة . يشوى الكيزان فى فرن الحاج صنبر ، يلف الحوارى مبتدئا بالزعفرانى ، قبيل الغروب يعبر ميدان الحسين عائدا ، راقبه طويلا ، عرف أنه يبيع ما يشويه فى أقل من ساعة ، هذا ما أغراه بشراء الذرة . قال عيسى إنه راح ينادى « الكوز بقرش » ، باع حتى ترول الليل عشرين كوزاً ، مع مرور الوقت تبرد الذرة ، يمد يديه ، يتحسسها داخل الخيش ، بعد صلاة العشاء نادى « الكوز بتعريفة » ، فى هذه الليلة رأى رعبا ، فيما بعد عرف أن الرجل العربى يتردد على الحى منذ أربعين عاماً . المناداة على البضاعة تستلزم مراناً وقدرة . لا يكفى الزعيق ، عاد إلى قهوة المعلم أبى الغيط ، رآه فى نفس موضعه فوق الدكة الخشبية ، يدخن

النرجيلة ، يتابع الزبائن ، ينادى الجرسون ليلبى طلباً هنا أو ليرد على زبون هناك.حارس على متعة زبائنه ، قال عويس إن المرأة راودته عن نفسها ولما رفض صرخت « ولت » عليه الخلق . عانى مصاعب شديدة مما اضطره إلى السفر ، قال كاذباً إنه رجع منها لتوه ، أبدى المعلم سروراً ، وقال إن عوض جاء منذ يومين لكنه عبيط لا يعى ، وصف عويس البيوت والطرقات كما رآها منذ عام ، إذا تذكر قولا ببناء بيت بعد ستة شهور يقول أنه شيد فعلا ، عندما بدأ وصف الطريق المؤدى من الجسر إلى البلدة وقال إن القناة الموصلة إلى حوض الماكينة باقية ، أبدى المعلم تعجباً ، أخبره البعض منذ شهرين أن القناة ردمت وشق بدلا منها ترعة أعرض يعوم فيها الأطفال ، أكد عويس بقاء القناة على وضعها ، هذا ما رآه قبل سفره صباح اليوم ، غبار السفر مازال عالقاً بجلبابه ، طلب من المعلم التطلع ليتأكد بنفسه ، سرح المعلم قليلا ، سأل باهتمام عن رائحة التين عند المنحنى القريب من الجسر ، وسرعة تدفق المياه فى حوض الماكينة ، قال عويس إن رائحة التين عفية خاصة فى الليل وتشم من بعيد ، المياه تجرى كعادتها ، هز المعلم رأسه ، لكن الزمن يمضى والأحوال فى تغير مستمر ، لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، راح يرددها عندما أخبره عويس عن قدوم بائع غريب يبيع السكر الأحمر عند الجسر ، أبدى المعلم جزعاً ، من أين جاء الغريب ؟ ما هى بلدته ؟ ما اسمه ، قال عويس إنه مجهول للجميع ، أبدى المعلم تأثراً ، هل استباح البلدة الأغراب ، لكنه الزمان الذى لا يرحم ! بعد يومين أرسل عويس إلى وكالة بازرعة القريبة ، عمل حمالا ينقل صناديق الصابون ، يدحرج براميل الزيت عبر الشارع من المخزن حتى المعمل القريب من باب النصر ، فى الطريق يناديه أطفال من الزعفرانى « عم عويس » ، يقول لنفسه ، هؤلاء زبائنى عندما أبيع الذرة وحمص الشام ، يدركه حنين إلى جسد أم يوسف عندما يدخل الجلباب بين مفرق ردفيها ، طردوه من الوكالة بعد فترة بدون سبب . عمل بأحد دكاكين الورق يحزم الصحف القديمة و ينتزع أغلفة الكتب ، ثم خادما بمطعم ، عمل

مساعدا لنجار بمصنع البراميل فى شارع أمير الجيوش ، ثم فى محل لتبييض النحاس ومصغياً إلى شكاوى صاحبه من قلة العمل بعد انتشار الألومنيوم ومتجاوبا مع سخطه على الزمن ، ثم غاسلا للصحون بمطعم جلال فى شارع بيت المال ، وعاملا فى مصبغة الخرنفش القديمة يقلب النيلة فى الأحواض ، يحمل الخيوط إلى السطح ينشرها فوق الأعمدة ، تسول أحيانا فى مولد سيدى البيومى ، ومولد سيدى مرزوق تزاحم حول الرجال الذين يجيئون إلى أبوب الحسين حاملين أرغفة الفول النابت ، جرى خلف السيارات التى تحمل عرسانا عقدوا زواجهم فى مسجد الحسين (لم يزد ما يدخره عن ستة جنيهات) ، بدا المبلغ ضئيلا عندما سأل نجار العربات الخشبية فوجد أن السعر تجاوز الخمسين جنيها ، لم يفقد أمله فى امتلاك عربة ذات يوم ، قال عويس إن الله شاء له الراحة بعد أربع سنوات داخ فيها ، حدث أثناء جلوسه بالمقهى أن اقتراب منه رجل نظيف الثياب ، قال إنه المعلم ضانى صاحب حمام الأحرار الشهير ، توسم خيرا فى عويس وعرض عليه عملا يتمناه الكثيرون ، سيصبح نظيفاً ، سيأكل لحما يوميا ، وسيقيم مجانا بشرط تواجده طوال الليل فى الحمام . سيأخذ مرتباً كالموظفين ، ما سيؤديه سهل ولذيذ سيلتقى كل ليلة بعدد من الأفندية المحترمين ، بعضهم يحتل مراكز مرموقة فى المجتمع ويمتلك مصائر العديد من الناس . و بعضهم مشاهير يظهرون فى التليفزيون و يسألهم المذيعون فى الراديو وهذا يجعل مجيئهم سرياً لغاية ، إذا أمتع الواحد منهم جيداً ربما منحة بقشيشاً كبيراً ، جنيها مثلا ، أبدى عويس موافقته الفورية.أكل زوجاً من الحمام ، فرك جلده فى الماء الساخن ، فى المساء خلا إلى أفندى أبيض املس الجسد ، لم يلفظ كلمة واحدة عدا تأوهات منغمة ، بعد أسبوع عرف أن حجرة خلت فى بيت الأسطى رمانة السياسى وإيجارها ثلاثون قرشاً ، ذهب فورا واستأجرها من صاحب البيت الصول سلام ، لم يبد عليه أنه تذكر عويس أو فضيحته مع كريمة ، دفع ستين قرشاً ، إيجار شهر وشهر تأمينا . امتلك مفتاحا لسكن يخصه ، أول الشهر فوجىء بضآلة راتبه ، أعطاه المعلم ضانى

جنيهاً واحداً ، عرف أن الزبائن المحترمين يقدمون مبالغ طائلة لهذا يندر دفع بقشيش إليه ، اضطر إلى إبداء الرضى ، كثيرون على استعداد للمجيء مكانه ، الجنيه مبلغ ضئيل فعلا لكنه يضمن تسديد الإيجار ، والذهاب إلى السينما مرتين شهرياً وأكل قطعة بسبوسة أسبوعياً وطبق كشرى ، حرص على هذين الصنفين لاستمتاعه الخالص بهما مع أن المعلم ضانى لم يبخل عليه ، فى البداية استجوبه بدقة ، أى أنواع الطعام يشعر بعده بالرغبة العنيفة ، قال إنها الكوارع ، أما السمك الذى أصر المعلم على تقديمه إليه فيدفع بالنوم الى جفنيه ، سمع المعلم ضانى يقول لأحد زبائنه أن عويس يكلفه كثيراً لارتفاع أسعار اللحم ، خاصة كوارع الضأن التى يفضلها ، لكن لابد من الإغداق عليه حتى يرضى زبائنه الكرام ، قال عويس إنه أثناء دخوله الزعفرانى قابلته أم يوسف ، سألته عن أحواله ، هل تزوج ؟ قالت إنها سمعت بما جرى مع البنت كريمة « الملسوعة » ، دفعته فى صدره ، أدركه العمى ، الثمار أمامه لكنه لم يقطف ، ضحك ، تبدد من جفنيه ظمأه الكاوى إلى النوم والراحة ، قال إن عينيه لم تغمضا أبداً عن رؤية التفاح ، ضحكت « والله وعرفت تتكلم ياصعيدى » ، همست « أنتظرك فى الساعة الحادية عشرة ليلاً » . تذكر انحناءها والبروز المحدد الذى يحدثه حواف سروالها تحت ثوبها الرهيف ، تمنى طويلا احتواء جسدها ، هى بالذات ، لم يذهب ، باستطاعته التغيب عن الحمام ساعة أو ساعتين لكنه لم يمض إليها ، عندما تمدد فى حجرته ثنى ثوبه عدة مرات تحت رأسه ليستخدمه كوسادة ، شيء ما قبض صدره ، منعه عن التفكير فى أم يوسف ، لم تأخذه النشوة ، هل يعجزه عمله عن معاشرة النساء ؟ خاف ، هل ينقلب حاله بعد حين فيصبح كأحد زبائنه ، فى اليوم التالى صحب زبوناً يقال إنه صاحب منصب كبير فى أحد الجرائد ، بعد أول مرة قال للمعلم ضانى ، هذا من بحثت عنه طويلا ، لم يتمه شخص كعويس . قال المعلم إنه تعب كثيراً حتى انتقى عويس من بين العديدين ليخلو بسعادته . سيحرص عليه حتى لا يستهلك نفسه مع الآخرين ، سيمنعه من

مضاجعه أى زبون ، قال الزبون ، إذن هو رجلى منذ الآن ، قال المعلم ، وجب ياسعادة البك ، عويس يعرف أن المعلم يقول نفس الكلام لجميع الزبائن مستغلا قدرة عويس على المضاجعة الجيدة سبع مرات يومياً ، فى ليلة العجز الأولى أبدى البك الصحفى ضيقاً . سأل عويس ، أما من أمل ؟ أجهد عويس نفسه بدون جدوى . استدعى البك الصحفى المعلم ضانى غاضباً ، أقسم المعلم أيماناً عديدة أنه لم يقدم عويس إلى أى زبون برغم ما عرضه الآخرون من مغريات ، خاصة فى هذه الليلة . تكرر الأمر فى يومين متعاقبين ، مما دفع المعلم إلى الزعيق وصفع عويس صارخاً . « أنت أكلت كارع كامل وكيلولحمة اليوم .. كيلولحمة أنا لم آكل مثله » فى اليوم الثالث طرده ، ذهب عويس إلى مستشفى الحسين الجامعى ، كشف بثلاثة قروش ، قرر الطبيب سلامة أعضائه ، ربما عملت له أم يوسف عملاً بسبب عدم استجابته لها ، نسى مرة قطعة قماش عندها اعتاد وضعها فوق رأسه أثناء حمله الطاولات الخشبية ، لديها أثر منه . لهذا جاء إلى الشيخ عطيه ليأتى له بالفرج ، قال إنه تعب من الجرى وراء رزقه ، مصر هرسته منذ مجيئه إليها ، لم يبق إلا القليل و يكتمل ثمن العربة ، عندئذ يترك الحمام إلى الأبد ، يسرح وراء رزقه .

سكت ، عينا الشيخ تبرقان ، أصوات الزعفرانى لاتصل إلى داخل الحجرة .

قال الشيخ ، استمر ..

قال عويس إنه يطلب الستر . شخص واحد من الزعفرانى تردد على الحمام وهو شاب صغير اسمه سمير ، أكثر من ضاجعهم خلاعة وإتياناً للحركات والأصوات ، قال عويس إنه اشتاق إلى البلدة، يود ركوب قطار الثامنة صباحاً ، أيام سوداء مرت عليه فى القرية أحياناً يصحب بعض الرجال ، لا يقوم ، ينتظر

تناولهم الشاى ليشرب كوبا ، أيام البلدة الصعبة لا تعادل يوماً واحداً من الأسبوع الأخير ، إنه يريد العيش فى هدوء والغربة ستحقق له هذا ، قال إن امرأة أخرى بادلته صباح اليوم نظرة ذات معنى فى الحارة .

توقف عويس لحظة ، تساءل .. هل يذكر اسم أمه ؟ قال الشيخ .. استمر ..

قال إنه لكثرة ما رأى فى الحمام يظن كل من يراهم فى الطريق إما قادمين إلى حمام أو خارجين من حمام ، قال إنه يخجل الآن من التردد على مقهى أبى الغيط ، سكت عويس ، كأن أمراً خفياً صدر أسكته ، لم يستطع التطلع ورؤية الملامح الغريبة ، صوت الطفل المنبعث من جسد شيخ ، هل يتحدث أحد الجان من خلاله ؟ قال الشيخ عطية .. أجب عن سؤالى الثانى .. ، قال بسرعة إنه مستعد لخدمة الشيخ ، شراء حاجاته ، حمله فوق ظهره إذا أراد الانتقال من مكان إلى مكان ..

« أجب عن سؤالى »

قال عويس بصوت عال كأنه بوغت فجأة ، « اسم أمى تحية .. »

طلب منه الشيخ الانصراف والمجىء لحظة طلوع الشمس يوم الجمعة ..

« تقرير مبدئى عن أحوال حسن أفندى أنور » :

يفخر حسن أفندى أنور بأمرين يرددهما دائماً ، أنه لم يدخل قسم بوليس طول حياته كشاك أو مشتك منه ، وأنه لم يقترض ، ولم يقرض ، وعندما يتوجه إلى سيدنا الحسين لصلاة الفجر فى رمضان أو يوم الجمعة يدعو بالنجاح لولديه وهما حصاد عمره ، سمير وحسان ، و يستنزل اللعنات على بعض من كادوا له فى

المصلحة ، أو ضايقوه فى الطريق العام ، أو أقلقوا راحته أثناء نومه ، أحياناً يذكر اسم شخص معين فى يوم واحد مرتين ، يغضب عليه فى الدعاء الأول ثم يحدث أن يلتقى به ، تزول العكارة من نفسه إزاء هذا الشخص فيدعو الله ألا يقبل دعاءه الأول ، حدث أن التقى بسيد أبو المعاطى مدير الإدارة التى يعمل بها ، نطق بصوت مسموع ، « صباح الخير يا أفندم » ، لم يتوقف سيد بك ، لم يرد التحية ، غمره حزن قاتم لم يبدده أربعة فناجين قهوة سادة مع أن هذا أمر نادر إذ اعتاد شرب فنجان واحد بعد وصوله ، وآخر قبل انصرافه ، لماذا لم يرد سيد بك تحيته ؟ هو الموظف المنتظم الذى لم يأخذ أجازة عارضة إطلاقاً طوال خدمته ، لم يتأخر دقيقة واحدة يوماً عن التوقيع فى دفتر الحضور ، لم يتحايل للاستئذان قبل ميعاد الانصراف الرسمى ، ملفه يضرب به المثل فى نظافته ، هل نم عليه أحد ؟ هل وصلته فرية ؟ أم لأنه مؤهل متوسط ؟؟ بالضبط .. سيد بك خريج كلية التجارة وهو خريج المدارس الثانوية التجارية ، عند هذا الحد يوشك على الاختناق ، يقرر الذهاب إلى عبد العظيم أفندى زميله فى الدراسة ، ثم الوظيفة ، يمسك ملفاً به بعض الأوراق الرسمية حتى يوحى لمن يراه فى الطرقة أو فوق السلم أنه ينتقل من مكتب إلى مكتب لينهى أموراً معلقة ، يقف بباب المكتب فبعد كفاح طويل ومكائد متقنة تمكن عبد العظيم أفندى من الاستقلال بمكتبه فى حجرة خصصت كمطبخ قبل استيلاء الحكومة على المبنى ، ثم حقق انتصاراً ساحقاً عندما تمكن من إدخال تليفون يضعه فوق نسختين ضخمتين من القاموس التجارى الموحد ، يومها لم يشعر حسن أفندى بالغيرة إنما صرح أمام عاشور وجابر حفظى وحسنى دسوقى أن ما أحرزه عبد العظيم أفندى يعتبر مكسباً لحملة الشهادات المتوسطة القدامى الذين خدموا الحكومة سنيناً طويلة ، قال إن خريج الجامعة بمجرد استلامه العمل يمنحونه مكتباً فوقه بنورة وأحياناً تليفوناً خاصاً ، عندما تلقى عبد العظيم أفندى التهانى صرح أن باله لن يهدأ وأن عينيه لن تقرا إلا إذا حصل على تليفون بقرص يمكنه به طلب أى رقم مباشرة و بدون الحاجة إلى السويتش ، فى

نفس اليوم كتب حسن أفندى عدة مذكرات يرجو فيها الموافقة على تركيب تليفون بقرص نظراً لحاجة العمل الملحة إليه ، فكر وقتئذ أن الحظ ربما أتاه فيجيئه تليفون بقرص . هنا يحقق خطوة متقدمة على عبد العظيم أفندى ، وإن لم يتحقق هذا فأقل ما سيحدث أن يأتى تليفون عادى ، عندئذ يقف مع عبد العظيم على أرضية واحدة ، مضت فترات متعاقبة وحتى الآن لم يصل التليفون برغم تكراره الطلب مرات وحرصه كل مرة على ذكر رقم المكاتبة السابقة بخط بارز أعلى الخطاب ، في نفس الوقت تقدم بطلب إلى مصلحة التليفونات لتركيب جهاز بمنزله ، قيل له إن الزحام شديد ولابد وساطة ، ذهب إلى مدير أمن سابق من بلدته ؟ أخذ منه بطاقة إلى أحد أقاربه الذى أرسله بدوره إلى صديق له يعرف موظفاً كبيراً بوزارة المواصلات ، بعد سنة من تقديم الطلب تم تركيب التليفون ، وعد هذا انتصاراً له ، فمن ناحية هو صاحب التليفون الوحيد بالزعفرانى أما المصلحة فينفرد بامتلاكه تليفوناً فى المنزل بين حملة المؤهلات المتوسطة . طبع بطاقات جديدة تحمل اسمه وفى الركن رقم تليفونه باللغتين العربية والإنجليزية ، وزع البطاقات على أصحابه وزملائه ، طلب منهم أن يتحدثوا إليه فى أى وقت ، بمجرد وصوله إلى المصلحة يتصل بالبيت ، أثناء جلوسه مع زملائه يرفع السماعه ، يتحدث إلى البيت ليعرف أى طعام طبخوا ؟ مع إنه هو الذى يشترى الخضار واللحمة والسمن والزيت وسائر مستلزمات الأسرة ، وفى صباح عيد الفطر اتصل بسيد بك فى بيته ، قال إنه يهنىء سعادته بقدوم العيد ، وإنه يتحدث من البيت ، جاء صوت سيد بك بارداً خالياً من الحرارة ، لم تستغرق المكالمة دقائق ، لكنه ظل منفعلاً طوال اليوم ، ولاحظت امرأته ارتعاش يديه إذا يتناول كوباً أو ملعقة ، خطوة خطيرة أن يتحدث إلى سيد بك فى بيته ، هل يسبب له حرجاً ، هل يلفت نظره ؟ لكن ما يشفع له أن اليوم عيد ، الآن يجلس أمام عبد العظيم أفندى ، يسأل عن أحوال زميله ثم يقول إن الإنسان يحار فى فهم أحوال بعض المديرين ، يرفع عبد العظيم أفندى عينيه ، ماذا جرى ؟ يقول حسن

أفندى إن عدداً منهم لا يكن احتراماً للخبرة الطويلة التى اكتسبها بعمله فى الحكومة ، يهز عبد العظيم أفندى رأسه ، يقول إنه يرى العجب العجاب من بعضهم ، فوجىء الأسبوع الماضى بجرس التليفون يدق ، قال آلو ، فوجىء بصوت من الطرف الآخر « يا عبد العظيم » ، عرف على الفور صوت أحد المديرين الشبان فجهاز التليفون المخصص له من نوع جيد يوضح الأصوات تماماً ، رد عليه ، « عبد العظيم افندى من فضلك » تساءل الشاب « ما الفرق » ؟ قال إن الفرق كبير ، عليه تعلم مخاطبة من هم فى مثل سنه ومركزه قبل رفع السماعة ، أغلق التليفون في وجهه ، قال حسن أفندى وهو واثق تماماً من كذب زميله « أحسنت » ، تنهد راجياً إصلاح الأحوال ، قال حسن أفندى « يا عبد العظيم بك ، أربعة لا تأمن لهم ، المال لو كثر ، والحاكم ولو قرب منك ، والمرأة وإن طالت عشرتها ، والدهر ولو صفا » ، انصرف مقتنعاً بمشاركة زميل له ضد سيد بك مع إنهما لم يذكرا اسمه ، يعرف حذر عبد العظيم أفندى تعرف المصلحة إنه يمسك عدداً من الورق الأبيض بمجرد وصوله المكتب ، وقلم رصاص ، واستيكة ، يكتب فى الركن الأيمن من كل ورقة أربعة سطور متعاقبة ، (وزارة الإنتاج مصلحة الكفاية والعناية بالمنتجات ، إدارة التكاليف — قسم الوارد) ثم يصيغ بعض الردود بعناية فائقة ، عرف عنه اتقانه لصياغة المكاتبات الرسمية ، حتى استدعاه مدير عام المصلحة يوماً وكلفه بكتابة مذكرة على ورق أزرق لرفعها إلى سيادة الوزير ، قضى فى إعدادها ثمانى ساعات كاملة مما يحق له الحصول على أجر إضافى — لم يطالب به — حتى الآن لم يبح لأى مخلوق بمضمون هذه المذكرة الهامة برغم محاولات العديد من زملائه ، عاد حسن أفندى إلى مكتبه وغصة حلقه أقل تحجراً ، فى العصر دخل الى مأوى الحسين ، دعا كثيراً على سيد بك ، رجا من حبيبه وشفيعه سيد شباب أهل الجنة أن يحقق رغبته ولو مرة ، أن يرسل وكيل الوزارة فى طلبه ، أن يستدعيه مدير عموم المصلحة ، يكلفه أحدهما بكتابة مذكرة كما حدث مع عبد العظيم افندى ، أو يوجها إليه شكراً ، حكى ما جرى

لامرأته مع بعض الاضافات ، كزعيقه فى وجه المديرين ، صياحه إنه أحسن منهم ، أمره العيال الجدد خريجو الجامعة بالخروج من مكتبه ، رفعت الست سنية يديها ، استنزلت اللعنات على سيد بك برغم حديث زوجها عن وقفته الصلبة واحتقاره له . حتى اضطر سيد بك إلى الميل على عبد العظيم افندى طالبا منه رجاء زميله بضرورة احترامه أمام الموظفين ، أثناء الطعام يسألها عن سمير وحسان ، تلاحظ فخره الدائم بهما ، لا يخرجان إلا بإذنه ، يقبلان يده فى الطريق إذ يلمحانه ، لم يلعبا فى الحارة أبدا ، لم يذهبا لتسلق جبل الدراسة ، كما علق اسم سمير على لوحة الشرف فى مدرسته الاعدادية ، فى حفل مجلس الآباء سلمه الناظر ميدالية تذكارية ، كثيراً ما ينتبه أثناء حديثه عنهما فيخشى العين خاصة عند جلوسه إلى عبده البرتقانى وعوض الرماح بمقهى الكلوب المصرى ، لكل منهما ابن لم يفلح فى التعليم ، الأول هرب ابنه من البيت وعمل ممثلا فى جوقه تطوف بالموالد ، أما الثانى فغوى ركوب العجل حتى استدرجه عجلاتى للعمل عنده ، يستدرك حسن أفندى فيحكى حادثة عن عصيان سمير أو حسان ، وعدم انتظام سمير فى الصلاة مما اضطره إلى ضربه أكثر من مرة ، والحقيقة أن هذه الواقعة صحيحة ، سمير لا يصلى بانتظام ، استدعاه والده ، أغلق باب الحجرة ، قال إنه لا يتصور سمير الهادىء الذى يحمر خجلا إذا تكلم بصوت عال ، يخالف أوامر ربه ، هنا اعترف سمير بأن ثيابه أحياناً . . . ، أطرق ، فهم الأب ، لم يقبل العذر ، طلب منه الاستحمام المستمر ، فى اليوم التالى ذهب إلى الشيخ عطية ، رجاه إعداد حجاب لسمير ولده لظنه بتمكن عين منه ، إنه يسأل بدقة عن أحوال سمير وحسان ، هل أخذ كل منهما حقيبة كتبه كاملة ؟ هل وصلتها خطابات ؟ منذ عامين لمح فوق الراديو مظروفا كتب فوقه (السيد المحترم الأخ سمير حسن) ، ذعر لمجىء خطاب خاص إلى ابنه ، قرأ مضمونه ، ارتعشت أطرافه ، يطلب كاتبه نسخ البسملة ألف مرة ، أوشك لحظتها على الاختناق ، استفسر من امرأته عن تاريخ وصول الخطاب ، هل قرأه سمير ؟ قالت إن الخطاب لم يفتح فكيف

يقرأه ؟ بحذر أغلق النوافذ ، أحضر موقد السبرتو الصغير ، أشعله ، جمع الرماد ، ألقاه فى دورة المياه ، شد السيفون عدة مرات ، من يدرى ، ربما تسعى إحدى الجمعيات السرية لتجنيد ابنه ، فكر فى حبس ولده شهراً فى البيت ، تصرف كهذا سيلفت النظر ، تحدث إلى عبده البرتقانى عن خطاب وصل إلى نجل أحد زملائه بالمصلحة ، لجأ إليه حائراً ، أبدى البرتقانى مخاوف ، تلك طريقة معروفة ، تتوالى الخطابات ، يرتفع حجم التكليفات حتى يجد الابن نفسه عضوا فى جمعية أو تنظيم يحارب الدولة والمجتمع ، ارتعش قلب حسن افندى كفرخ الحمام المبلول ، مرت عليه ليالى سوداء ، كل خطوة فى الحارة بعد الواحدة صباحاً يظنها لبعض الذين يقصدون اعتقال سمير ، يحمل مصباحاً ، يدخل به إلى سرير ابنه ليتأكد من تمدده فى السرير ، ربما وضعوا شخصاً آخر ، سارع الى كتبه ونقلها إلى حجرة نومه . خط فوق كل منها بوضوح « هذا الكتاب يخص حسن أفندى أنور الموظف الحكومى الرسمى » ، هذه الكتب موزعه بين التصوف وعلم الحرب ، لكن وجود كتب عن الحرب قد يثير التساؤلات ، ينتمى الأمر من بعيد إلى الانقلابات العسكرية ، أضاف سطراً إلى ما كتب فوق الكتب العسكرية ، « اشتريت هذا الكتاب لهوايتى الخاصة بمعرفة تاريخ الحروب ـ نمت لدى هذه الهواية مع الحرب العالمية الثانيه» ، يوميا يسأل امرأته ، ألم تصل خطابات ؟ تنفى ، يطلب منها أن تقسم ، تقسم ، يصمت ، تبدأ امرأته فى قص أخبار الحارة ، ما شاهدته عند دخول عربة الخضار ، تذكر أسعار الكوسة ، البصل ، الغلاء المستفحل ، تقص حديثاً أجرته مع إحدى النساء ، هنا يقول إنه يفضل الابتعاد عن نساء الزعفرانى فالاختصار عبادة ، ثم أن الحارة لمت من جميع الأصناف ، ولأول مرة يسكنها أعزب يمكنه استضافة امرأة فى أى وقت لولا يقظة الأصلاء من أبناء الزعفرانى ، قالت امرأته إن عاطف مهذب وخريج الجامعة ، انتفض حسن افندى كأن ماء مغليا صب فوقه ، زعق قائلا إن أفسد خلق الله هم خريجو الجامعات ، لا يفقهون شيئاً ، حامل الابتدائية القديمة متبحر فى العلوم أكثر

من دكتور هذه الأيام ، قامت امرأته تهدئه ، بعد لحظات خفض صوته ، لم يعتد الأهالي طلوع الحس من بيته . هنا يجب الاشارة إلى أن حسن أفندي يسكن بيتاً من طابقين . إنه الثالث إلى يمين الداخل إذا لم تحسب فرن الحاج صنبر ، ولد حسن أفندي بالحارة ، في البيت المجاور المغلق منذ شهر بعد اخلائه تمهيدا لهدمه وترحيل سكانه إلى مدينة نصر ، فيه استقرت عائلة حسن أفندي زمنا ، ترك له والده نصف فدان في البلدة ، وقطعة أرض مجاورة للبيت يقال إن والده اشتراها بجنيه واحد منذ عشرات السنين ، اقترح عليه أصحابه بيع نصف الفدان واستثمار ثمنه في بناء بيت من طابقين فوق قطعة الأرض الخربة ، أبدى امتعاضا ، نصف الفدان لا قيمة له لكنه يذكر الناس به في البلدة ، به يعتبر نفسه من أصحاب الأطيان بين الموظفين الذين لا يمتلكون إلا رواتبهم ، بعد فترة سمع الأطفال يصيحون ، « هيا نلعب في خرابة حسن افندي » ، تشاءم وقرر بناء الأرض ، لكن كيف وقلبه لا يطاوعه على بيع نصف الفدان ، يبدوا ان الحسين استجاب لدعائه ، بعد أيام التقى بعبده المقاول بنذياته ، قال إن كل ما يملكه مائة جنيه في البوستة ، أبدى المقاول ترحيباً ، قال إنه سيقسط الباقي على عشرين سنة بفوائد بسيطة ، لم يحسم الأمر فوراً ، حكى ما جرى لامرأته ، لأصحابه ، لعبد العظيم أفندي ، لبعض المصلين الذين يجاورونه في الحسين ، بعد شهور أربعة عزم أمره ، بعد سنة انتقل إلى البيت الجديد الذي يقيم به الآن و يؤجر الطابق العلوي للداطوري ، تفاءل به إذ أنه أنجب حسان بعد تسعة شهور من الاقامة فيه ، بعد زواجه تردد طويلا على الأطباء المختصين أكدوا إن العيب به هو ، يبدو أن العلاج أثمر ، بعد مجيء سمير كفت الست سنية عن الانجاب ، حمد الله ، تعهدهما بعنايته ، كثيراً ما غادر عمله إلى بيته خفية ليطمئن عليها في صغرهما ثم يعود ليوقع في دفتر الانصراف ، وضع خطة دقيقة لتربيتهما والبعد بهما عن أولاد الحرام ، يلاحظ برضا عدم خروجهما من البيت كثيراً ، لم يزرهما أحد من زملائهما ، لم يصفر لهما أحد من تحت الشرفة ، لم يقفا عند الناصية ، الآن وصل

سمير إلى المرحلة الثانوية أما حسان فبعد شهور يحصل على الثانوية العامة ، وصولهما إلى الجامعة هدف أساسي ، عرف بنفسه أوضاع حملة الشهادات المتوسطة ، كثيراً ما يغمض عينيه على لافتة كبيرة تحمل بخط بارز اسم الدكتور حسان حسن أنور — دكتوراه في الطب — زميل بكلية الدراسات الطبية بلندن ، عندما يرى اسم ابنه معلقاً هنا . . هنا في ميدان الأزهار ، سيعرف الراحة الحقيقية ، لوتألم أحد معارفه يذكر له عنوان الدكتور حسان حسن أنور ، يجيب على تساؤل محدثه « نعم . . ابني » ، بتأن يخرج بطاقته يقول ، « عندما يرى حسان الكارت سيبذل عناية خاصة و يقدم ميعاد الحجز » ، يطلب منه سيد بك توصية ، سينسى كل شيء بينهما فلا شماتة في المرض ، يدير رقم التليفون ، يتحدث إلى ، يوصي خيرا بسيد بك وحرمه وأولاده ، إنه يرى نفسه متجهاً إلى مكتب مدير عموم المصلحة ، يطلب التغيب لمدة يوم واحد ، سيوافق المدير لكنه سيبدى دهشة ، سيقول إن طلبه أجازة خبر يستحق النشر ، عندئذ يطرق خجلا ، يقول بصوت متواضع ، « ابني الدكتور حسان سيسافر إلى انجلترا لمدة عامين » ، يهنئه المدير ، يمضي مع امرأته وسمير الى المطار ، يلوح لهم حسان ، تعلو به الطائرة ، لن يحتمل لحظة الفراق ، يعول همها منذ الآن ، لا يدري لماذا يتخيل ضرورة اتصاله جنسياً بامرأته يوم سفر حسان ، إنه يقرأ أخبار المجتمع في الصحف ، « سيد بك يشكر الطبيب الانسان الدكتور حسان حسن أنور » ، « عبد العظيم افندي يشيد بفضل الدكتور حسان حسن أنور صاحب الفضل بعد الله في شفائه » ، أما سمير فلم يستقر حتى الآن على اختيار مهنة محددة له ، سأله عما يود دراسته ، أحمر وجه الفتى كبنت ، أجاب بليونة « أي حاجة يا بابا » ، سمير يقلقه ، منذ شهور دال عليه المعلم الداطوري ، قال بلهجته الناعسة إن سمير شوهد في حارة أم الغلام بصحبة شخص سيء السمعة اسمه مهدي ، بكى سمير طويلا ، اقسم انه لا يعرف شخصاً بهذا الاسم ، في اليوم التالي اشترى أبوه ملابس داخلية من مقاسين مختلفين ، أبدت امرأته دهشة ، ما الحاجة إلى هذه

الشباب والأولاد عندهم ما يكفيهم ، قال إن أحد الموظفين وزعها عليهم ، يساعد نفسه ببيع البضاعة ، اشترى منه السراويل القصيرة لسمير والطويلة لحسان ، بعد أسبوع قام إلى المطبخ ، أضاء النور ، بدأ يقلب سبت الغسيل القذر ، قلب سروال سمير ، عرضه للنور ، رأى البقع الصفراء المتجمدة ، عاد إلى نومه هادئاً ، مطمئنا إلى رجولة ابنه ، الآن ، يأوى إلى فراشه والليل ينتصف ، ينظر مفتوح العينين إلى السقف المعتم ، يستعيد أحداث يومه من خلال صياغة صحفية ، جديدة تخصة ، يرى المانشيت أحمر اللون .. « اعتداء صارخ على حسن أفندى انور» .

« أحداث خطيرة فى مصلحة الكفاية » .

« حسن أفندى يتحرك بسرعة فى مواجهة سيد بك ، عبد العظيم أفندى يبدى تعاطفاً تاماً ، و يعلن تأييده لموقف حسن أفندى » .

« مقابلات هامة » .

استقبل حسن أفندى مساء اليوم بمقر منزله الدائم المعلم الداطورى ، صرح المعلم عقب الاجتماع إن المقابلة تمت بناء على طلبه وذلك لبحث الاضطربات التى تجرى فى الزعفرانى ، وظاهرة تشاجر الأزواج خلال الأيام الأخيرة ، ثم تبادل وجهات النظر مع حسن افندى واتفقا على ان زمان الهدوء ولى وفات ، وانتهاء زمن أهل الخير والمودة .. » .

ثم يذكر حالة الطقس ، يؤلف المقالات ، حتى يتسرب النعاس إلى مواد صحيفته ، من الثابت إنه وجه جهده منذ سنوات لتربية الأولاد ، أما امرأته فمهتمة بولديها ، زهدت فى واجباتها الزوجية ، ناسب هذا أحواله تماماً ، صحته لم تعد كأيام زمان ، الأمر يكلف الآن جهداً ، مستحضرات من الحمزاوى ، وصفات بلدية ، إنها تبدى اهتماماً به ، تحنو عليه ، تحرص على نظافته ، تغضب

كطفلة إذا شمت رائحة دخان من فمه ، لم ينم حسن أفندى الليلة مباشرة ، يسمع زعيقاً ، بكاء متصلا ، يضع عنواناً كبيراً ..

« قلاقل واضطرابات فى الزعفرانى » ..

— ٧ —

كل المعلومات المعروفة عن الشيخ عطية غير مؤكدة ، ثمة حوادث تروى عنه لكنها منقولة عن أشخاص آخرين ، لا يستطيع أحد أن يحدد عدة أمور تدور حول تاريخ مولد الشيخ . يذكره المسنون أمثال الشاويش سلام ، وأبو حافظ المحال إلى المعاش منذ عشرين سنة وعم عبده بائع غزل البنات ، باعتباره أحد صور طفولتهم البعيدة ، يذكر الصول سلام إن أخته لم تنجب بعد زواجها ، انقضى عامان ، أظهر زوجها قلقه خاصة انه تعرض لمتاعب جسام مع أسرته ، راح والده يسأله بعد شهرين من زواجه « ها .. ما الحالة » وهذا من عادات الأسر حتى إذا ثبت عقم الزوجة طلقت بغير نقاش . لكن الزوج تمسك بها ، بذل جهداً كبيراً عند الأطباء ولم يفلح ، حتى قالت أم سلام إنها ستلجأ إلى شيخ مبروك يقيم فى الزعفرانى — وقتها أقامت الأسرة بحارة الدرب الأصفر — اصطحبت الأم ابنتها ومنديلا للزوج ، جاء معهما وعمره وقتئذ ثمانى سنوات ، يذكر الآن دخول أمه وشقيقته على الشيخ عطية فى حجرته المعتمة ، بريق عينيه المستديرتين ، لا يستطيع استدعاء أى حادث سابق لهذا الموقف إلى ذاكرته ، إنها أقدم صور عمره ، يبدو له الأمر بعيداً منتمياً إلى زمن ناء ، ما يثق منه انه رأى الشيخ عطية رجلا مسناً وقتئذ . هذا يؤكد إنه تجاوز المائة وخمسين عاماً ، يذكره برهبة ، بفضله أنجبت المرحومة أخته أربعة كلهم ذكور ، مات منهم ثلاثة والوحيد المتبقى أنجب ذرية وفيرة العدد ، يقول البناء إنه لم ير الشيخ عطية يخرج من بيته ، لكنه عندما لجأ إليه منذ سبعة أعوام ليعد له عملا يلين به قلب ابنه الوحيد

الذى رحل إلى أوربا ونسى والديه تماماً رآه عجوزاً مسناً له لحية يتخللها بياض ، أرسل ابنه خطاباً بعد سبعة شهور ، وعلل البعض طول المدة المنقضية بين كتابة الخطاب ووصول الخطاب إلى بعد المسافة بين الأب وابنه ، مما يؤثر على قوة الحجاب ، استمر الابن يرسل خطاباً كل سنة أو سنتين يرفق به حوالة على أحد البنوك بمبلغ بسيط ، لكنه لم يكتب عنواناً أو رداً ، علل البعض هذا إنه يعيش متنقلا ، أكد هذا اختلاف طوابع البريد الملصقة على كل مظروف ، تؤمن أمه إن بركة الشيخ ستعيده يوماً ، سيطرق الباب وعندما تفتحه ستجد ابنها بلحمه ودمه ، سيرسو في أحضانها ، يصيح « أمي » ، تقبله ، يهمس « الغربة أرهقتني » وبعد انصراف الجيران يسند رأسه إلى ركبتها ويحكي لها ، أم رأس القجلة شوهدت تتجه إلى غرفة الشيخ ، منذ سنوات قالت للست وحيدة إن الشيخ باركها وهي طفلة ، يومها انتهزت الست وحيدة فرصة نطق العجوز الصامتة دائماً ، سألتها ، هل تعرفين الشيخ ؟ قالت ، وكيف لا .. وهو البركة كلها ؟ إنها تذكر ما جرى للشيخ حسين صاحب البيت الذى يقيم فيه مولانا الآن ، رفض منحه سكناً في البداية مما اضطره إلى المبيت يومين متتاليين في الخرابة التي يقوم فوقها الآن بين أم لسبيلة المدرسة ، قام الشيخ حسين .. فجأة سكتت العجوز ، نظرت غاضبة ، لم تتحدث إلى الست وحيدة حتى الآن ..

في مولد الحسين يجيء الصوفية وأرباب الطرق ، ينزلون عند بعض السكان ، يفترشون الحارة ، الشيخ يحتجب خلال الموالد ، يتردد اسمه في قرى مصر وكفورها ونجوعها ، بل إن ركاب الدرجة الثالثة في قطارات الصعيد يعرفون عجوزاً يمر بين المقاعد يتلو شعراً يتضمن أسماء جميع أصحاب المقامات والمشايخ وأولياء الله الصالحين بمصر ، يذكر بينهم الشيخ عطية ساكن الزعفراني ، يؤكد الأهالي إنه سيرى القيامة بعينيه ، ولد من بطن أمه نابت اللحية ، تكلم بالقرآن قبل خروجه من الرحم ، ماتت أمه بمجرد ولادته ، البعض يقول إنه رأى الدنيا في

الزعفراني ، آخرون يقولون إنه استقر في الحارة بعد طواف عظيم ، سيقوم الناس ذات يوم فلن يجدوه بينهم ، سمع البعض صوته يتلو الآيات البينات في ليالى المطر الشتوية ، ورآه عدد من الأهالي يخرج إلى الزعفراني في أشد الليالي برداً ، معارفه من أجناس مختلفة ، يجيء إليه المغاربة أثناء اتجاههم إلى مكة للحج ، زنوبة المطلقة ساكنة الطابق الوحيد المتبقي فوق غرفة الشيخ سمعت ضحكات وقوراً تتردد أثناء زيارات هؤلاء ، رأت هنوداً وسمعت الشيخ يقول لهم « أهلا بأبناء المعمورة » ، جاء زنوج ورجال ملامحهم صينية لكنهم يتحدثون العربية ، لم ير الأهالي طعاماً يجيء إليه أو بقايا تخرج من عنده ، يقولون إن الجن يخدمونه ، يطيرون إلى السماء ، يتصنتون على مايتهامس به الملائكة بخصوص مصائر الناس ، في عام ١٩٤٤ قال للست أم سامية إن شمس يوم الجمعة القادم لن تشرق على إبنك ، وفعلا صعدت روحه إلى السماء قبل شروقها بساعة .. يذكر أحفاد الشيخ حسين إن فقيها كسيحاً جاء محمولا على كتفي نوبي طالب في الأزهر ، في هذا الزمن البعيد لم توجد أزمة مساكن ، لهذا لم يفكر صاحب البيت في تأجير هذه الغرفة الواقعة تحت السلم والتي جاءت زائدة كنتيجة لتقسيم البناء ، وموقعها ، إذ أن السلم يعتبر سقفها ، لكن فراغها يمتد إلى ما دون مستوى الأرض بحوالى مترين ، عند دخولها لا بد من نزول خمس درجات ، خالية من النوافذ ، شبه مثلثة ، يتسع جدارها القبلي حتى ليبلغ طوله أربعة أمتار ونصف ثم تضيق حتى لا يتجاوز جدارها البحري متراً إلا ربعاً ، بلاطها من حجر مصقول يماثل تماماً أرضية الزعفراني ، رفض الشيخ حسين تأجيرها ، قال إنه أقسم ألا يأوي أعزب في بيته ، إنصرف الشيخ وصاحبه النوبي الذى يحمله ، في اليوم التالي جاء تجار بخور وعطور ، رجوه تأجير الغرفة لهذا الكسيح الزاهد ، قالوا إنهم يبذلون جهداً حتى يقبل دخول متاجرهم والبقاء فيها لحظات ، قال الشيخ حسين إنه أقسم ألا يؤجر لأعزب ، ثم لماذا الإصرار على هذه الغرفة بالذات ؟ قال بالنسبة لعزوبيته فلا ضرر منه ولا نفع ، أما اختيار الحجرة فمن اسراره التي لا

يسأل فيها ، طلب منهم مهلة حتى اليوم التالي ، في المساء و بعد صلاة العشاء ومصافحة جاريه فوجيء بأحدهما يخاطبه باسمه،شيخ وقور ، أشيب اللحية ، رجا الشيخ حسين أن يمنح غرفته لعطية الصالح العابد ، ثم همس ، ما هكذا يجب معاملة الواصلين ، في اليوم التالي جاءا ، الطالب النوبي وهو ، طلعا إلى صاحب البيت ، خلا به الشيخ عطية ، ومنذ هذه الليلة لم يخرج من الزعفراني ، في الصباح التالي جاء الطالب النوبي بعربة يد ، تجمع عدد من أطفال الحارة يرقبون ما ينقله النوبي ، عدد من كتب قديمة ، صندوق كبير بني اللون .

أحياناً يتحدث عنه الناس ، يتساءلون ، يطرحون الاستفسارات ، يسكتون فجأة ، يمتد صمتهم شهورا حتى يقع أمر ربما شديد الضآلة ، ينمو الحديث عنه ، لكن في جميع الأحوال لا يفارق الأهالي شعور بأنه على مقربة منهم ، يرقبهم ، يعرف ما يدور بينهم ، نساء الزعفراني مغرمات بنسب الخوارق إليه ، يقلن إنه متزوج من جنية رائعة الحسن ، يرحل إلى أماكن مختلفة من العالم ممتطيا ظهر أحد المردة،تؤكد إحداهن إنها فتحت باب حجرته فلم تجده ، قادر على اتخاذ هيئات مختلفة ، ربما يتخفى في تلك القطة السوداء المارة الآن ، ينتبهن فجأة إلى تجاوزهن الحد في الحديث ، بعضهن يتذكرون السلالم المظلمة التي سيصعدنها أثناء عودتهن ، يهمسن « والله كله بركة » ، ينتقلن إلى موضوع آخر .

يرهبه الأهالي بلا شك ، لا ينسون المصائب التي تعرض لها بعض من حاولوا النيل منه ، في سنة ١٩٤٢ ، أثناء اشتداد الغارات الجوية على القاهرة ، انتشر عدد من اللصوص يتسترون بالظلام ، يبدو أن أقاويل وصلتهم حول محتويات حجرته من مجوهرات و يواقيت ، زمرد ومرجان ، لم يرهبهم ما تردد عن وجود قمقم يضم عفريتا محبوسا عنده ، ربما انطلق لاصطدام أحدهم به أو بأمر من الشيخ نفسه ، حاول ثلاثة منهم الهجوم على الغرفة ، وقف اثنان بالخارج ، خطا ثالث الى داخل الحجرة ، لم يقرب بابها ، قبل أربع خطوات زعق ، ارتمى ممسكا

بطنه ، هرع زميلاه ، شيء ما أخافهما ، طبيعة الأصوات التي يصدرها ، صراخه الممدود كالعويل ، ربما غموض الليلة ، هربا ، في الصباح وجد السكان شخصا مشوه الملامح كأن يدا ضخمة لوته بعنف ، بيده خنجر ومفاتيح وزكيبة قماشها مخطط بالأحمر والأصفر ، حاولوا تحريكه لكنهم عجزوا ، نقله جنود البوليس متخشبا ، تبين أنه هارب من عقوبات لا حصر لها ، ثمة حوادث أخرى جرت شكلت جوا من الحذر والخشية تجاه الشيخ ، تكثف هذا منذ سبع سنوات عندما احتجب الشيخ ، انقطع زواره الأغراب ، أغلق بابه ، قبل اختفائه قال لمن جاءوا إليه أنه سينقطع لأن عملا جليلا وعظيما سيستغرقه ، في البداية دارت تكهنات ، قيل أنه سيقلب حجارة البيوت ذهبا ، سيوزع على أهالي الزعفراني جرعات من ماء عين الحياة فلن يموت أحدهم أبداً ، سيملأ البيوت عسلا مصفى وخبزا وجبنا ولن يجوع أحد أبداً ، أبدى عدد قليل مخاوف ، كيف ينتظر خير من كسيح ، مقعد ؟ ، لامهم السامعون وطلبوا سحب ما قالوه ، بمضي الزمن نسى الأهالي ما قيل عن عمله الجليل ، زنوبة المطلقة ترى بابه مغلقا باستمرار ، بعض الأطفال يدخلون الفناء لالتقاط كرة أفلتت منهم أثناء اللعب ، يرمقون الباب بسرعة ويخرجون ، تجنب بعضهم الاختفاء في الفناء أثناء لعبهم عسكر وحرامية ، صحيح أن الباب موصد ، لا صوت يسمع للشيخ ، لكن احساسا غامضا يثقل فوق الكبار والصغار كلما التفتوا ناحية البيت أو تذكروه ، منذ شهر واحد ظهر شخص نوبي ، رأت زنوبة الباب مواربا ، قالوا إنه عاد من سفر طويل خلال الليل والزعفرانيون نيام ، سرت إشاعة بعودته غاضبا ، أوجد هذا خوفا في قلوب البعض ــ خاصة السكان القدامى ، على أية حال لم يجد الأسطى عبده إلا الشيخ يلجأ إليه في محنته ، بل أنه تفاءل ، لو أدركه العجز منذ ثلاثة شهور لما وجد الشيخ ولما استطاع التماس العون منه ، وحتى مساء الجمعة بلغ عدد المترددين على الشيخ عطية ستة رجال وامرأة واحدة ، كلهم من الزعفراني ، طلب منهم الحضور يوم الجمعة قبل شروق الشمس والسبعة هم .

١ — الأسطى عبده السائق بالنقل العام .

٢ — رأس الفجلة .

٣ — عويس الفران .

٤ — على المكوجى .

٥ — طاجون أفندى غريب .

٦ — روض ابنة أم صبرى (أحضرت معها منديلا وقالت إنه أثر لشاب تعرفه أصابه ارتخاء فى الأعصاب) .

٧ — فرقر الموسيقار .

« ملف ٢ »

بعض وقائع أولى
جرت يوم جمعة

شروق الشمس :

لحظة دخول علي المكوجي إلى حجرة الشيخ عطية ورؤيته عويس الفران أصيب بدهشة ممزوجة بخجل ، خفت حدة مشاعره قليلا لحظة وصول رأس الفجلة الذي عاش طوال عمره متجنبا دخول بيوت الجيران ، لدرجة أنه أثناء جمع عيدية المسحراتي يقف في الحارة حاملا قفة و يرسل ابنته الصغيرة لتجمع له أطباق الكعك أو نقودا قليلة ، ان ملامحه الآن تتغير تبعا لتزايد دقات قلبه ، يدرك أنه فضح . صمم الا يبوح بكلمة واحدة عن حالته أمام أي شخص من هؤلاء ، عندما جاءت روض تمتمت « بسم الله .. ماشاء الله » ، إضطرب خطاها ، وقفت بعيدا عن الرجال ، تنظر إلى الشيخ عطية متوسله ألا يفضحها ، لم تسمع أنه آذى مخلوقا من قبل ، عندما دخل الأسطى عبده مرتديا حلته الصفراء ، فوق صدره شعار الهيئة ، أوتوبيس مجنح ، أدركهم شبه يقين أنهم جاءوا في ظروف واحدة ، ما أدهشهم هو وجود « روض » ، لماذا جاءت ؟ ان أبصارهم مطرقة ، الصمت ثقيل ، ما يخشاه كل منهم أن يوجه الشيخ إليه حديثا يكشف أحواله ويجعله « جرسة » ، الأسطى علي يعرق و يقشعر جلد ظهره ، بعضهم تجرأ ورمق الشيخ ، للدقة يمكن القول أنهم نظروا إليه جميعاً ، من هنا يمكن تكوين صورة واقعية سريعة للشيخ ، انه قصير القامه إلى حد لا يتجاوز معه طول طفل في الثامنة ، ضيق الكتفين ، عريض الحوض ربما لانثناء ساقيه الكسيحتين تحت جسده ، يغوص رأسه حتى لا تبدو له رقبة ، إنما ثلاث دوائر من اللحم كل منها تعلو الأخرى ، وجهه بيضاوي ، متورم ، أو هكذا يبدو خاصة أنه بدون تجاعيد ، فمه صغير مزموم ، **جفونه غليظة** ، جلده مترهل ، يخيل للناظر إليه أنه لو مد يده وأمسكه فسيستطيل معه إلى مالا نهاية كالحلاوة السائلة ، هذا ما يعطي وجهه كله طابعا غريبا يتناقض مع لحيته الصغيرة البيضاء ، يبدو كجنين أجهض ثم نما

حتى حد معين أما عيناه فستديرتان تماما ، تبرقان ، **خضروان** ، أمامه أوان نحاسية منقوشة ، الى اليسار أربعة صناديق خشبية فوق بعضها ، عتمة الغرفة يتخللها ضوء خفي المصدر ، أيقن قرقر الموسيقار أنه باستطاعته قراءة كتاب صغير الحروف بدون صعوبة ، ربما تسبب هذا الضوء الغريب إلى جانب عوامل أخرى في عدم القدرة على إطالة النظر إلى الشيخ ، شيء ما يصد نظراتهم عنه ، لا يسمح للمعين بالاستقرار أكثر من لحظة في اتجاهه ، عندما رفع رأسه أدركوا أن الشمس تشرق في هذه اللحظة ، أصغوا إلى صوته البطيء ، القادم من كل مكان في الغرفة .

« لم يكتمل العدد بعد » .

يدير إبهاميه حول بعضهما إذ أن نتوءا صغيراً يبرز جلبابه ثم يختفي ، تذكر عويس الشيخ صالح عمدة بلدته ، عندما يجلس فوق الدكة الكبيرة أمام المسجد الصغير ، يرسل نظراته في اتجاه واحد بينما ابهاماه يتابعان بعضهما .

« لن أفصل الحديث إلا إذا جاء سبعة آخرون .. أعفي البعض ، لكنني أطلب أربعة عشر ذكرا . منهم عاطف ابن حسنين جودة » .

ارتعشت روض ، مشى النمل دافئاً تحت جلدها . تخشى الفضيحة .

« أريد الذكور فقط . ربما أبدى البعض ممانعة ، لكن ما يشكو منه كل منكم ، ما أخبرني به سرا . سيلقاه عند من يقصده » .

بداية اليوم .

لم ينصرفوا ، الأمر يبدو معقدا ولا يمكن لكل منهم التصرف بمفرده ،

تابعوا الست « روض » أثناء ابتعادها ، لماذا جاءت ؟ عويس يوشك أن يقول « كل منكم يعاني ما يعانيه الآخر » ، لم يلفظ كلمة ، يحتفظ بمسافة تفصله عن الباقين ، الأدب واجب ، لا يصح الاقتراب من ابرز سكان الزعفراني ، لأول مرة يقف مع عدد من الأهالي ، أنه غريب عنهم ، لا يتبادل الحيث مع أحد ، ولا يجلس على قهوة المعلم الداطوري ، ولا يقوم بز يارة زعفراني واحد ، ثم جاءته هذه المرأة في حارة درب الرصاص تجعلهم ينظرون إليه بضيق ، بعد فترة من سكنه نسي أمره لأنه ينام النهار كله ولا يراه أحد عند خروجه الليلي إلى الحمام ، ثمة أمور ستقع اليوم ، ما هي إلا مقدمات لأحداث أخرى ، يذكر صباحا بعيداً في قريته ، صحا على صراخ في بيت أبي مسلم ، قام يجري ، خاض أشعة الشمس المبكر التي تفرش البلدة ، قتل فيض الله أثناء مبيته بحقل البطيخ ، يبدأ جو من الحذر والترقب يلف القرية ، قد يطول أو يقصر ، ربما امتد أعواما ، يدرك الجميع أن من الحق عائلة أبي مسلم قتل أحد أفراد أسرة « عوض الله » ، لن تنتهي الأمور في الزعفراني عند ذهابهم صباح الغد إلى الشيخ ، قال علي الكوجي لابد من التصرف بسرعة لأن المهلة محدودة ولابد من ذهاب كل منا الى رزقه ، أوشك الأسطى عبده أن يسأل كلا منهم عن السبب الذي دفعه لزيارة الشيخ عطية لكنه خشي مطالبته بذكر السبب ، كل منهم يتجاهل ما جاء الآخر من أجله ، قال إنه لا يدري إلى من سيتوجهون لكنه يعتقد أن ذكر الشيخ عطية لاسم عاطف أفندي يوجب الذهاب إليه ، هنا نظر طاحون أفندي إلى الأسطى عبده باعتباره أقرب الموجودين إلى مستواه الوظيفي ، صحيح أنه سائق أوتوبيس وطاحون أفندي سائق قطار ، لكنهما يعملان في الحكومة ، قال إنه سيقابل عاطف ، أوحى في لهجته واشارة يده إلى صدره أنه قادر على مناقشته بأسلوب يرقى الى مستواه ، نظر إلى الباقين ، رأس الفجلة لا يخفي اشمئزازه إذ تجمعه الظروف مع عويس الفران ، ملامح وجهه لا تبرز مدى ضيقه ، لهذا ينظر بطرف عينيه و يتحرك بعيدا ثم يعود للوقوف كما أنه نفخ ثلاث مرات بضيق ، انه يجبر

على إجابة كل ما يتطلبه الموقف حتى تعود إليه فؤاد ويهدىء فريدة التي تسخر منه علانية الآن لدرجة أنها أول أمس ملأت كوبا بالماء البارد وسكبته في قفاه ، لم ينهرها ، « عينيه مكسورة » ، الأسطى عبده يشير إليه ، وأنت؟ ، قال إنه سيذهب ليدعو التكرلي ، أن الأسطى على الكوجي يعجب في سره ، كيف تحمله فريدة الحلوة التي تصغره بأعوام كثيرة ، منذ شهرين حمل بنفسه فساتين ، ذهب بها إلى شقة رأس الفجلة ، عندما فتحت له فريدة الباب ورأى ذراعيها النصار يتين وجسدها يضوي من خلال القميص الشفاف ، ابتلع ريقه ، عويس الفران ينظر من موضعه البعيد نسبيا إلى رأس الفجلة ، يلعن النقود التي تجبر امرأة خضراء العينين ، حلوة ، على معايشة رجل كهذا ، يذكرها إذ تنحني كاشفة عن نهديها الصغيرين الصلبين عندما تساعده لرفع طاولات العجين ، تمد ذراعيها إلى أعلى فتكشف إبطاراتها ، أثناء نزوله تتعمد أم يوسف كنس السلم ، واضح أن طاحون المتعجرف هذا لا يكفيها ، حسرة تلامس روح عويس ، أضاع فرصا ذهبية للمتعة مع أم يوسف ، بمجرد زوال هذه النعمة ، واكتمال مدخراته سيشتري عربة اليد ، يهجر الحمام والأفندية وعهرهم الليلي ، يجني اللذات من بساتين أم يوسف ، من فريدة ، حرم هؤلاء الذين يتجاهلونه الآن ، يخفون أحوالهم بالأنفة والشموخ الكاذب والاعراض عنه ، قال الأسطى إنه سيتحدث مع المعلم الداطوري ، وقال قرقر إنه سيتوجه إلى عاشور النجار . هنا قال طاحون أفندي ، لابد من الذهاب إلى حسن أنور و ولديه ، أنه من عقلاء الزعفراني ، من يذهب إليهم ؟ تبينوا أن الوحيد الذي لم يكلف عويس الفران ، هل يصح ارسال فران ضائع إلى موظف يخدم الدولة منذ ثلاثين سنة ، أعلن رأس الفجلة انه منصرف ليفتح الدكان ، قال الأسطى عبده ، لم يبق إلا عويس ، رفع عويس يده بالتحية ، قال علي الكوجي ، عويس « ابلب » في الكلام ، ورفع عويس يده مرة أخرى محييا .

التكرلي :

يعرف رأس الفجلة و يسمع عن تخزنه الغامض ، وعلاقته بفريدة امرأته ، من خلال ما تصغى إليه زوجته عبر الشرفات . من متابعته مرة أو مرتين لفريدة وهي تأتي بحركات مضحكة لحظة خروج زوجها ، مع ذلك أبدى برودا وسأل « من سيادتك » ؟ ندم رأس الفجلة على توجهه إلى هذا الشاب الطرى ذى الصوت الرخو الذى لم يدعه حتى للدخول ، لكن « ما يرميك على المر إلا الأمر منه » . أنه مضطر إلى الملاينة حتى يقنعه بالمجيء صباحا، تساءل التكرلى عن الشيخ عطية ؟ أبدى رأس الفجلة دهشة ، كيف يجهله والزعفراني تعيش ببركته ؟ ان ضيقا يخنق التكرلى منذ أيام ، ليلة البارحة أوشكت الفضيحة على الاندلاع ، تشاجر مع أحد ضيوفه ، أضطرت اكرام امرأته إلى التدخل بينهما ، لماذا يريده الشيخ عطية ؟ ربما يطالبه بمغادرة الحارة ، لهؤلاء المشايخ جواسيسهم الذين ينقلون إليهم الأخبار فيواجهون بها الناس ، يبدو الأمر معجزة فى نظر أمثال رأس الفجلة هذا . خطرت له فكرة بعيدة تماما عما يمكن أن يوحى به الموقف .

كيف يقبل رأس الفجلة امرأته ؟ من يراها لا يصدق أبداً أنها متزوجة من هذا الشائخ منفرج الفم ، لو عشقها أحد مشايخ العرب لدفع لها آلافا حتى تطلب الطلاق ، أو مائة جنيه لو أقتصر الأمر على متعة ليلة واحدة ، وهدية ، زجاجة عطر أو راديو ترانزستور مع ريكوردر كاسيت . لكن ما العمل وهو يعطى « الخلق للى بلا" وداد » . يقدر التكرلى المرأة بما يمكن دفعه لها مقابل متعة عابرة ، أثناء مشيه فى الطريق يقول لنفسه ، هذه عشرة جنيهات ، هذه تساوى خمسة ، قال رأس الفجلة إن رجالا آخرين سيذهبون إلى الشيخ ، هل سيعقد مجلسا ليفضحه ؟ ربما حكى وقائع واستدعى أشخاصا ، خاصة أن عدداً من الرجال المترددين عليه فى الأيام الأخيرة متوترون جداً ، أعلن أحدهم ــ مدير

تكنوجى ــ أن هذا لم يحدث له مطلقاً ، طالب بجنيهاته الخمسة ، قال التكرلى إنه لا يستحق استرداد ما دفعه لاختلائه بأكرام وخلعها ثيابها كاملة ، لم تبق قميصاً أو سروالا ، كشفت نفسها له ، لاعبته وناغشته أكثر مما يحدث عادة مما كلفها جهدا تستحق معه بقشيشا مجزيا ، أما توفيقه أو فشله فغير مسئول عنه ، ربما أصغى أهالى الزعفرانى إليهما ، يحاولون دائماً التصنت عليه ، خاصة عاطف الساكن تحته ، رصد نظراته الشرهة إلى نادية ، سيواجه الشيخ بحسم ، سيلوح بصلاته الوطيدة مع بعض ذوى النفوذ ، سيتخذ موقفا إيجابيا ، سيطلب الليلة من بعضهم طرد الشيخ من الحارة خاصة أن الدجل والشعوذة يعاقب عليها القانون ، سيشير إلى احتمال نشر شائعات عنهم بواسطة هذا الرجل مما يضر مراكزهم و"العيار « اللى ما يصيب يدوش » ، أخفى توتره . بصوت ناعم قال لرأس الفجلة انه سيذهب معهم ليرى حكاية هذا الشيخ ، سيرغم على الاستيقاظ مبكرا ، فأين سيتقابلون ؟؟

عاطف :

يفزع من مواجهة الليل وحيدا ، لهذا يخرج منفردا ، هاربا من العتمة ، يخشى عمق اللون الرمادى وصدى أحاديث بعيدة وأطياف وعبير روائح و بقايا زحام طرقات عبرها يوما برفقة من أحب ، يلجأ إلى الزحام محتميا من الليل ، يمضى بلا قصد ، يتأمل القمصان ، الساعات ، الأشياء الأنثوية ، يود الاسراع لكنه يطيل النظر إلى علب الروائح والساعات الدقيقة الملونة تعرض على الاناث داخل الدكاكين ، الآن يتأمل و ينظر ولا يشترى ، لمن سيقدم هدايا الحبيب ؟ قبل عيد ميلادها الرابع والعشرين ذهب إلى صاحبه فريد عند حدود المدينة ، استشاره فيما يمكن تقديمه ، اقترح فريد فستانا ، أقترحت أمرأته ساعة ، أعجبه ما قالت ، حار أمام المتاجر ، عندما عزم أمره ودخل ، سأله البائع هل يفضلها للسهرة أم للعمل ؟ قال البائع إن الساعات المزخرفة اللامعة لا تصلح إلا للسهرة . أما الساعات العملية فلا تفارق المعصم أبداً ، انتقى ساعة بين ، بين ، عاد إلى

امرأة فريد، أبدت إعجابها ، قال « تفضلي » ، ابتسمت « تعيش وتجيب لها » ، عندما مضى إليها خفت خطاه ، لانت الأرصفة ، بدت له الطرقات المؤدية الى بيتها رحبة وهواؤها أصفى والناس الماشون جديرون بالحب ، ود لو تحدث إلى راكب الأوتوبيس المجاور له ، إلى الكمسارى ، إلى الركاب ، وعندما وقف بواب العمارة دس في يده ورقة مالية ، عشرة قروش ، أحاطت عنقه بذراعيها ، أسرعت تنادى أمها لتريها هدية عاطف في عيد ميلادها . إن عاطف لا يمشى الآن في الطريق المؤدية إلى بيت رحمة ، في لحظات الليل الأولى يرى فتاة ، يجوع إلى الحب ، يمضى محاطا بسور خفي يعزله ، يصل في وسط المدينة ، انه الآن في البيت ، مستسلم لمجيء الليل ، أحزانه ستتضاعف ، تمسى هما ثقيلا لكنه قعيد ، لا يرغب في الخروج . لو علم فريد لا عتبر هذا علامة ، كيف تمضى عليه ثلاثة أيام لا يخرج أبداً ؟ لم يفكر في الذهاب إلى المستوصف ليعتصر فكرية الممرضة بين أحضانه كما فعل مرة واحدة ثم أنقطع تماماً . ربما تذكره روض الآن بدهشة ، ربما بالاحتقار، استسلمت له بلا معاناة ، أغمضت عينيها وانفرجت شفتاها ، فاجأة صوت « رحمة » وهمسات لياليها ومرات تناولها الطعام ، عندما التقيا في درب قرمز، لمح أسى في عينيها الواسعتين ، بدت راغبة فيه . لحظة دخولها حجرة نومه أيقن من ذهاب أيام الشوارع والوحدة الملتاعة في قلب الزحام ، حديث الناس وهمس الفتيات وعروض الباعة وتوسلات الشحاذين ، لم تخف روض شيئاً ، اشتهاها ، قرر أن يقص لها ما رآه مع رحمة ، بعد عجزه يتردد كثيراً في الافضاء إليها بما انتهى إليه حبه ، ستظن عدم قدرته معها سبباً لابتعاد « رحمة » عنه ، لو قص ما جرى على أصحابه لقالوا إن هذا أمر عادى لا يستحق الانزعاج ، اثبت فاعلية على أيديهم وهم شهود ، لكن خوفا يقبض قلبه ، ما أصابه أكبر من عارض طارىء ، ربما يمنعه الخجل من الخروج ، يتخيل روض مطلة من النافذة ، تهمس لنفسها أو لإحدى صاحباتها ، هذا الأفندى الأنيق الجامعي ، الطويل ، العريض (عالوش) ، الآن يثقل الليل عليه .

يطرق الباب . .

يخاف مجيء روض ، ربما تتلفت حولها الآن ، تنبعث منها رائحة صابون معطر رخيص ، يود لو تنصرف ، هل يضيف إلى عجزه عجزا جديداً ؟ لتدعه حتى يدرك منبع الوباء ، حاول بمفرده أمس ، أول أمس ، لا فائدة ، تهاجمه موجات متتابعة من الذكرى ولا يستطيع صدا . انه أعزل ، مستسلم للعتمة ، ماذا بقى أمام الليل ليهدمه ؟ من عاداته النظر أحيانا إلى الشرفة ، أو تقليب رواية بوليسية ، لكنه منذ عودته يلتصق ظهره بالجدار ، يبدو الزمن وعرا في نهاية النهار ، كأن ما جرى في حياته كلها وقع في نهار واحد هو الذى يراه راحلا .

طرقات من جديد ، متعال ، رجل ما ، من ؟

لا ينتظر مجيء أحد ، في مكتبه أضناه الانتظار ، يخيل إليه أنه لو رفع رأسه سيراها واقفة بالباب ، ضحكتها التي استبقها من زمن الطفولة ، من ؟

انه رجل قصير القامة ، نحيل ، رآه كثيراً أثناء دخوله وخروجه الحارة .

« طاحون غريب . . سائق بمصلحة السكك الحديدية » .

تساءل عاطف عن الشيخ عطية ، من هو؟ ، لماذا يطلبه ؟ عند الباب كرر طاحون رجاءه ، ألا يخلف الأستاذ عاطف الميعاد ، لقد اضطر إلى طلب يوم اجازة مع ان اجازته تسبب ارتباكا . يتغيب عن قيادة قطار الصعيد الذى يعمل عليه منذ زمن ، عندما عاد عاطف إلى موضعه أدركته رعشة . عينا طاحون تحملقان إليه من جوف العتمة ، فيهما سخرية وتعبير واضح « الحال من بعضه » .

حسن أنور:

ينـزل الآن سلم بيته . أيقظ ولديه مبكرا حتى لا تدركهما أشعة الشمس فيفسد اللقاء ، لا يستطيع رفض طلب للشيخ عطية حتى لو جاء به عويس الفران صاحب الأمور الخزية ، نادراً ما يطلب الرجل الصالح من أحد الأهالى الحضور اليه . كثيراً ما يجيء أهالى الأرياف إليه عبر المسافات الطويلة ثم يكتشفون أنه محتجب فيعودون خائبى المسعى ، يرتدى ولداه ثيابهما كاملة وكأنهما ذاهبان إلى صلاة العيد ، يضيقان بصحبته . يضطران إلى المشى بطريقة معينة ، يكرههما على زيارة بعض الأقارب ، يطيل جلوسه ، يضطران الى السكوت ، فى الطريق يلمح بعض معارفه ، يسرع الخطى حتى يبتعد مسافة عنهما ثم يلتفت إليهما ، يزعق طالبا منهما التقدم لمصافحة أحد زملائه ، يشير إلى حسان قائلا انه فى الثانوية والنية متجهة إلى الطب بإذن الله ، أما سمير فيدرس بالإعدادية و يتوق دخول الهندسة ، لا يخفى على حسان تباهى والده بهما . لا يضايقه هذا ، سمير يخجل ، يرى والده أشبه بالمهرج . خفيف الحركات ، قال لأخيه ان والدهما يعرضهما كالقردة . أبدى حسان ضيقا ، قال إنه تعب كثيراً فى حياته ومن حقه التفاخر بهما ، الآن يتبادلون النظرات . سهرا حتى ساعة متأخرة يستذكران دروسهما ، تمنيا لو امتدت بهما ساعات النوم قليلا خاصة أنهما فى العطلة التى تسبق الامتحانات ، ان رجالا آخرين من الحارة يقفون أمام غرفة الشيخ ، سمير ينقبض قلبه . ربما قال لوالده تفاصيل عن علاقاته بعطوة الطعمجى ومبروك طالب الأزهر ثم ان وجود عويس هذا أرعبه . لمحه مرة فى الحمام ، اكتفى يوما بدخول المغطس ، هل يذكره ؟ يحرص الا تلتقى نظراتهما ، انهم يتصافحون ، يتبادلون نظرات قلقة ، طاحون يقف مشدودا ، عاطف يقف شاحب الوجه ، يداه أمام صدره ، ينقل ثقل جسمه من ساق إلى أخرى ، عويس يبدو نشيطا ، التكرلى يقف بعيداً عن الحاضرين ، يتجاهلهم ، قال طاحون ان شروق الشمس سيتم فى

السادسة وأربع دقائق ، اتصل أمس بأحد أصدقائه فى جريدة « النداء » وأخبره بالتوقيت المضبوط ، الآن الساعة السادسة وثلاث دقائق ، قال حسن إفندى إن ساعته تشير إلى السادسة تماما ، أكد طاحون أفندى دقة ساعته ، أحضرها أحد أصحابه العاملين فى المطار ، اشتراها من السوق الحرة ، اعتماده عليها فى معرفة مواعيد وصوله وقيامه من المحطات دليل على دقتها ، ختم كلامه بنظرة باسمة إلى التكرلى وعاطف ، فيما بعد عندما استعاد كل منهما الموقف بمفرده ، لم يستطع أن يحدد بالضبط من الذى صاح قائلا « تفضلوا » .

(ملخص ما قاله الشيخ عطية فى لقائه بأربعة عشر ذكراً من حارة الزعفرانى ، و يلاحظ احتجابه أثناء الحديث خلف ستارة لونها بنى باهت يميل الى أصفرار) .

بدون أى مقدمات ، قال الشيخ عطية إنه عالم تماما بأحوال الواقفين أمامه ، وحال كافة الذكور الزعفرانيين ، جميعهم فقدوا رجولتهم إلى حين ، ان بعض المعطبين (استعمل كلمة العطب ، وكررها مرات) ليسوا رجالا أصلا ، الوضع الجديد لن يغير من جوهرهم . فما عدا مظاهر لا أصل لها ولا صورة عندهم .

- أى ذكر سيخطو فوق أرض الزعفرانى سيعطب .
- أى طفل سيولد منذ الآن فوق الزعفرانى خاسر مقدما .
- أى امرأة زعفرانية تضاجع رجلا من أى مكان فى العالم ، سيلحقه عجز مهما اختلفت جنسيته أو ملته ، قال إنه استثنى من ذلك ذكرا زعفرانيا واحداً . وامرأة زعفرانية واحدة ، لحكمة أضمرها ، لأسباب خفية لن يعلن أسمهما أبداً .

قال إن كل من يترددون على حارة الزعفرانى سيمسهم الطلسم ، حدد هذا بالمتحدثين فى تليفون حسن أفندى أنور وكل من يزعق فى الحارات المجاورة بحيث يسمع صوته السكان **الزعفرانيون** ، كل من وقف خارج الحارة وصاح منادياً أو ساخراً من زعفرانى ، سيعطب أيضاً ، كل من حاول الحاق الضرر بأى طفل أو امرأة أو رجل زعفرانى ، أى إنسان يحاول دخول الحارة ، سواء حاول عبور جوف الأرض ، أو التعلق بالسماء .

قال إن ما أصابهم وما سيصيب الاخرين لن يفلح فيه أى علاج طبى ، أو نفسى .

قال إن ما لحقهم هو البداية .

قال إن طلسمه قوى ، متحرك ، شامل ، نافذ ، واعر ، أعده لحكم ارتآها ، وتدابير سيعلن عنها فى حينها ، لن تقتصر على الزعفرانى إنما ستشمل الدنيا وسائر الموجودات وجميع أنواع المخلوقات ، ما دفعه تأمله فى الأحوال والمصائر ، وأسباب نائية ، دانية ، سر الطلسم لا يعرفه ألا هو ، لن يفكه الا هو ، لن يفلح أى طلسم آخر فى إفساد آثار طلسمه ، ما أعده الأول من نوعه والفريد فى مكنونه ، لن يصغى إليهم ، فكل قول عبث ، وأى جهد ضائع ، عليهم الانصراف ومتابعة ما سيقوله ، ما سيطلعهم عليه ، لن يقبل مجيء أى إنسان إليه . سيقوم عويس فقط بالتردد عليه مرتين ، عند شروق الشمس ، وعند غروبها ، ليسمع منه و ينقل عنه .

« ملحق تابع لملف ٢ »

ما جرى خلال الجمعة
وأيام تالية

رمانة :

يمكن القول إن أحداً من رجال الزعفراني لم يذهب إلى عمله . حتى الرابعة بعد الظهر لم تسمع الأصوات اليومية المعتادة ، امتنعت الأحاديث الصباحية فوق السلالم ، وعبر الشرفات ، والصيحات المتفرقة الى تسمع عادة بين الحين والحين كزعيق امرأة تأمر ابنها بوضع إناء فوق منضدة ، أو إعادة شيء إلى مكانه ، خلت الحبال تماما من الغسيل ، لوحظ خروج عدد كبير من الأطفال حتى التاسعة صباحا ، عرف فيما بعد أنهم منحوا مصروفا على غير العادة ، ذهب معظمهم إلى سينما الكواكب التى تعرض أربعة أفلام منذ التاسعة صباحا وحتى الرابعة مساء ، بعضهم — وهؤلاء أكبر سنا — ذهبوا ليركبوا دراجات ، خلت الزعفراني من ضجيج الأطفال المعتاد ، المدارس الابتدائية أغلقت أبوابها منذ فترة واعتاد الأهالي صياحهم ، لم يلعب أحد منهم الكرة الشراب ، لم يتماسك اثنان ويصرخ أحدهما حتى تطل أمه من الشرفة ، تبدأ توجيهه (أمسكه من ياقته .. خذ طوبة واضربه .. اختبىء هناك .. اضربه .. اضربه) ، هنا تطل أم الطفل الآخر ، تبدأ مشاجرة عنيفة ربما انتهت بتدخل الرجال بعد عودة كل منهما إلى بيته ، صمت الزعفراني لاحظه الباعة الذين دخلوا الحارة ، لم تشتر منهم امرأة واحدة ، لم تناد أم سهير التى تعودت أن توقف كل بائع وتسأله بصوت عال عما يبيعه مع أن صوته بح من وصف ما يعرضه ثم تجادل فى الأسعار ، معظم الأحيان لا تشترى ، هذا يتجاهلها كثيرون ، ليس بمعنى عدم ردهم على نداءاتها أبداً فهم لا يجرأون ، ربما اعترضت طريق من يضايقها بجردل ماء قذر ، لكنهم يجيبونها بدون حماس ، ويتخذون المناقشة معها وسيلة لإعلان الأسعار على النساء الأخريات ، لم تطل أم سهير مع أن نوافذ بيتها ظلت مفتوحة ، أدهش هذا أحد عشر بائعا بيانهم كالآتى :

• ثلاثة ، أولهم اسمه البيومى من بولاق الدكرور ، الثانى اسمه عبد الهادى من العطوف ، الثالث صعيدى اسمه ونيس ، كلهم باعة خضار .

• بائع قماش متجول اسمه هريدى ، يسكن الحمزاوى الكبير ، يحمل لفات قماش باتستا وكستور وبيكا ، يبرز من تحت أبطه متر خشبى يقيس به .

• فسدق بائع البطاطا ، يرى دائماً بحارة درب الفراخة أول الليل نائما فوق عربته .

• امرأة تبيع اللبن الرائب ، تحمله فى قربة موضوعة فى قفة فوق رأسها ، ممشوقة القوام ، صوتها حلو ، تأتى مشيا من نواحى شبرا الخيمة ، لا يعرف اسمها .

• بائع غزل بنات ، لم يبع بتعريفة واحدة فى الزعفرانى نظرا لغياب الأطفال .

• سمكرى متجول اسمه عم رضوان ، يشاع عنه قضاؤه فترة بمستشفى المجانين ، إذا طلع بيتا ليصلح موقدا ، يجلس فوق البسطة تتحلق حوله النساء ، يرقبنه بحذر ، يحاولن استثارته ليقص بعض ما رآه فى المستشفى ، لكنه لا يتكلم كثيراً ، وربما انطلق فى الغناء فجأة ، أو البكاء الحاد ثم يتوقف كما بدأ ، ويقال إن سبب ذهاب عقله حبه لامرأته التى هجرته منذ عشرين عاما ، ومما يتردد أنه فحل مع النساء ، كثيرات أقمن معه علاقات جنسية أثناء غياب أزواجهن ، أغراهن على ذلك فحولته ونقص عقله ، إذ من سيظن أن امرأته ترضى لمجنون أبله مثله ، بعضهن يعطينه نقوداً ، أو طعاما ، يحكى أنه ثار على امرأة جميلة من حارة الجوانية يتمنى الكثيرون مجرد النظر إليها ، وقف فى الطريق يصيح بأعلى صوته ، يا امرأة أنا نمت معك . يا ..... ، لم يصدقه أحد ، ولا زوجها حتى ، شجع هذا

نساء آخريات ، وقلائل يجزمون بتعقله التام ، و يروى البعض أنهم سمعوه ذات ليلة فى حارة الوطاويط يسخر ممن يظنون جنونه ، والله أعلم . .

يضاف إلى هؤلاء ساعى البريد .

فى الساعة الثانية عشرة وخمس دقائق عاد أحد الغائبين ، أنه الأسطى رمانة السياسى ، كل ما رآه بدا له جديداً ، تعجب لنسيانه بعض معالم الحارة خلال استعادته لها فى سجنه ، عند مغادرته مبنى هيئة الأمن الأعلى منذ ساعة راح يتخيل استقبال الزعفرانى لعودته ، صياح امرأة « الأسطى رمانة خرج » ، تخرج أم سهير ، تسيل بجسدها الضخم من الشرفة ، تزعق . . الله أكبر . . الله أكبر . . جيران العمر سيقدمون مشاعر الأسرة التى يفتقدها ، مضى كل زملائه إلى زوجاتهم ، هو لا يمضى إلى عائلة ، تخيل تتابع الجيران على حجرته ، يقولون « حمد الله على السلامة » . يرد التحية مرتين ، الأولى خفية إذ يهمس قلبه . . أى سلامة ، والثانية منطوقة « الله يسلمكم » ، هل انتقل السكان إلى حارات أخرى ؟ أخبار الزعفرانى لم تصله لعدم وجود من يراسله ، خلال غيابه يأتى أحد أقاربه إلى الصول سلام كل شهرين أو ثلاثة ليسدد إيجار الغرفة الزهيد ، فى المرات السابقة ضاع ما استأجره من حجرات وما اشتراه من أثاث قليل ، أقسى ما يواجهه العائد عدم وجود مأوى فى زمن يضيق الناس ببعضهم ، الآن يصعد السلم متمهلا ، تباطأ دقات قلبه ، شقة الأسطى على المكوجى مغلقة ، لا يدرى من يسكن الغرفة الواقعة تحت السلم ، الهدوء الثقيل يعيد إليه صمت الزنزانات حيث الحبس الانفرادى ، السجن داخل السجن ، حيث تنفى أصوات الدنيا عدا قطار تعود سماعه آخر الليل ، يتردد مرتين ، تمام الثانية يبدو نائيا ، يضيف إلى همه هموما ، فى المرة الثانية يبدو الصوت قريبا ، يسمع صوت العجلات عندما تعبر فواصل ما بين القضبان ، الآن يفتح حجرته ، الغبار والعنكبوت والصدأ وضيق الملابس والجير فوق نافذة الزجاج الوحيدة ، يجلس على حافة السرير ،

يضع يديه متلاصقتين بين ساقيه ، ماذا جرى ؟ يعمق الصمت مع أن الحركة تتزايد عادة فى هذا الوقت ، تعلو أصوات اللعب و يضطر إلى النزول ليطلب من الأولاد الابتعاد بالكرة قليلا حتى يمكنه النوم . كأن الزعفرانى كلها تشيع جنازة ما . .

الثانية والنصف ارتفع صوت مذياع باللحن المميز ، نشرة أخبار الظهيرة ، أول صوت مرتفع يسمع فى الحارة منذ شروق الشمس إذا استثنينا صياح الباعة وضجة الأطفال لحظة خروجهم شبه الجماعى ، بعضهم فضل ركوب المراجيح فى ميدان الحسين ، وشرب العصير من دكان خارالمبو فى العتبة ، وهؤلاء بدأوا العودة حوالى الثالثة ، ميعاد الغداء تقريبا ، حوالى الرابعة خيل إليه انه يسمع زعيقا ، لم يستطع تحديد مصدره ، لا بد أن بعض أهالى الزعفرانى الطيبين انتقلوا إلى أماكن أخرى ، هذا طبيعى ولو أنه يقبض قلبه ، يجسد عزلته ، و يذكره بمضى الزمن وما يصحب انتقاله من تغير الأحوال ، الثبات الذى أوثق أيامه ، جرت خلاله متغيرات عديدة فى حياة الآخرين ، معالم المدينة تبدلت ، رأى نفقاً تدور المركبات فيه إلى اتجاهات مختلفة ، لون الأوتوبيسات الأحمر لم يألفه ، هدموا المبانى القديمة بميدان الحسين وأقاموا مبانى جديدة ، يتضاءل هذا إلى جانب ما رآه فى الزعفرانى ، الصمت ، ليته جاء من طريق بيت المال ، ومر بمقهى الداطورى ، لكنه آثر الوصول إلى الحارة عن طريق أم الغلام الجانبى ، الرابعة والثلث سمع صوت الست بثينة والأسطى عبده ، اعتاد الزعفرانيون خناقهم المستمر ، و برغم تكراره إلا أن مجرد بدئه يدفع النساء إلى النوافذ ، خاصة خديجة الصعيدية التى لا تخرج من بيتها أبداً إلا بصحبة زوجها النجار ، المشاجرات تكسر حدة الرتابة التى تعيشها خاصة وأنها لا تملك جهاز راديو ولا يسمح لها بالذهاب للفرجة على التليفزيون عند الست فريدة امرأة رأس الفجلة ، أول من علقت الايريال المعدنى فوق شرفتها ، الست خديجة لم تخرج ، لم تطل عند تردد

صوت الست بثينة وهذا عجيب ، ما جرى فى شقة الست بثينة عرف فيا بعد ، إذ أن الأسطى عبده توجه إلى امرأته بعد انصرافه من حجرة الشيخ مباشرة ، لم يدع لها فرصة لتغسل وجهها ، ألح فى طلبها ، نامت مرفوعة الساقين ، لعل وعسى ، لم يقل لها ما أعلنه الشيخ ، تعجبت ، ماذا جرى له ، منذ أسبوع يفشل يوميا حتى ضاقت به ، لكنه واصل محاولاته ، من يدرى ، ربما قصده الشيخ عندما قال إن شخصا واحدا لديه القدرة فى الزعفرانى ، وصلت إلى درجة من الإثارة والتوهج وهوغير قادر على إطفاء نارها ، بعد يأسه فى الثالثة حكى لها ما جرى ، لم تصدق ، قالت إن هذه حجة يتعلل بها ، منذ الآن لن تستطيع اقتناء رجل فى المظهر فقط ، قال إن الأمر لا يخصه بمفرده بل ما جرى له جرى للأهالى كلهم ، لكمته ، تكور مذعورا ، فى أسوأ احواله يعدو أمامها عبر الحجرات ، أو يرد ضرباتها ، مرتين ، عضها فى كتفها ورد فيها ، بدا ضئيلا فى عينيها ، أمسكت شبشبها ذا الكعب الخشبى ، استفزتها عيناه المتوسلتان ، تقسو عليه بدافع غامض ، ربما لأنه قلبها طوال اليوم كالسمكة ولا فائدة ، يرفع يديه محتميا كطفل ، يعلو صراخه قبل أن تلمسه ، فجأة ترمى الشبشب ، تتجه إلى البلكونة ، لم يتوقف عن الصياح ، تعلن أن بعض أولاد الحرام الذين آوتهم الزعفرانى سنين طويلة يتسببون الآن فى إيذاء الخلق ، لن تسكت على ما حدث ، إذا ظن البعض أن أعمالهم لا يمكن قهرها فهناك من لديهم أعمال أخطر ، هانت الزعفرانى طالما عبث بها من لا أهل لهم ولا فصل .

يصغى الأسطى رمانة السياسى بدهشة ، ماذا يجرى ، يطل من النافذة الضيقة فى نفس اللحظات التى توقفت بثينة خلالها لترى أثر ما صاحت به ، لم يخرج أحد ليسمعها ، تلمح رمانة ، تتوجه إليه بالحديث ، قالت إن الحارة خلت من الرجال وجميع ما جرى وما سيجرى لهم يستحقونه لأنهم فقدوا رجولتهم منذ زمن ، ماذا يجرى ؟ عاد إلى داخل غرفته ، لا يود إطالة النظر إلى أى امرأة حتى

لا يتقول عليه أحد . ينظر إلى العروق الخشبية التى تصلب السوق المرتفع ، بثينة تعرفه تماما ، لم تقل له كلمة . لم تهنئه ، يبتسم بسخرية ، يصغى إلى قولها « خلت الحارة من الرجال » .

حوالى الخامسة توجه التكرلى إلى عاطف ، لم يعرف ما دار فى المقابلة لكن شوهد التكرلى قبل المغرب يتحدث إلى طاحون قال إنه فى سبيل اتخاذ اجراءات مضادة بواسطة معارفه ، تمنى طاحون له التوفيق ، بدا متحفظا ، غير راغب فى الحديث بعكس التكرلى الذى لم يخف ضيقه .

المغرب ، يعلو ضجيج الأطفال ، تخلو الشرفات من النساء ، أم سهير التى اعتادت قص النوادر والحكايات لم تظهر ، عاطف لم يخرج فى ميعاده لليوم الثالث على التوالى ، لم تفتح نوافذ حسن أنور . تحت بيت الست بثينة ، خرجت لطيفة العجوز ، جلست فى مواجهة زوجها البنان ، انه عامل قديم فى طاحونة بن ، موضوع حديثهما واحد ، ابنهما إسماعيل المسافر منذ سنوات بعيدة ، آخر خطاب وصلهما منذ خمسة شهور ، أخبرهما بعبوره ميناء الاسكندرية ، لم يستطع مغادرة المركب ، مع الخطاب أرسل عشرين جنيها ، زغردت وتناقلت الزعفرانى الخبر من الشرفات وفى أحاديث العشاء الليلية بين النساء وأزواجهن ، الآن تتحدث لطيفة العجوز عن رغبات ابنها ، حبه للشاى المحلى بقطع سكر الماكينة ، لا يحب السكر الناعم ، شربه الشاى مرتين فى اليوم ، مرة يغمس فيه خبز الصباح ، ومرة بعد قيامه من النوم قبل المغيب ، حتى الآن تعد أكواب الشاى فى نفس الميعاد ، تحتفظ بموضع نومه خاليا ، تسوى الفراش صباح كل يوم كأن اسماعيل تقلب فيه ليلة كاملة ، منذ شهور جاء أحد أقاربهما من البلدة ، اقترح البنان أن ينام معهما فهو كبير السن والفنادق المحيطة بالحسين مرهقة ، رفضت ، نوم شخص آخر فى مكان اسماعيل فأل سيىء ، اضطر إلى دفع أجرة المبيت للرجل مما أرهقه ماليا يومين متتاليين ، إنهما يتخيلان اسماعيل داخلا ، تصحو

الأم على ما يشبه الطرقات ، ينتفض قلبها كحمامة مذبوحة ، تصرخ .. من .. اسماعيل ؟ خيبة تضغط رأسها بين كتفيها إذ تكتشف أن الطرقات نتاج مؤثر بعيد ، الآن يجلسان متواجهين ، لا يدريان ما يجرى فى الحارة ، مشدودان إلى اسماعيل ، ربما عبر بآخر الدنيا الآن ، ربما يعبر الطرقات أمام فرن الحاج صنيبر متجهاً إليهما ، إذ يكتمل الليل يدخلان ، يواصلان انتظارهما .

يتردد عزف « قانون » متصل مصدره بيت قرقر ، يتقطع ، يختفى ، يبكى طفل ، يرتفع صوت ينهره ، يصيح صوت « يارب » ، يبدو أن الصول سلام وامرأته خرجا ولم يرجعا طوال اليوم لأن الأسطى رمانة لم يجدهما عندما نزل السلم وطرق بابهما ، رأى رجلاً يرتدى جلباباً بلدياً ، يجلس القرفصاء ، أمام الحجرة الواقعة تحت السلم ، رفع يده محيياً ، « أنا محسوبك عويس الفران » ، سأل الأسطى عن الصول وامرأته ، قال عويس إنه لم يرهما لكن يبدو إنهما فى حجرتهما ، قال الأسطى إنه طرق الباب كثيراً ولم يفتح أحد ، ضحك عويس ، إن الصول عجوز جداً وأحواله منتهية قبل الطلسم فلماذا يغلق الباب ؟ تساءل الأسطى رمانة ، أى طلسم ؟ قال عويس إن الحارة كلها تعرف ، لابد أن الأسطى عائد من سفر ، قال رمانة إنه فعلاً راجع من غيبة تشبه السفر ، تساءل عويس ألم يأت إلى الحارة إلا فى هذا اليوم ؟ تساءل الأسطى عما يحدث ؟ ليست هذه الزعفرانى كما يعرفها ، بدا عويس جامد الوجه ، ربما يغضب الشيخ لو علم بثرثرته ، يمكن لأى زعفرانى أن يحكى ما يشاء ، لكن الأمر يختلف بالنسبة إليه ، هو من وقع اختيار الشيخ عطية لينقل عنه ، آماله تعاوده ، ربما ساعده الشيخ فى الحصول على عربة يد ، رمانة حائر لصمت عويس المفاجىء ، ما لكل شىء ، يبدو غريباً ، ما هذا الطلسم ؟ لحظة خروجه من البيت لمح طاحون أفندى ، يعرفه جيداً ، كثيراً ما وقف معه وأبدى رأيه فى الشيوعية والاشتراكية ، تحدث عن طريق وضعه للوصول إلى الاشتراكية الشاملة ، إنه يرى ضرورة

تكاتف الآف من البشر ، الفقراء ، المطحونين ، يعملون فى سرية تامة ، يبدأون حفر شبكة ضخمة من الأنفاق المتصلة ببعضها عن طريق أنفاق أخرى ، يأوون إليها أثناء النهار ، يخرجون فى الليل ، يسطون على القصور ، البنوك ، يخزنون ما يستولون عليه فى مكان قصى بالأنفاق ، حتى يصل الأغنياء إلى درجة بالغة من الفقر بعد سلب ثرواتهم رويداً ، رويداً ، عندئذ تبدأ الجهود لضمهم إلى أهالى الانفاق ، وعندما يتم السيطرة على ثروات الأرض كلها يقفزون إلى النور ، يشيدون عالماً خالياً من الفقر ، من المرض ، قال طاحون أفندى إن خلاصة من رجال أشداء ستقوم الدعوة على أكتافهم وهم سيشرفون على توزيع الثروات ، ستلغى النقود ، توضع نماذج منها فى المتاحف ، المال أساس الشر ، ثم إنه يعكس الغباء الإنسانى ، فثمة ورقة مالية قيمتها عشرة قروش لا تكفى لشراء علبة سجائر ، وثمة ورقة أخرى من نفس الحجم ، لكن قيمتها مائة جنية ، أو ألف دولار ، أو عشرة آلاف فرنك ، ربما اشترت سيارة كاملة ، سينتهى عصر الأوراق الرمزية هذه مع تحقق الاشتراكية الشاملة ، كل إنسان سيعمل يقدم إليه الطعام والشراب ، وقال إنه أعد خططاً تفصيلية وكتيبات صغيرة تشرح نظرية الأنفاق ومسار العمل ، إن عمله كسائق فى السكك الحديدية يمكنه من نشر الدعوة ، حالياً لا يبوح بأفكاره إلا لأقرب الناس إليه والأسطى رمانة قريب منه لأنه صاحب فكر ، يختلف معه لكنه يحترمه ، ولكى يبرهن على ما يقول ذكر عدداً من أسماء الكتب ، بعضها لماركس ولينين ، وذكر اسم روزالو كسمبرج ، صمت بعد نطقه ، كأن معرفته للاسم يعنى قمة التعمق فى مذهب الأسطى رمانة .

عينا رمانة تلتقيان بعينى طاحون أفندى ، لم يتوقف ، لم يتهلل وجهه ، تعبير وجهه أقرب إلى الذعر ، يدخل بيته كمن يهرب ، يدهش الأسطى ، هل غير الحسن من هيئته ؟ يلمع بلاط الحارة تحت ضوء الفانوس ، قشر كيمة وبطاطس وأوراق ممزقة أمام بيت أم صبرى ، يتجه يخطى بطيئة إلى مقهى الداطورى .

يجلس المعلم هادئاً ، اعتاد رؤيته صامتا ، إذا تحدث يشير إلى العمارة التي ينوى بناءها فوق أرض لم يشترها ولم يخترها بعد ، سنوات طويلة يتحدث عن هذه العمارة ، لدرجة أن بعض الزبائن عرضوا عليه نقودا كعربون خلو ، أطالوا الرجاء ليقبل منهم ، لكنه هز رأسه متمهلا ، كل ما سيأخذه شهرا إيجار وآخر تأمين ، يعرف اضطرار البعض إلى بيع أثاث بيوتهم لتدبير المبالغ اللازمة للخلو ، حاول البعض الارتباط معه بكلمة شرف ، رفض ، قرر دراسة جميع الحالات المتقدمة إليه للسكنى في عمارته ، ليس معقولا أن تتقدم إليه عروس تعيش بعيدا عن عريسها ولا يمنحها سكنا ، سرى همس بأن المعلم لن يقبل إلا العرائس لكنه نفى ذلك .

يتقدم الأسطى رمانة ، لا يرحب به أحد ، لا ينتبه إليه أحد ، لا يشعر بوحشة قدر شعوره بدهشة ، عادة يرحب الزعفرانيون به ، لا يهابون السلام عليه ، مثل قة « الجدعنة » في نظرهم ، يتحدى الحكومة ، يدخل السجون ، ماذا جرى لهم ؟ لا يدرى ، ها هو ذا الأسطى على المكوجى الساكن في الطابق الأسفل مباشرة ، يقول إن الطلسم أعد في الهند ، مثل هذه الطلاسم القوية لا تعد إلا في الهند ، منذ شهور رأى ثلاثة هنود يدخلون الزعفراني بعد إنهاء الشيخ لاجتماعه ، يتساءل أحد الجالسين عن حقيقة شخص لم يفقد القدرة ، يتساءل الأسطى رمانة عما يجرى ، عن حقيقة الموضوع ؟ ينتبه الداطورى إليه مما يجعله يرفع صوته قليلا لكنه يعد زعيقا بالنسبة لطريقته في الحديث .

من .. الأسطى رمانة .. ألف حمد الله على السلامة .

يتعانقان ، يصافحه الأسطى على مرحبا ، يتساءل أحد الشبان الغرباء ، يقول الأسطى على إن رمانة انقطع زمنا يوازى المدة التي تستغرقها المسافة إلى الهند ، يقول الشاب إن الإنسان يذهب إلى الهند و يعود منها في أربعة أيام لكن

رمانة غاب أربع سنوات ، يقول الأسطى على إن الهند أبعد مما يتصور الخلق ، يضحك الشاب ، الأسطى يعيد الأشياء كلها إلى الهند ، يقول الأسطى على إنه لولا أسرار الهند لما حدث ما حدث في الزعفراني ، قلب رمانة مقبوض الآن ، ربما لأن هذا ميعاد مجيء العساكر ، التمام اليومي ، يولجون مفاتيحهم في الأقفال الضخمة ، تبقى الأبواب مغلقة حتى الصباح ، ومع أن باب الزنزانة يؤدى إلى العنبر حيث الأبواب أضخم ، فإنهم يتحدثون إلى الجنود و يقدمون إليهم السجائر ليبقوا الزنزانة مفتوحة ولو لدقائق ، الحاضرون يرمقون الأسطى رمانة ، يهز الداطورى مبسم الشيشة في يده ، يقول « لم تستطع السفر والابتعاد .. لماذا جئت إلى الزعفراني » ؟

التكرلى :

صباح السبت قال لامرأته إنه سيذهب إلى رشدى بك القانوني ليستشيره ، رفعت حاجبيها ، بدت شفافة أكثر ، هكذا تبدو بعد استيقاظها ، لو رآها أحد معارفه لما تأخر عن دفع كافة ما يطلبه منه ، حاولت اكرام تذكر صاحب الاسم ، إنه رشدى بك الذى انقطع عن زيارتهما لسفره إلى أوروبا ، عاد منذ شهر واتصل به مستفسرا عن « التفاحة » لكنه لم يخبرها في الوقت نفسه ، تعض شفتها السفلى المحتقنة بالحمرة ، يبتسم التكرلي ، قال إنه سيذكرها ، تدريجيا يتحول صوته إلى همس ناعم يقول إنه الرجل التعس البدير الذى اكتفى بالنظر إلى جسدها العارى ، ثم الزوى في ركن السرير باكيا ، مطلقا حشرجات وأنات تنم عن حسرة شديدة .

تطرق اكرام ، تغمض عينيها ، خجل يكسو وجهها ، يقترب منها حتى يوشك فمه على ملامسة حافة أذنها ، أى متعة يلقاها في قص التفاصيل ؟ يبدأ هادئا ، يرتعش صوته ، تجتاح جسده اختلاجات سريعة ، بينما يتسرب صوته

لـناعـم إلى عـروقـهـا . أحيـانـا يـعـرض عـلى بعض عملائه أن يرى جزءا من المضاجعة . في العادة يدخل حجرة النوم وحيدا . تجلس نادية مع الزبون في صالة البيت ، يشربان كئوسا من زجاجة خمر يحضرها معه العميل عادة ، بينما التكرلي يكنس الغرفة ، يفرد ملاءة السرير ، لا يدع أي تجعيدات صغيرة ، يضيء اللمبة الوردية المجاورة للسرير ، يرتعش عندما يتصور ما سيجري بعد لحظات ، ينتظر حوله ، يصبح مناديا ، يبدأ اكرام بنفسه ، تخلع ثيابها ، قطعة ، قطعة ، بعض الزبائن يفضلون خلع الملابس بأنفسهم ، الالتصاق بجسد اكرام قبل خلعها القميص الداخلي الناعم ، موقف كثير أمر بارتدائها الملابس من جديد عندما رآها عارية تماما ، لو سمح للتكرلي بالمشاهدة فإنه يجلس على كرسي منخفض ، يبسط يديه على ركبتيه ، يتبلل جبينه ، يعرق ، يتابع اختلاجاتها ، يضغط أسنانه إذ تغمض عينيها ، يقوم خارجا وبه دوار ، يثيره للغاية مرأى أصابع قدميها عندما تتقلص من المتعة ، الآن يحاول التكرلي استعادة ما قام به [illegible] [illegible] ، كتفاؤه بالمرور على حلمة الثدي بلسانه ، كافة التفاصيل التي جرت في المرات الثلاث الأخيرة واضحة في ذهنه الآن ، لكن المتعة في قصها تفارقه ، لا تزال اكرام مغمضة العينين ، عادة تصغي إليه هكذا ، يثيرها بطريقته في القص إثارة لا تجدها مع هؤلاء الرجال ، في لحظات همسه تنسى الحارة والناس ، ذهابها مع التكرلي إلى بعض معارفهم الذين لا تسمح مراكزهم بالحضور إلى الزعفراني ، تنسى مضايقات بعض مشايخ العرب العجائز ، شخص واحد لا يدركه التكرلي ، إنه نبيل الطالب الجامعي الذي جاء منذ عام تقريبا ودفع جنيها واحدا ثم انطلق التكرلي ، لم تأت به أبدا ، لكنه زارها كثيرا فيما بعد أثناء غيابه ، تفتح عينيها متمهلة ، شيء غامض يرجف صوته ، ماذا به ؟ عقدت يديها فوق صدرها ، طوال عمرها معه لم تحرجه بكلمة ، حتى في شهور زواجهما الأولى [illegible] النبيل ، هل فقد قدرته على الكلام أيضا ؟ يبدو فجأة معلنا ضرورة اتخاذ بعض الإجراءات ضد الشيخ عطية ، سيقلب الدنيا عليه ، تحدث إلى رأس العجلة

وعاطف الجامعي وطاحون والأسطى على المكوجي ، نظر إليها معتذرا ، الظروف تجبره على تجميع الجهود كلها ، ونزوله إلى حديث من ترفع عنهم طويلا يجعلهم أكثر جرأة في التحرك معه ، إنه مستفز الآن ، اصطحابه لأحد الزبائن فيه مخاطرة ، والطلسم يلحق كل من يطأ الزعفراني ، تكرار الأمر يهدد بفضيحة ، مجيء شخص كرشدي بك يخلو من المخاطرة لا كتفائه بمتعة اللمس ، لكن أمثاله قلة ، اكرام تخشى أمرا واحدا ، مجيء نبيل ، ليس خوفا من التكرلي ، لا يطيق رؤيته ، عندما تحدثت عنه زعق مطالبا بعدم ذكرها لهذا التلميذ ، احتضنها هامسا إنه يغار عليها ، غمرتها دهشة لم تفصح عنها ، يأتي إليها كل ليلة بخمسة أو سبعة في بعض الأحيان ، منهم عشاق حقيقيون ، يأتون إليها بهدايا ، يكتبون الخطابات ، يمسكون بيدها ، يضغطونها في وجد ، ولا يطيق سماع اسم نبيل ؟ منذ أن رآه مرة داخله إحساس غريب ، رأى ثمة شبها خفيا بين امرأته ونبيل ، كأنه شقيقها ، طريقة همسة لها أرعبته ، نظراتها إليه ، إنها تخشى مجيء نبيل الآن ، عرفت آثار الطلسم بنفسها ، عجز فحول بين احضانها خبرتهم منذ سنوات ، عجز غامض ، يقيم سدا بين جسدين أوشكا على اتحاد ، التكرلي لا يستوضحها الآن عما تفكر فيه ، اعتاد صمتها الطويل ، ثبات عينيها مدة من الزمن على نقطة ما في الحجرة ، الآن تقرر المخاطرة ، ستذهب إليه ، يقيم في المدينة الجامعية ، أي مبنى ؟ أي حجرة ؟ هذا ما تجهله ، لن تيأس من العثور عليه ، ستقول إنها شقيقته من البلدة ، لا بد أن تمنعه من الحضور ، التكرلي يقبلها الآن ، تقوم لتودعه ، منذ عامين تصادف نزول أو سهير من فوق السطح تحمل سجادة قديمة نشرتها ليلة كاملة في الهواء ، رأتها ، صاحت « يا صباح الجمال والهنا والفل المندى على العرائس » ، أبدت اكرام خجلا مصحوبا باحمرار الوجنات ، في نفس اليوم قامت أم سهير بعدة زيارات لتقول إنها رأت بعينيها التكرلي يقبل امرأته ، علقت الست بثينة قائلة ، هذه عادات الذوات ، أما فم ندة فعامت في عينيها نظرة حالمة ، قالت إنها مناسبات لبعضهما تماما ، أشارت

الست بثينة إلى بعض أقاربها الأغنياء ساكنى القصور الفاخرة بالزمالك ، أثناء إحدى زياراتها لهم فوجئت بشاب من أقاربها يقبلها ، قبلة خفيفة لم تترك أثرا ، أضطربت ، كيف تتصرف ؟ لكن الشاب ابتعد وكأن شيئاً لم يحدث ، فيما بعد قالت أم سهير لفريدة إن ما روته بثينة كذب ، لابد أن هذا الشاب أحد العيال الضائعين الذين تبقوا من ميراث علاقاتها القديمة برواد المراقص والكباريهات وقت عملها راقصة ، أما الست خديجة الصعيدية فقالت إن زوجها لم يقبلها أبداً ، يحدث أحيانا أن يقرب فمه من وجنتها ويمد شفتيه إلى الأمام محدثا صوتا شبيها بالطرقعة مستخدما لسانه وليس شفتيه فهل هى القبلة ؟

يدرك التكرلى ضرورة التزام الحذر ، كل من فى الزعفرانى عنده بلواه ، لكن العيون ستتسع أكثر ، يكفى أن يطلع الزعفرانيون على جانب من حياته ليلوكوا سيرته عشر سنوات كاملة ، يتوقف فجأة عند مدخل البيت ، عويس الفران يجيء من ناحية بيت الشيخ يقف فى منتصف الحارة تماما ، يباعد ما بين ساقيه ، يضع يديه كالبوق أمام فمه . .

يا أهالى الزعفرانى . .

يا أهالى الزعفرانى . .

الداطورى :

ما قاله عويس لم يتردد بين الزعفرانيين فقط ، إنما تداوله رواد مقهى الداطورى ، بل إن مضمون النداء نوقش فى مقاه أخرى بنفس المنطقة كمقهى السلام ، ومقهى صالح صفيحة ، ومقهى عمر برواز ، والأخير بعيد نسبيا عن الزعفرانى ، وهذا يدل على إتساع الموضوع ، فى نهاية الليل سمع عن شاب من سكان بيت القاضى يدرس بكلية الاداب ، قسم الصحافة الحرة ، أبدى اهتماما

وقال إنه سيعرض الأمر على رئيس تحرير الجريدة التى يتمرن بها لأن الموضوع « خبطة » ، بعض رواد مقهى الداطورى ناقشوا ما سمعوا عنه بسخرية ، لكن ما أذاعه عويس حد قليلا من الجو الساخر ، دب ذعر حقيقى بين الرجال الساكنين فى الحوارى المجاورة ، المعلم الداطورى لا يجيب على أى تساؤل ، إنه جامد الوجه الآن ، لا يبدو عليه أى انفعال ، لكنه مصغ تماما إلى ما يقال ، كثيراً ما أصغى إلى أحاديث تدور بين الزبائن العابرين أو كما يعرفون بين أصحاب المقاهى بالزبائن « النقالى » ، ربما يبدأ الاصغاء من منتصف الحديث ، يظل جامد الملامح ، يعمل فكره بسرعة محاولا ربط أوصال الكلام ، سمعه حاد بحيث لو أراد الاصغاء إلى حوار بين اثنين فى قلب الضجة لما فاته حرف ، مرة جاء الحاج عبد المؤمن الساعاتى وهو من أحباب الحسين ، اشترى من الحجاز سماعة طبية مخفاة بمهارة فى ذراع نظارته الطبية ، لا يتدلى منها سلك ، أبدى الداطورى اهتماما ، وجه عدة أسئلة ، استفسر عن إمكانية التركيز على صوت معين من بين عدة أصوات ، قال الحاج إن هذا لا يمكن فالسماعة تكبر له الأصوات مرة واحدة بدون تمييز هذا أو ذاك ، انتهى حماس الداطورى وهو يحمد الله على نعمتى السمع والبصر ، الآن يسمع أقوال عويس مروية بألسنة أغراب ، بعضهم يتساءل عن شخصية عويس ، يقول آخر إنه ضائع بلا أهل ، خالفه آخر قائلا إن الشيخ بعده منذ زمن بعيد هذه المهمة ، تساءل رجل معهم ، هل يحفظ هذا الأمى ما يقوله الشيخ ؟ أكد شاب إن أحسن من يعى ما يروى له هو الأمى لحدة ذاكرته ، والدليل هؤلاء الفلاحون الذين يجرون أدق الحسابات على أصابعهم ولا يخطئون ، نفخ الداطورى دخانا كثيفا ، ضيق يحل به ، حارته التى عاش عمره بها ، التى ولد بها ، التى يحبها ، التى يقول عنها إن كل بلاطة وحجر فيها أخذ من جسمه قطعة ومن عمره مقدارا ، الحارة التى يشعر بالغيرة عليها لمجرد دخول ساكن مزعج ، أو مرور بائع قليل الحياء ، يشير إلى تراب الزعفرانى قائلا إنه فيتامين يغذى دمه ، لن يفارقها أبدا ، هل ذهبت أيام الزعفرانى الحلوة ؟ ذهاب الرجال

جماعة لصلاة الفجر في الحسين ، سهراتهم الليلية ، بالحسرة ، الزعفراني مضغة في أفواه الناس ، زبائن مقهاه والمقاهي الأخرى ، ربما تخوض الصحف في الأمر ، ربما تناقل العالم ما يجرى ، تتعرى الزعفراني ، يضيع الستر ، يقول زبون إن الشيخ سوف يكشف فضائح فظيعة تمس بعض الذين تحركوا ضده ، يتساءل آخر ، هل يصله ما يجرى بين الناس ؟ يضحك جندى بوليس معلنا انتظاره لتلك الفضائح ، يسكت فجأة ، من يدرى ، ربما مس الطلسم من يسخرون أو يتقولون على الشيخ ، ثمة موضوع آخر لفت انتباه المقهى ، أثير بين جميع من خاضوا فيما جرى ، إنه التنبيه الغريب الذى كرره عويس سبع مرات ، وهو ضرورة التزام الزعفرانيين بالنظام الجديد الخاص بنومهم في الثامنة مساء وعدم مغادرة الحارة إلا بعد السابعة صباحا ، إن ثقلا يهبط متمهلا داخل الداطورى ، مالا يعلمه الزبائن والأغراب أن خيرة الأهالى ذهبوا إلى عويس الفران حوالى الرابعة بعد الظهر ، رجوه أن يطلب من الشيخ العدول عن هذا القرار ، ستتعطل مصالحهم ، طاحون يقود قطار الصعيد الليلي منذ عشرين عاما ، يستلزم هذا مغادرة الحارة في الثامنة ونصف وعدم التزامه بالتعليمات يؤدى إلى قطع عيشه ، أما حسن أفندى فتمنى استثناء ولديه حسان وسمير لسهر كل منهما حتى ساعة متأخرة وعندما يبلغ مولاهما الشيخ عظمة جدهما واجتهادهما سيباركهما و يسمح لهما بالسهر ، بالنسبة له شخصيا ولامرأته فيلتزمان بتنفيذ كل حرف قاله مولاهما ، وتمنى الأسطى عبده استثناء امرأته لتعودها السهر ، وهو يضطر إلى التأخير بسبب عمله سائقا على التاكسى بعد انتهائه من عمله الرسمي بمؤسسة النقل العام ، وشرح على المكوجي حاله مشيرا إلى الزبائن الذين يطالبون باستلام ملابسهم في نفس الليلة لذهابهم إلى أعمالهم مبكرين ، ولقلة ما يملكونه من ثياب ، قال إنه لن يستريح حقيقة إلا إذا هاجر إلى الهند لكن حتى يتم ذلك يرجو استثناءه ، أصغى عويس متأدبا ، وعدهم بنقل ما قالوه بأمانة ، يبدو أن طاحون لم يثق تماما في قدرة عويس على نقل الكلام ، طلب منه إعادته ، هنا أكد عويس خفاء إنه لن

يغفل كلمة واحدة ، ترددوا قليلا ثم تراجعوا عن حجرته ، عند الباب صادفوا رمانة السياسى ، قال الأسطى عبده ، ليتك بقيت في السجن ، رد رمانة إنه لا يصدق ما قيل ، وهذا عبث مؤكد من مخرف يحاول فرض إرادته على الزعفرانى بالنصب ، هنا امتدت يد حسن أنور ، غمز بعينيه في اتجاه غرفة عويس .. لا داعى .. لا داعى ، بأسى يستعيد الداطورى ما جرى ، يصغى إلى ما يقال حوله ، هل هانت الزعفرانى إلى هذا الحد ؟

رأس الفجلة :

قال إنه نسى نفسه فى المخزن ، طلب من عويس إبلاغ الشيخ ندمه بسبب تأخره عن الميعاد المحدد لتواجد الأهالى فى بيوتهم ، وعد بالتزامه منذ الغد ، سيغلق أبوب دكانه مبكرا برغم ما يسببه هذا من خسائر مادية لفقده زبائن آخر الليل ، كثير من أرباب الأسر يمرون عليه أثناء عودتهم من أعمالهم و يشترون عشاء لأطفالهم جبنا وحلاوة طحينية أو بيضا و بسطرمة ، من ملامح الأب يمكن له أن يعرف أحواله المادية وكم تبقى فى جيبه ، تلك النظرات المرتعشة الزائغة إلى البضاعة ، أى طعام يأخذ وأى نوع يستغنى عنه ؟ الآن ترمق فريدة صينية البسبوسة التى يحضرها معه لأول مرة منذ وقت طويل ، تتساءل ، هل هذه بسبب تعليمات الشيخ أيضاً ، قال إنه اشتراها من الخضرى ، الحلوانى المشهور الذى يستخدم السمن البلدى الحقيقى ، يحشو البقلاوة والكنافة بالبندق واللوز ، تحمل الصينية فوق أصابع يدها المضمومة ، تميلها شمالا ويمينا ، تستفسر عن سبب غيبته بالمخزن ، يقول باختصار إنه قلب بعض الأشياء ، لم تصر على معرفة ما فعله بالمخزن ، توقن بعدم جدوى الإجابة ، سألته كثيراً عن محتويات المخزن ، راوغها ، كل ما يشتريه من المزادات يذهب به مباشرة إلى المخزن ، مرة واحدة فقط بعد ولادة ابنتها نشوى بشهور عاد متأخراً فى أحدى الليالى يحمل مجموعة صور ، تذكر عينيه المتعبتين ، وضع الصورة فوق السجادة ، لاحظت غبارا كثيفا يغطيها ،

طلبت نقلها إلى الصالة حتى لا تتسخ المفروشات ، خرج تتبعه فريدة ، فك حزاما جلديا يربط الصور ، لم يتناول الشاى ، لم يغسل وجهه ، تناول الاطارات واحداً ، واحدا ، بكم جلبابه يمسح الغبار العالق بالزجاج ، تذكر بعضها ، مناظر ملتقطة لميناء بحرى صغير ترسو به مجموعة سفن طوت أشرعتها ، شارع ضيق يلمع المطر فوق أرضه ، ما توقف أمامه طويلا صورة امرأة مستديرة الوجه واسعة العينين ، ابتسامة خفيفة تعلق بشفتيها ، خلفها رجل كثيف الشارب ، أصابع يده محيطة بكتفها الأيسر ، وجهها شبيه بوجوه الممثلات اللواتى رأتهن فى أفلام محمد عبد الوهاب القديمة ، أما الرجل فلم تدر ، أهو مصرى أم أجنبى ؟ ، مصمص رأس الفجلة بشفتيه ، عرض الصورة ، مر بأصابعه على توقيع سريع مطبوع أسفلها ، أبدى أسى ، سألته ، هل يعرفها ؟ قال إنه لا يدرى ملتها والصورة عمرها عشرات السنين ولابد أنها عظام نخرة الآن . فجأة انحنى ممسكا بالصورة . قال إنها عروسان ، رأت مجموعة من ورود بيضاء تلاصق صدر المرأة ، لاحظت قفازا أبيض طويلا محزما يغطى يديها ، عند مفرق صدرها فوق الفستان بروش دقيق الصنع ، يومها تأملت رأس الفجلة ، ودت لو جرت وأحضرت دلوا مملوءا بالماء لتسكبه فوق هذه الصور ، لكن الاهتمام الشديد بما بين يديه والذى لا يقل عن اهتمامه بالنقود التى يسكبها فى طشت الغسيل ثم يعاود رصها من جديد أوقفها عن العبث ، انصرفت ، قامت ، استيقظت بعد فترة لم تجده بجوارها ، الصالة مضاءة ، رأس الفجلة يجلس فى الركن القصى واضعا صورة الرجل والمرأة فى مواجهته ، تابعته دقائق ، قام ، وضع الصورة مكان جلوسه ، انتقل إلى الطرف الآخر ، لوحت بيدها ساخطة ، عادت إلى فراشها ، تتخيله داخل المخزن يتأمل الأشياء القديمة التى يلتقطها من فوق عربة يد ، أو دكان تحف ، أو مزاد ، إن رأس الفجلة يجلس الآن ناظرا إلى الأمام ، يخشى مواجهتها بعينيه ، لو آوى إلى الفراش ربما اضطر إلى المحاولة ، يفكر فى الليالى المقبلة ، هل ستتحمل فريدة الأمر ؟ خاصة أن ما يفعله الطلسم للنساء غير واضح ، صحيح أن أيا منهن

لو نامت مع أى رجل سيلحقه الطلسم عدا امرأة واحدة ، لكن هل تبقى الرغبة لدى المطلسمات ؟ ماذا يعنى قلق فريدة الليلة الماضية وتظاهرها بالنوم ؟ ربما انزلقت إلى أحضان آخر ، قد لا يقدر رجل على الاندفاع بجسمه عبر جسمها ، لكنها ستتعرى ، ثمة خاطر غريب يلح عليه الآن . من الرجل الذى سيراها عارية ؟ تتمرغ فى أحضانه ، تعض صدره ، من هو ؟ أين تدب قدماه الآن ؟ ما حجم عضوه ؟ فى طفولته تساءل عن الفتاة التى سيتزوجها ؟ أين هى الآن ؟ ما اسمها ؟ ما هى ملامحها ؟ بعد اقترانه بفريدة يفكر ، أين لعبت نهار الجمعة الذى اتم فيه الثامنة عشرة ولم يكن رآها بعد ؟ أين موقع هذا اليوم بين الأيام ؟ هل هو اربعاء ، أم أحد ، أم . . . يشق من تفكيرها الليلة فى أمر محدد . الشخص الذى مازال مكتمل الرجولة بالزعفرانى ؟ بعض الزبائن تحدثوا عن الموضوع ، تشاغل عنهم بأن أعطى ظهره لهم ، راح يتناول بعض المعلبات من فوق الرفوف ، تدفعه فريدة فى صدره ، مالك ؟ يبدو فى عينيها أكثر ضآلة من أى ليلة أخرى ، ملموم على نفسه كأنه يخشى مباغتة غامضة ، يشير إلى صينية البسبوسة ، تضم شفتيها ، خيط رفيع من ماء مثلج يسرى فى ظهره ، يود لو يسرع الآن إلى مخزنه ، يضىء النور الداخلى ، يجلس أمام مجموعة الثياب القديمة ، أول الليل قضى وقتا أمام حلة تشريفة سوداء كاملة يتدلى منها سيف قصير ، مقبضه مزركش ، رسم فى ذهنه صورة لهذا الباشا المجهول ، تخيله يقترب من زوجته وقورا وكأنه سيلقى بيانا أمام مجلس الشيوخ ، يخلع الطربوش فيبدو رأسه أصلع ، يفك ازرار البدلة ، يتجرد عاريا ، حاول تخيل نشوة الجنس على وجه الباشا الوقور صاحب هذه الحلة ، تبدأ فريدة عبثها الذى يخشاه ، تدفع أصابعها بين ضلوعه ، عيب يافريدة . . عيب يافريدة . . . تكف فجأة ، تجلس مواجهة له ، اتزان مفاجىء يكسو وجهها ، يعذبه صمتها ، تساءل عن أخبار الزعفرانى ؟ لهجته خافتة ، ترى انكساره ، قالت إن عويس زعق معلنا رفض الشيخ لما تقدم به طاحون وحسن أنور والأسطى عبده ، قال إن للزعفرانى قانونا خاصا وناموسا غير كل النواميس ، يبدى رأس

الفجلة اهتماما ، يطالبها بتذكر الأقوال جيدا ، تقول إنها لم تنس حرفا لأنه كرر ثلاث مرات ، الحارة كلها أطلت ، رجالها ، حريمها ، أطفالها ، لم يسمع صراخ ابن يومين فيها عدا عويس ، ذكر اسم التكرلى معلنا نية الشيخ فى كشف سيرته خلال يومين ، أم سهير قالت إن لعنة الشيخ ستلحق التكرلى وامرأته بسبب ما جرى ، إذ سرت اشاعات عند الظهر تقول بقدوم التكرلى من ناحية ميدان الحسين بصحبة أحد مهندسى مصلحة التنظيم وبعض العمال ، يقصدون البيت رقم ١١ ، بالزعفرانى للكشف عليه ، حيث بلغهم إنه آيل للسقوط وبالتالى لابد من اخلائه ونقل سكانه إلى إحدى المناطق الجديدة كالمطرية أو مدينة نصر .

يقول رأس الفجلة مقاطعا ، إن بركة الشيخ تمنع البيت من الانهيار ، لفظ هذا بصوت عال آملا وصوله بطريقة ما إلى الشيخ ، فى الوقت نفسه يدق قلبه ، تلهف على سماع الأخبار من فريدة متمنيا فى سره نجاح التكرلى . . ، تقول فريدة إن ثلاثة رجال ليسوا من الزعفرانى ظهروا أمام مقهى الداطورى ، قالوا للمهندس والعمال إن أى رجل سيطأ الحارة ستفارقه ذكورته ، لم يبد المهندس اهتماما لمعرفته بحيل أصحاب البيوت ، تلك أحدث حيلة ، أحد الواقفين قال إن أصحاب البيت يقيمون فى مكان بعيد ولا يهمهم البيت فى شيء لأن دخله جنيه واحد ، إيجار غرفة زنوبة المطلقة ، أما حجرة الشيخ فلا يدفع عنها مليما ، برغم هذا أصر المهندس على المضى متشجعا بما يقوله التكرلى عن نصب أصحاب البيوت ، أبدى العمال خوفا ، ذكره أحدهم بما جرى لزميل لهم عند الشروع فى هدم مقام سيدى الحلوجى أثناء توسيع ميدان الحسين ، بمجرد رفع يده بالمعول جمدت ، شلت ، حدث هذا أمام مقام ولى مات منذ زمن ، فمن يدرى ماذا سيجرى وهذا الشيخ حى يرزق ؟ أثناء هذا تجمع عدد كبير من المارة ، لا يدرى أحد من أين وصلتهم التفاصيل الدقيقة بما جرى ، ارتبك المهندس ، نظر إلى خاتم الخطبة فى أصبع يده اليمنى ، قال للتكرلى إنه لابد من إخطار الرئاسة

العليا للمصلحة ، ثار التكرلى ، كيف يصدق مهندس تلقى تعليمه فى أوروبا مثل هذه الخرافات ؟ ، قال إن العمال يرفضون ، أخرج التكرلى جنيها لوح به أمامهم لكنهم أشاحوا بوجوههم . صاح أحد المارة فى وجه التكرلى إنه من الحرام دفع هؤلاء الأبرياء ليفقدوا رجولتهم فى الزعفرانى ، سمع صوت عال يقول ، لابد أن الأفندى ليس رجلا ، زعق التكرلى للمهندس مهددا بنقل ما جرى للمدير شخصيا ، لكن المهندس مط شفتيه ، قال إنه سيطلب إرسال شخص آخر ، ثم إن التقارير السابقة لا تذكر أى خلل بالبيت ، وأنه تحرك بناء على تعليمات شخصية من أحد المديرين وهذا يثير الشك ، فى لحظات وجد التكرلى نفسه وحيدا ، حتى المارة ابتعدوا وكأن رؤية زعفرانى واحد كفيلة بافقادهم رجولتهم ، أما الأغراب الثلاثة الذين ظهروا فى البداية فلم يقف لهم أحد على أثر ، أكد على المكوجى أنهم هنود،أعلنت أم سهير وضوح كرامة الشيخ ، يهز رأس الفجلة دماغه موافقا و يضمر أسفا لفشل التكرلى ، يسأل عن أخبار الحارة الأخرى ؟ تقول فريدة إن بثينة تشاجرت مع الست زنوبة المطلقة لكنها خناقة قصيرة اكتفت خلالها بثينة بوصف زنوبة بالضائعة ، بكت زنوبة بحرقة مما أثار شفقة الناس عليها ، ولم تعرف أسباب الخلاف بعد ، بائع فجل دخل الحارة وعندما قالوا له عن الطلسم خرج يجرى ، حوالى الثالثة ظهر ثلاث نساء يرتدين السواد ، سألن عن شخص اسمه فرج ، لم يدلهن أحد ، ساعى البوستة لم يدخل الزعفرانى ، أدى هذا إلى حيرة البنان وامرأته ، تساندا ودارا على البيوت ، يسألان ، ألم ير أحد ساعى البريد ؟ قالا لفريدة إنه يهمل أحيانا فيرمى الرسائل أمام أى بيت معتمدا على معرفة الزعفرانيين لبعضهم ، نفت فريدة استلامها أى خطابات ، نزل البنان يتأبط ذراع امرأته .

تسكت فريدة فجأة ، يود لو عادت إلى الكلام ، إلى عبثها حتى ، يحيره ملامحها التى صمتت تماما كصور الأشخاص فى مخزنه ، لا يدرى كيف

ستتصرف ؟ يأمل فى بركة الشيخ ، لابد أنه سيراعى الذين أطاعوه ولم يعصوه ، سيفضلهم على غيرهم ، لابد أن يشغل فريدة بأى شىء حتى لا يصيب الكساح نظراته عندما تلتقى بعينيها ، يقوم إلى الدولاب الحديدى المحفور فى الجدار ، يعالج أقفاله ، يخرج حقيبة سوداء ، على مهل يخرج رزم الأوراق المالية ، من قبل وضع نفس المبلغ فى مظروف صغير ، بعد صدور قرار الغاء الأوراق فئة المائة جنيه انتابه غم شديد ، كلفه هذا شراء حقيبة الجلد لتتسع لنفس المبلغ الذى حواه المظروف ، الغريب أنه احتفظ بورقة واحدة فئة المائة جنيه مع وعيه التام بعدم قيمتها ، لديه مجموعات من النقود المستخدمة فى القرن الماضى ، يفك الآن الرزم متمهلا ، يبلل طرف أصبعه ، يبدأ العد . يعدل وضع ورقة مقلوبة ، يلحظ فريدة بطرف عينيه ، لا تقوم كعادتها ، لم تخطف ورقة مالية ، تخبئها فى صدرها ، يجاهد حتى ينتزعها منها ، لو خطفت منه الآن عشر ورقات فلن يحاول استردادها يخطر له أن يعطيها عشرين جنيهاً . يفضل الانتظار حتى تطلب ، يفتح الباب ، تدخل نشوى ابنته ، يغلق الحقيبة بسرعة ، إنه لا يتبادل العبارات الرقيقة مع ابنتيه ، يوقن أنهما لا تحترمانه ، تقترب نشوى ، أن الكثيرين يتنبأون بصعوبة الامتحان وهى ضعيفة فى اللغة الانجليزية ، لهذا ترجو من أمها اعطاءها نقودا لأن الأستاذ عاكف مدرس اللغة الانجليزية قرر تشكيل مجموعة يدرس لها فى وقت إضافى بعد انتهاء الدروس ، ويمكن أن تأتى أمها بنفسها لتتأكد من مواعيد الدروس ، بالطبع المقصود بهذا رأس الفجلة ، لكن البنتين اعتادتا ألا توجهان إليه الحديث ، كل احتياجاتها يطلبانها من أمهما فى حضوره ، يسبب هذا ضيقا له ، أبدى لفريدة لوما لأنها أوقعت الجفوة بينه وبين البنات ، تجيبه عابثة ، تقفز فوق كتفيه ، تداعب رأسه ، إنه ينظر الآن إلى فريدة ، يسألها عما تحتاج إليه هذه الدروس ؟ تقول نشوى مخاطبة أمها ، المجموعة تحتاج خمسة جنيهات شهريا ، يسحب ورقة مالية من الحقيبة ، يمدها إلى فريدة قائلا ، هذه عشرة جنيهات لدفع نقود المجموعة ولشراء فساتين بالمتبقى ، بآلية تتناول فريدة النقود ، تعطيها لنشوى

التى تقوم ، ربنا يخليكى ياماما ، تقول فريدة إنها ستذهب بنفسها إلى المدرسة لتدفع النقود ، جرت العادة أن تذهب إلى المدرسة لتنهى كافة ما يتعلق بالبنين ، منذ سنوات عادت نشوى باكية ، قالت إن رأس الفجلة ذهب إلى الناظر وتشاجر بسبب ربع جنيه قيمة طوابع تمغة حصلتها المدرسة وطالب باسترداده ، سخر منها المدرسون أما زميلاتها فعايرنها برأس أبيها ولعابه السائل ، طلبت ألا يحضر مرة أخرى وإلا فلن تذهب ، استجاب إلى فريدة منذ هذا اليوم ، إنه يحتضن حقيبته ، يقول إنه تقدم إلى مصلحة التليفونات لتركيب تليفون ، تبدى فريدة لا مبالاة مع إنها لم تتعود المفاجآت منه ، ومن قبل الحت عليه عندما أدخل حسن أفندى تليفونا لكنه لم يستجب ، تستمر صامتة ، تبقى صينية البسبوسة فوق المنضدة لم تمس . . .

عويس :

تشك الست بثينة أن عويس القران هو المستثنى من الطلسمة ، جمعت القرائن ومنها قربه من الشيخ ، وفحولته الواضحة ، قررت محاوله الاتصال به خفية ، إذا فشلت فلن تعبأ لو ذهبت فى عين النهار ، إنتابها ندم لأنها لم تقم معه صلة متينة أثناء تردده على بيتها ليشيل العجين ، تذكر مسرورة اعطاءه رغيفا وقرشا . لم تكرمه امرأة مثلها ، خديجة الصعيدية تحصى الأرغفة مرات ، أم يوسف كثيراً ما تصيح أن العدد ناقص ، هى لم تضايقه أبدا ، يجب ألا تضيع وقتها قبل أن تسبقها أخرى ، أى منهن لا تجيد ما تتقنه هى ، أذابت عددا من الرجال بين أحضانها ، ربما يثير زواجها للأسطى عبده تساؤلا ، كيف يشبعها قصير القامة الذى يمشى مسرعا وكأنه على وشك تلقى صفعة مفاجئة ، لكنهم لا يدرون سره وقدرته على الثبات لمدة ساعتين بين أحضانها ، لم يقصر فى واجبه لكن الطلسم أحاله إلى وسادة لا فائدة منها ، يجب ألا يفلت عويس . . نفس الفكرة طافت

بأم يوسف ، حاولت اليوم لفت نظره ، مهدت من قبل عندما اتهمته بقصر النظر لاحتضانه كريمة وتسببها فى طرده من الفرن ، لم يأت ، لكنها لن تعدم وسيلة ، فى الليل ترى صدر عويس العريض من خلال الجلباب البلدى ، نفور عضلاته عندما يرفع طاولات العجين ، يسرى خدر فى أوصالها ، عويس كما هو ، لم تنخفض رقبته بين كتفيه كزوجها ، بالعكس تنفر حنجرته قوية إذ ينادى الزعفرانى .

الحقيقة أن عويس لم ينتبه إليها ، أو إلى غيرها ، إنه يأوى إلى غرفته ، يبقى مفتوح العينين ناظراً إلى السقف المائل الذى يستخدم كسلم البيت ، يفاجئه رعب ، يتذكر مجىء صوت الشيخ من كل موضع ، يصدر من أعلى ، من أسفل ، من السقف ، من البلاط ، يجد نفسه فى موقف جديد عليه تماماً ، تعود أن يرجو الآخرين ، ألا يطلبوا منه ، نفس الشعور الذى راوده عندما خلا إلى الأفنديه المحترمين ، يضاجعهم و يعاملهم باحترام شديد وعندما طلب أحدهم منه أن يضربه ، أن يشتمه ، فعل هذا وهوينفذ أمراً ، الزعفرانيون يظنونه مبتهجا بما أسند إليه لكنه يخاف ارتباطه به ، لو أخطأ بدون قصد ، أى عقاب سيحل به ؟ فى صباه سمع عن شيخ أوتى قدرة على تحويل الإنسان إلى حجر ، أو صورة حيوان ، أعتاد البعض ألا يتعرضوا للقطط والكلاب السوداء ، ربما تحوى أرواحا آدمية مسخ أصحابها إلى الحيوانات ، يخشى الوقوع فى الخطأ برغم عدم إدراكه نوعية الخطأ الذى قد يقع فيه ، يشعر دائما بانه مراقب ، حتى أحلامه لا تغيب عن الشيخ ، بالأمس رأى فى نومه أنه يتقدم ، ينتزع الستارة ، يميل على عنق الشيخ المضغوط بين كتفيه غير أن الوجه غريب الملامح حيث الطفولة والشيخوخة فى نفس الوقت يرنوان إليه بثبات ساخر ، قام مفزوعا ، خيل له وجود شخص آخر فى الحجرة ، سمع أنفاسا ، رأى ظلا ، كيف يواجه الشيخ بعد الحلم ؟ أيضا لم يعتد البقاء فى مكان واحد ضيق ، فى البلدة يتنقل بين الحقول ، ينام على

ضفاف الترعة ، يخوض فى حقول الذرة ، يرحل إلى الأسواق ، إلى الكفور ، يلتقط رزقه من هنا أو هناك ، الآن تبدو قريته بعيدة . طفولته نائية ، تنقله فوق أسطح البيوت المكدسة بالقش والحطب ، صوامع القمح والدوم ، هكذا ينتقل نساء القرية حتى لا يظهرن أمام الغرباء فى الطرقات ، جلوسه فوق عجلة الساقية يرقب تدفق المياه من القواديس ورائحة الفول الأخضر تملأ أنفه ، فى طفولته رأى بئر الساقية عميقة جداً ، عندما كبر جلس فوق العجلة ذاتها ، رأى البئر صغيرة جدا ، نفس ما أحسه عندما زار بيت خاله فى الطليحات بعد غيبة سنوات ، رأى فناءه ضيقا ، جدرانه منخفضة ، كل شىء كان يبدو كبيرا ، لانهائيا فى صباه صغر ، تضاءل ، يتحسر على طفولته حيث الحواجز منفية ، دخول أى بيت مباح ، الخطأ لا يلقى حسابا ، أيام بعيدة ضاعت كأغانى الجمالة الذين انتظرهم كثيراً فوق الجسر ، ينشدون بأسى ، « ياجاى من المزاته ، قل لى الطريق منين ، أنا بدى أروح مزاته ، وقرشينى قليلين .. وقرشينى قليلين .. » يبدأ غناؤهم فجأة ، ينتهى فجأة ، لا يقدر على متابعتهم جريا ، حتى مقهى المعلم ابن الغيط لا يستطيع الذهاب إليه ، طلب منه الشيخ ألا يغادر الحارة أبدا ، منذ أسبوعين ذهب إليه ، رآه شاحبا ، لم يجبه ، أخبره أحد القادمين أن بيت جدته نجمة تهدم واشتراه أحد البناة انقاضا ، بكى المعلم دما ، قال إن صباه موزع على طوب البيت ، أصغى فيه إلى حكايات الجن والعفاريت . قطعة من عمره تهدمت ، ابتعد عويس ، لا يعجب من أحوال المعلم الآن ، إنه لا يمتلك بيتا ولا جذع نخلة لكن حنينه إلى البلدة يكويه . ما أبعدها الآن ، يخشى غضب الشيخ أكثر من أى زعفرانى ، ربما أخطأ خطأ غير مقصود ، ربما لحقه تحول غامض بسبب ما يجرى حوله ، صباح اليوم لحظ عينى أم يوسف ، لولمح فيهما نفس النظرات أيام ترددته عليها ليحمل العجين لقادت فيه نارا كاوية ، ربما بيت الشيخ فى طريقه المغريات ليمتحن صبره وإخلاصه ؟ يعاوده أمله فى امتلاك عربة ، ربما كافأه الشيخ بواحدة ، يتخيل أياما حلوة قادمة ، ينطلق عبر الحوارى ، يبيع الدندورة أو

حمص الشام ، يخرج عويس من غرفته الآن ، يحاول اقصاء البلدة والعربة وأم يوسف حتى يصفو ذهنه ليستوعب ما يقوله الشيخ ، الحارة ساكنة طبقاً للتعاليم الجديدة ، لا يمكن لسكانها الاستيقاظ قبل السابعة صباحاً ، يخشى تأخره فى النوم ، لو قام بهذه المهمة بعد عمله فى الفرن لبدا الأمر سهلا ، لكن فترة الحمام أبدلت نظامه ، ربما يرقبه بعض الأهالى من خلف النوافذ ، يسمع خطوات خلفه ، إنه الوهم ، لا أحد ، باب الغرفة مفتوح ، يلقى السلام ، يعلو صوت الشيخ كأنه ينبع من داخل أذنيه ، كأنه الهاتف الذى ينادى الإنسان ولا يراه ، يطلب منه الانتباه فما سيقصه طويل .

* * *

« ملف ٣ »

يضم بعض المشاجرات التى وقعت بالزعفرانى . وأحداثا ، ومذكرات

المشاجرة الأولى :

حوالى الساعة العاشرة صباحاً توجه التكرلى إلى عويس . بمجرد ظهوره أطل عدد من الأهالى مما سبب له حرجا ، ومن شرفتها أعلنت أم سهير إنها لم ترتح فى أى يوم من الأيام لهذا التكرلى ، زواره أثاروا شكوكها ومما أكدها اقتصار امرأته مع أن النبى أوصى على سابع جار ، منذ سنة طلعت سهير لتقترض منها كوب زيت ، عادت قبل أن تطرق الباب ، قالت إن قلبها انقبض ، سهير بكر طاهرة أحست بالدنس ، لم تلوث يدها بمصافحة العاهرة ، قالت إن مثيلات امرأة التكرلى يبدين الخجل كأنهن لم يبلغن ، لكن يحدث ظهور حركة معينة ربما اهتزازة يد ، رجفة رمش ، عندئذ يبدو العهر كاملا ، حمدت الله لأن التكرلى لم يساعد ابن اختها عندما رجته الحاقه بأحد مراكز التدريب المهنى ، لو كلم أحد معارفه ربما أوذى الولد فيما بعد ، الست بثينة تحدثت إلى أم نبيلة فى نفس الموضوع .

يتقدم التكرلى من عويس ، يلوح بأصبعه ، ما قاله اليوم سيحاسب عليه ، يمد يده ممسكا بياقته ، يصيح بعض الأطفال « التكرلى يضرب عويس » ، بعض النساء أرسلن أولادهن لتتبع ما يجرى ، اتقنوا ما عهد إليهم ، وصلوا درجات السلم الأولى بدون أن يلحظهم التكرلى ، إن صياحهم يثير عددا من السكان ، ينزل الصول سلام تتبعه امرأته ، يزعق « قف عندك يا أفندى انت » ، يطل الأسطى رمانة ، يتقدم ليخلص عويس . يعلن الصول سلام أن هذا لا يجوز ، يبلغ وجه التكرلى درجة من الاحمرار يخيل معها للواقفين أنه سينفجر ، يصيح بلهجة اقرب إلى الفصحى متعجبا من دفاعهم عن هذا الضائع مما يشير إلى احتمال تآمرهم معه ، تهتز قامة الصول سلام ، يطلب من التكرلى النظر إلى

الواقف أمامه جيداً ، يزعق بصوت مرتفع يتناقض تماما مع هزاله البادى « هل تعرف إلى من تتكلم ؟ » لم يجب التكرلى ، يعلن سلام أنه جندى قديم من رجال الملك ، هل يعرف التكرلى معنى هذا ؟ يحاول الأسطى رمانة اخفاء ابتسامة بينما تهتز روحه إذ يوشك على سماع أحد ملامح الواقع القديم ، سيتطرق الصول إلى تاريخ خدمته الطويلة بالسراى ، عمله كحرس خاص لاحدى البرنسيسات فترة من الزمن ، ثم استقراره طباخا بالقصور الملكية ، يسافر مع الملك فى رحلاته الخارجية والداخلية ، يتذوق الطعام قبله .

بعض النساء يصلن ، تشير زنوبة المطلقة إلى عويس « إنه أشرف من هذا » تمد أصـ[illegible]ا فى اتجاه التكرلى ، تقول زنوبة إنه لم يقدر على الحمار فجاء يحاسب البردعه . تضيق امرأة الصول عينيها ، لا يصح وصف الشيخ هكذا ، يقاطعها التكرلى قائلا إنه سيعرفها حقيقة الساحر اللئيم ، لم يتم كلامه ، الصول وامرأته ، زنوبة ، الأطفال ، كلهم صاحوا فيه ، لم يدرك الأسطى رمانة مضمون احتجاجهم ، يتراجع التكرلى ، لم يواجه مثل هذا العدد من قبل ، يصيح بأنه سيتخذ من الاجراءات ما يدهش الحارة ، يستفز الصول ، يزعق ، « هات ما فى وسعك » ، تتعمد زنوبه أن تسمعه رغبة الحارة فى الخلاص من الدنس ، يزعق الأطفال مشيرين إليه .

الأسطى رمانة يتحسر ، يخيل إليه أن كمينا تلقفه بعد خروجه ، الأمور العادية تبدو فى عينى العائد من فترة اعتقال غريبة ، يحتاج زمناً حتى يعود إليه التوازن مع الحياة اليومية ، ما يتخللها من معاملات ولقاءات واتصالات ، أوضاع الزعفرانى تذهله ، فى البداية لم يصدق ما سمعه لولا مواجهته العجز مباشرة عند ذهابه إلى نبوية التى يعرفها منذ زمن ، ربتت على كتفه بحنان له مذاق الأمومة ، قالت إنها الغيبة الطويلة ، ستجده أفضل فى المرة القادمة ، يوقن بعدم جدواه لو ذهب إليها ثانية ، لا يبدى انزعاجا حتى الآن ، فالأمور لم تتكشف

بعد ، الآن تصل الست بثينة ، يفسح الواقفون لها طريقاً ، علمت أن التكرلي متجه إلى القسم ليحضر جنديا يقتاد عويس ، لهذا فهي تقترح عليه الحضور عندها ، لن تستطيع قوة إيذاءه لأنها تعرف باشجاويش القسم ، سيقلب الدنيا على رأس التكرلي ، يبدو أن أم يوسف سمعت ما قالته الست بثينة ، صاحت من نافذتها القريبة إن عويس في أمان ، وما من مخلوق يجرؤ على إيذائه ، ثم إن الشيخ يحمى الزعفراني كلها ، تهز زنوبة رأسها مؤيدة بينما تغلى بثينة حنقا . .

« تعقيب » :

. . لم يصمت عويس بل استمر حتى العشاء ينقل ما يذيعه الشيخ من تفاصيل تتعلق بالتكرلي ، ونظراً للضجة التي أحدثتها والآثار بعيدة المدى لها ، نورد موجزاً لها :

• حتى الظهيرة علم الزعفرانيون تفاصيل عن حياة التكرلي ، إنه يبلغ تسعة وعشرين عاما ، يتيم الأب منذ الرابعة ، رفضت أمه الزواج من أجله ، قضت زمنا تلبسه فستانا وتسميه سميرة خوفا من الحسد ، حتى السادسة عشرة ظل ينام بجوارها . إذا ذهب إلى دورة المياه ليلا يوقظها لتقف مؤنسة وحدته ، يخجل إذا تحدث إلى انثى أمامها ، لا يجرؤ على النظر إلى امرأة في الطريق ، برغم ذلك فهو قاس جداً ، عندما خرج مع اكرام امرأته زمن خطبتها لاحظت انتزاعه الحشائش بعنف ، دهسه للزهور ، وصفه ملامح الآخرين العابرين بالقبح ، لا يعمر قلم معه أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ، يبدأ بعضه ، يلويه ، لا يستريح إلا إذا كسره ، حياته مع امرأته هادئه بسبب حرصها على تجنب أى مشاجرة ، صوته الناعم يتبدد عند بدء ثورته ، يضرب الأوانى ، يأكل الشظايا الرفيعة ، يتمدد فوق السجادة ، يعض طرفها ، يتخيل نفسه ممسكا بسيخ حديدى

يخترق به النساء المارات في الشوارع ، لم يضاجع امرأته مرة واحدة ، يقدمها إلى رجال من كل نوع .

• في العصر أصغت الزعفراني إلى عويس ، خرج إلى الحارة مرات إضافية ، في البداية قال إن ما يجرى الآن لهو نواة ما سيحدث للدنيا ، وبعد احكام الأمور ستعم الأوضاع ، وتنتشر ، ومن يجهل اليوم سيعرف غداً ، ومن تغيب عنه الحقائق والأحوال غداً سيدرى بعد غد حتى يحل يوم كل إنسان ، كل لسان يلهج بما جرى ، يتعظ ، يستجيب ، وهكذا تتبدل أحوال العالم ، صمت كثيف ساد الحارة ، تحولت الشماتة في عيون الزعفرانيين إلى خوف وحيرة ، أم سهير فكرت بفزع من سيجيء عليه الدور في المرة القادمة ؟ إن الشيخ يعلم كل شيء ، يعيش داخل كل أسرة ، يحصى الأنفاس والحركات والسكنات ، وكما يقول المثل « ما من شجرة إلا وهزتها الريح » ، حار الأهالي ، ربما استيقظ الواحد منهم ليجد أدق تفاصيل حياته منشورة على كل لسان ، ثم ماذا يعنيه الشيخ بالحديث عن العالم ، وتبديل الأحوال ، كم يلزم لهذا من شهور وسنين ؟ يعنى هذا أن الأمر سيطول .

خلال العصر تحدث عويس — نقلا عن الشيخ — عن اكرام ، هى الأخت الصغرى لثلاث بنات يكبرنها ، أثنتان منهن متزوجتان ، أما الثالثة فقد خطبت إلى موظف بشركة طيران ، والأخت الأخيرة متعددة العلاقات وتمارس علاقات جنسيـة كاملة خاصة مع شبان العرب ، بالأمس قابلت خطيبها في السادسة مساء ، وعندما حاول إحاطة خصرها بيده نهرته مع أنها تعرت تماماً في الخامسة وشهقت من اللذة حتى بح صوتها بين يدى شاب بحرانى ، اكرام لم تبذل أى جهد للتعرف بأى شاب ، زاد عزلتها رسوبها ثلاث سنوات متعاقبة وعدم حصولها على الإعدادية ، قلل والداها اهتمامهما بها ، لم تخرج مع شقيقتيها إلا إذا

دعيت ، تأكل مولية وجهها بعيدا ، لا تشعر بفرق بين مذاق طعام وآخر ، لا تختار فستاناً إنما ترتدى ما يشتريانه لها ، لا تثير موضوعاً ، لا تدخل نقاشاً ، هذا ما جذب والدة التكرلى فأقدمت على خطبتها لابنها وكما قالت ، لا يسمع لها حس أو صوت ، وبرغم بقائها عذراء بعد زوجها حتى فضها التكرلى باصبعه فلم تشك لأمها ، تطرق أمام مداعبات شقيقاتها فيضحكن عابثات ، لم تطلب الطلاق ، عندما عرض عليها التكرلى الانفصال احتضنته باكية ، قالت إنه يرضيها أى حاجة ، يكفيها رؤيته وشم أنفاسه أثناء نومه ، لكنها لا ترغب فى العودة إلى أسرتها ، ستصبح خادمة لهم ، ستمسح البلاط ، ستقشر البصل وتنظف دورات المياه ، ولن يدعوها أحد إلى مشاهدة فيلم فى التليفزيون ، أو يسألها أحد الخروج ، معه هى فى بيتها ، بعد قليل بدأ يصحب الرجال ، أول من ضاجعها موظف كبير بمؤسسة الأمانات العامة ، دفع خمسة جنيهات وكيلو كباب وكفتة ، ثم جاء محضر يعمل بالمحاكم ودفع جنيهين ، ثم توالوا ، اختارهم التكرلى بعناية ، حرص ألا يصحب رجلا بكرش لمقتها ذوى الكروش ، ينظر التكرلى إلى الزبون بعينيها ، يتخيل ، هل سيعجبها ؟ لم تبد اعتراضا ، عاشت ندمله ، الحق أنها رقيقة النفس ، إذا رأت شحاذا بكت ، تدمع إذا سمعت حكاية حزينة ، فى باب الخلق رأت عربة شرطة بها نساء مقيدات ، أحزنها ذلك ، بعكس ما تبدو فهى ليست متكبرة ، تود زيارة جاراتها ، لكن وضعها وقسوة زوجها يمنعانها ، فى المغرب أعلن عويس أسماء بعض من ترددوا على التكرلى ، ذكر الخدمات التى قدموها مقابل استمتاعهم بزوجته ، وصف جسدها ، ذكر علامات ، تحدث عن هدف التكرلى ، تكوين ثروة قدرها عشرة آلاف جنيه من كد فرجها ، جمع حتى الآن ثلاثة آلاف وأربعمائة ، هناك معلومات تخص الحرام ، تثير الرثاء ، لن يذيعها . .

المشاجرة الثانية :

وقعت فى نفس اليوم ، تمام الواحدة بعد انتهاء عويس من إبلاغ الحارة الجزء الثانى من المعلومات التكرلية ، خرجت بثينة لفترة قصيرة وعادت بخطى بطيئة ، نظرت إلى نافذة أم يوسف وحنق فظيع يستبد بها ، لولا تدخلها لأقنع الواقفون عويس بالذهاب معها ، أم يوسف تعمل لنفس الغرض ، التهاب غيظها يضخم تصوراتها فتوقن أن أم يوسف استولت عليه فعلا ، ذاقته واستمتعت به وشمت عرق رجولته ، قررت التحرش بها ، قطعت الحارة على مهل أثناء عودتها على أمل رؤية أم يوسف فتفتعل أى سبب للشجار ، لكن النافذتين مغلقتان مما أشعل خيالها ، ماذا يجرى خلفها ؟ اتجهت إلى شقتها بالطابق الثالث حيث ينأى موقعها عن أى مياه قذرة تلقى عليها ، كما أن موقفها فى الشرفة ناظره إلى الحارة فى اتجاه واحد بعكس وقوفها بين البيوت مما يؤدى إلى تلفتها يمينا وشمالا ، جرت وقائع المشاجرة على النحو التالى . .

صاحت على أم سهير التى تسكن فى مواجهة أم يوسف ، علا صوت أم سهير باسم الله ورجاء الخير ، أعلنت بثينة أن الخير لن يأتى إلى الزعفرانى الفقر هذه طالما جحدت القلوب وعششت بها النساء وشبيهات العقارب ، أدركت أم سهير أن تمهيدا يجرى لمشاجرة ، أطل عدد من النساء ، خديجة الصعيدية أسرعت إلى النافذة مرددة بفرح « خناقة . . خناقة » ، لاحظت بثينة استمرار إغلاق نافذتى أم يوسف مما جعلها تختصر مقدمتها المعتادة فى كل مشاجرة تخوضها ، أعلنت أن هذه المرأة الفاجرة التى يصلح لسانها ليصبح سيرا من الجلد يسن عليه موسى الحلاقة ، امرأة العطشجى ، الحقيقة أن طاحون لا يعمل سائقا كما تزعم بنت اللئيمة ، العاهرة ، التى تضطهده فتعد طعاما لأولادها يختلف عما تقدمه لزوجها ، غضبة الشيخ لم تأت من فراغ ، الرجل صالح ، تقى ، لا يقدم على عمل

يؤذى بلا سبب ، هنا أومأت أم سهير ، هزت الست أم نبيلة رأسها ، صفقت زنوبة المطلقة بيديها وصاحت «ياعينى .. ياعينى» ، إلى هذا الحد لم تفتح أم يوسف نافذتها ، زعقت بثينة إن بعض النساء اللواتى لم يشبعن من ازواجهن قبل طلسمت الحارة ، تطيش عقولهن الآن ، هنا مدت ذراعها فى اتجاه بيت أم يوسف ، صفقت مرددة ، امرأة العطشجى .. امرأة العطشجى ، يا نساء الحارة ، يا حارة النساء ، طلبت منهن أن يشهدن على امرأة العطشجى التى تعرض صدرها العارى عندما تطل ، التى لا ترتدى ملابس داخلية ، التى خاضت فى سيرتها برغم أنها أقرضتها خمسة جنيهات فى العام الماضى عندما لجأت إليها باكية ترجوها انقاذ طاحون .. طاحون العطشجى ، طاحون العطشجى ، بسبب ضياع جزء من عهدته ومطالبته تسديد القيمة وإلا حبس ، ندمت فيا بعد لأن أولاد الحلال أخبروها أن طاحون المطحون ، الطاحنى ، المطاحينى سرق جزءا من عهدته باعه فى وكالة البلح ، ندمت لانقاذها لصا نهب مال الحكومة ، الفاجرة غمزت للأسطى عبده ولأنه زوج وفى قص عليها ما جرى ، التمست لهاعذرا ، زوجها مطلسم وهى تحاول مع هذا وذلك لعلها تعرف صاحب القدرة ، لكن ما بلغها صباح اليوم لن تسكت عليه ، حتى هذا الحد لم ترد أم يوسف ، ايقنت خديجة الصعيدية أنها لو أطلت الآن فستشتعل خناقة حامية تسلى وحدتها ، أم يوسف ممن لا يستهان بهن فى الردح ، يبدو أن امرا خفيا يجعلها توثر وجع الدماغ ، أم سهير ايقنت وجود شيء خفى لم تقله بثينة ، إنها تمد جسمها عبر الشرفة ، تلوح بحذائها معلنة انها ستضرب ام يوسف فوق اكثر اجزاء جسدها حساسية ..

المشاجرة الثالثة :

فى تمام الساعة الثانية والنصف من ظهر اليوم التالى ، اقترب عاطف من بيت الصول سلام ، خطاه بطيئة ، فى عينية انكسار ، ذبول يتخلل وجهه ،

بوغت بصرخة ، ارتجف ، يتوقع حدوث أمور غريبة فى الزعفرانى هذه الأيام ، أطل الصول من شرفته متلفتا حوله ، اعتلى الحاجز الحديدى ، اضطر عاطف إلى الوقوف ، حار ، كيف يتصرف ؟ الصول لم يلمح غيره ، وجه إليه حديثه ، أعلن ضيقة بامرأته لأنها بعد عمر كامل تجرأت عليه وكذبته ، أثناء كلامه ظهرت زوجته ، راحت تجذبه ، تطالب بالتعقل ، ألم بعاطف ضيق ، تمنى لو تقدم عشر دقائق ، لو أسرع الخطى لأصبح الآن فى شقته ، يخلع ثيابه ، يغسل وجهه بالماء البارد بعيدا عن أى إزعاج ، استمر الصول يخاطبه ، خدم الملوك طوال حياته ، ملكان وثلاث ملكات تعاقبوا عليه ، لم يضع ملك لقمة فى فمه إلا إذا تأكد إن سلام أكل قبله . دخل كافة غرف القصر التى لم يرها رؤساء وزارات وزعماء أحزاب ، حتى حجرة النياشين التى تحوى أفخم المجوهرات وأثمن قطع السلاح ، إنه يحتفظ بعدد قديم من مجلة المصور ، به صورة لجلالة الملك مرتديا ثياب الفروسية ويستند إلى رقبة حصان عربى أصيل ، **من الذى يمسك مقود الحصان ؟ من ؟** «أنا .. أنا سلام» ليست وظيفته لكن الملك انتابه ضيق فاستدعاه ليأتى به ، همس إليه بكلمات ، رفض البوح بها حتى الآن ولن يذكرها إلا لربه يوم الحساب لو طلب منه ذلك ، وها هى ذى امرأته تكذبه ، صرخت زوجته عندما دفع جسده إلى الأمام «ياناس .. الحقونى» ، هنا تقدم عاطف ، لابد من صعوده ، يجنبه نظرات الأهالى التى تركزت عليه ، يبدو كأنه أدى عملا إيجابيا ، طلع السلم بسرعة ، رمانة السياسى يحاول فتح الباب ، قال عاطف إن امرأته تخشى لو تخلت عنه ، أن يرمى نفسه ، ابتسم رمانة ، إنه يشك ، أبدى عاطف دهشة ، الصول يعتلى حاجز الشرفة فعلا ، هز رمانة رأسه ، تراجع إلى الوراء ، اندفع مصطدما بالباب ، تساقط تراب من الفتحة العلوية المغطاة بزجاج ، فى المرة الثالثة حدث دوى ضخم ، دخلا ، رأى الأهالى رمانة وعاطف يمسكان بذراعى الصول . تركزت الأنظار على عاطف الجامعى الذى يتدخل لأول مرة فى شئون الزعفرانى ، أبدت نبيلة المدرسة إعجابا لا يخفى على الرغم من موقع

شرفتها البعيد نسبياً ، عندما نجحا فى إبعاده عن الشرفة علا تهليل الصبية ، « هيه .. هيه » ، فى الصالة وقف قرقر الموسيقار متأهباً ، استمر الصول يزعق متسائلا ، كيف يمكنه الحياة بعد أن كذبته امرأته ؟ ربت رمانة على كتفيه ثم طلب من الزوجة الكف عن البكاء ، استفسر قرقر عن الموضوع ، قال الصول إن ما جرى فظيع ، كرر قرقر سؤاله ، قال الصول إن الحكاية بدأت منذ عشرة أيام بل بدأت الحقيقة منذ سبع سنوات ، لا ... التزاماً بالحقيقة منذ خمس سنة ، الموضوع متعلق بالصلة الوثيقة جداً بولى العهد المنفى حالياً فى أوروبا ، أحبه جدًا ، اصطحبه معه فى جميع رحلاته عدا سفرياته إلى الخارج ، ليس بسبب رفضه ولكن الصول لا يطيق الابتعاد عن بنت رسول الله الحسين ، أشار إلى الصورة المعلقة الى الجدار المجاور للمدخل ، عجوزاً أشيب اللحية ، عيناه هادئتان ، ملامح تركية يبرزها طربوش قصير ، حاول عاطف تذكر صاحب الملامح ، خيل له أن الصورة منتزعة من مجلة فاخرة الطبع ، لاحظ الاستقرار والطمأنينة فى عينى صاحب الصورة ، خطرت له فكرة ، هذا الرجل لم يعرف الأرق أبدًا ، أخفى رمانة ابتسامة ، لم يتعرف فى الصورة إلى أى من أولياء العهد الملكى الذى عاصره وسجن فيه ، حولوا عيونهم عنها عندما رفع الصول يديه متوجهاً بالدعاء ، راجياً أن يستر ولى العهد فى غربته وأن يديم عليه نعمته ويجمع شملها قريباً ، بعد دعائه بدا أكثر هدوءاً . التفت إليهم ليستأنف حديثه فى نفس اللحظة التى أتم فيها عاطف حسبة بسيطة ، الصورة عمرها لا يقل عن ثلاثين عاماً . صاحب الوجه يقارب السبعين ، لو أنه يعيش لتجاوز المائة ، ود الصول لو أطلعهم على توقيع ولى العهد خلف اللوحة ، لولا غباء صانع الإطار الخشبى الذى ألصقها بالغراء فاختفى الاهداء إلى الأبد ، منذ ثلاثة أيام رأى الأمير فى المنام متعباً « أرهقتنى الغربة ياسلام » ، قال له ، « سلامتك ياسمو الأمير » ، فى هذه اللحظة جاء خادم نوبى يحمل صينية فضية فوقها نظارة طبية ، سموه أحب الفضة ، لم يحمل إلا النياشين المطعمة بالفضة ، جراب سيفه من فضة نقية ، أوسمته المذهبة

حفظها فى دولاب خاص ، صنعت غدارته من الفضة الهندية ، يحملها تحت جاكتته بحيث يبدو مقبضها بارزاً من خلال الحافظة الجلدية لو أزاح طرفها قليلا ، فى هذه اللحظة رأى عاطف بعينى عقله هذا الأمير ، يمشى عاقداً يديه خلف ظهره فى بهو قصره ، يرتدى حلة التشريفة ، يساعده الوصيف على خلع ثيابه فتبدو غدارته كاملة ، منقوشة المقبض ، دائرة صغيرة تحمل اسم الأمير محفورًا ، قال الصول إن الخادم النوبى تناول النظارة من فوق الصينية ، قدمها إلى الأمير ، لكنه أعطاها — للصول ليمسح عويناتها قبل أن يرتديها ، ما معنى هذا ؟ بالأمس طلب من عويس أن يسأل الشيخ عن مغزى الرؤية . جاءه عويس بالرد المنتظر ، إن لقاء هاماً سيشهده الصول قريباً ، لم يوضح مع من ؟ لكنه ينتظر الآن دعوة من ولى العهد ليسافر إليه ، ليشير عليه فى حيرته ، ليسليه فى وحدته ، لكنه سيشترط العودة إلى مصر ليلقى ربه بجوار الحبيب سيد الشهداء ، تبادل الواقفون الدهشة ، توارت السخرية من عينى رمانة ، فكر قرقر الموسيقار فى إمكانية رد الشيخ على من يتوجه إليه بسؤال ، عاطف مازال يستدعى الأمير المتمنطق بغدارته . فجأة ، اندفع الصول إلى حجرة النوم ، عاد ممسكا بمسدس قديم ، حياته لم يعد لها قيمة بعد تكذيب امرأته ، استعاذ قرقر بالله ، حملق رمانة ، أما عاطف فتأمل الفوهة الطويلة واليد الممسكة بالمقبض الخشبى بنى اللون المطعم بقطعة عاج ، رآه مصوباً ، رآه يهدد شخصاً مجهولا ، رأى أصبعاً تلامس الزناد ، رأى أصبعاً تلامس الزناد ، رأى المسدس فوق المنضدة المجاورة لسريره ، صرخت الزوجة « البارودة .. البارودة » ، على مهل راح رمانة يقيس المسافة الفاصلة بينه وبين الصول ، سأله قرقر ، هل ترضى الموت كافراً ؟ زعقت المرأة ، « البارودة .. البارودة » هل يقبل الموت على كفر ؟ على مهل تدلت يده إلى جواره . عينا عاطف تتابعانها ، يرى نفسه جالساً إلى رحة . بعينيها المنتميتين إلى طفولة أبدية تسأله « لماذا تحمل مسدساً ؟ » ، وافق الصول على التراجع عن فكرة الانتحار ، طلب قرقر من المرأة تقبيل رأس زوجها . قالت إنها تعزه وتقدر حزنه

على أصحابه الملوك ، والأمراء ، لكنه أساء فهمها ، صاح رمانة غامزاً الصول ، «شوف ياعم» يتساءل عاطف عن ثمن المسدس ، البلد الذى صنع به ، الأيدى التى تناقلته ، هل خرجت منه رصاصة قاتلة ، أى سنة ؟ أى يوم ، أى لحظة ؟ من صرعت ؟ أجفل عندما تحرك الصول متجهاً إليه ، أوشك المسدس على الاحتكاك به ، قال قرقر إن الشمل سيجتمع قريباً ، نبوءة الشيخ لن تخيب أبداً ، بدا لفظ الشيخ ذا رنين خاص فى هذه اللحظة ، تذكروا ما حل بهم ، لم يعد قرقر قادراً على التباهى بقواه الجنسية برغم بلوغه الستين ، فكر بسرعة ، ضرورة توجيه الدعوة إلى عاطف الجامعى للاستماع إلى ألحانه سيطلب منه دعوة أصحابه ، يثق من قدرته على إثارة إعجابهم بمواهبه التى تلق من يتيح لها الفرصة حتى الآن ، سيكسب مستمعين على درجة عالية من الفهم ، لا مساطيل أفراح وسكارى يتشابه لديهم النغم ، لا يثيرهم طرب أو شجن ، ما يبدونه زعيق كالنهيق عند ظهور ستيستر واحداً من فخذ الراقصة .

يخشى عاطف أن يوجه إلى أحدهم سؤالا عن أحواله المطلسمة ، ستبتل ثيابه لو حدث ، ما يمنعهم أن كلا منهم يعانى ما يعانيه الآخر ، امرأة الصول لا تزال تبكى ، يرى الآن رحمة ، يرى يديها تديران كوب البيرة ، بعد أن تشرب تتورد وجنتاها تبرق عيناها كحبات سبحة تشع ضوءاً ناعماً حلواً فى العتمة . بعد فترة قصيرة يتدفق الحديث من شفتيها ، يصغى إليها فرحاً بما تحكيه عن شئونها الصغرى ، تغمره بهجة ، يسند ذقنه إلى راحتيه و يصغى ، يتهلل وجهها ، يرقب مرح عينيها ، يتحول ماء النهر إلى شعاع ، وجذوع الشجر إلى صدى أصوات ، عندما رأى نبيل صورتها معه لأول مرة قال إنها طفلة ، قال عاطف إنها أتمت الواحدة والعشرين ، إنها أنثى تحتفظ روحها ببراءة الأعوام الأولى من العمر ، ابدى نبيل دهشة ، ذلك نوع نادر من الورود .

قال قرقر إن الأمور مرت على خير وبهذه المناسبة يسره دعوة عاطف بك

لسماع موسيقاه ، وكذلك الأسطى رمانة والصول سلام ، قال رمانة إنه بحاجة فعلا إلى سمع موسيقى ، سمع كثيراً عن عبقرية قرقر من المعلم الداطوارى ، ابتهج قرقر ورمق عاطف بنظرة كأنه يقول ، أتسمع ما يقال ؟ يقف الصول متصلباً ، يقول بلهجة بطيئة إنه يقبل بكل تقدير و يلبى الدعوة التى وجهها إليه قرقر ، انغرست حسرة مركزة فى قلب عاطف ، نقطة من ماء النار ثقبت قلبه ، لو وجهت إليه الدعوة من ستة شهور لاصطحبها معه ، قال إنه مستعد فى أى وقت ، بدا صوته واهنا ، حاول اخفاء حزن فادح يوشك على النطق من عينيه ، لم يخف على رمانه انكسار صوته . أرجع السبب إلى الطلسم ، يلحظ عاطف مسدس الصول ، استدارة قطعة الحديد النحيلة التى تحدد فراغا يستقر فيه الزناد ، سمعوا طرقا ، صاح الصول «أدخل» ، خطت الست لطيفة امرأة البنان حافية القدمين ، تخفى نصف وجهها خلف طرحة سوداء ، نظراتها جانبية كليلة ، رجتهم ألا يؤاخذوها لكنها تسألهم ، ألم ير أحدهم ساعى البريد ؟ ، ألم يترك لدى أحدهم خطابا ليوصله إليها وإلى عمهم البنان العجوز الذى لم يقدر على طلوع السلم ؟

المشاجرة الرابعة :

على غير العادة سمع حوالى السابعة مساء زعيق حسن أنور ، التقط الجيران كلمات استنتجوا منها انه يتشاجر مع سمير ابنه الأصغر ، أبدى البعض دهشة لأن صوته المرتفع لم يسمع من قبل ، لافى بيته ولا مع أحد من الزعفرانى ، واجه الزعفرانيون صعوبة فى الاصغاء لأن زعيقه مختلف عن الأنواع الأخرى المألوفة ، خيل إليهم أنه يصيح بالفصحى ، أصغى عاطف الذى قبع فوق سريره مستسلما لنزول الليل الأسود . لا يرى شيئاً من تفاصيل الحجرة ، عيناه لم تعتادا الظلام بعد ، رعشة خفيفة تؤلم قلبه ، وجود جسمه المادى غير محسوس بالنسبة له ،

إنه الآن مجموعة صور بعيدة وقريبة وهمسات وروائح وألفاظ قيلت فيما مضى وبقت فى ذهنه إلى الأبد . صوت حسن أنور انتزعه من حصار سيل الذكرى الوعر الشائك ، أيضاً أضطر التكرلى إلى التوقف لحظات عن خلع ثيابه ، نظر إلى نادية ، قال ، حسن أفندى يضرب ابنه ، قالت إن الحارة بها مس ، ذكرت محاولة الصول الانتحار ، لولا تدخل عاطف ورمانة ، وقع الاسمان موقعا غريبا فى أذنى التكرلى ، خيل إليه أن امرأته تذكرهما بود ، قرر الاستفسار منها قبل النوم عن سبب ذكرها هذين الاسمين بالذات ، قالت إن أم صبرى شتمت بائعة جبن قريش ، هجمت عليها ، تركت المرأة وعاء الجبن وفرت مذعورة . ثم حنه رأس الفجلة إليها حتى باب الفرن ، قالت إن بسيونى الهجرسى العجوز الخبز القديم تشاجر مع ابنه « لولى » وامرأة ابنه صفية ، خرج من الغرفة الوحيدة التى يعيشون فيها كلهم ، راح يخاطب النوافذ والشرفات معلنا أن امرأة ابنه تتحايل عليه لينام معها ، وأنها ضائعة ويمكن لأى رجل من الحارة مضاجعتها بقرش صاغ ، بعد عودة لولى ابنه سكب الجاز فوق نفسه ، لطيفة العجوز وأم محمد منعتاه ، مرة أخرى أبدى التكرلى قلقا ، امرأته تقص أخبار الزعفرانى بالتفاصيل ، هل خرجت ؟ هل التقت بأحد ؟ اكتمل احمرار وجهها عندما إنها لم تغادر البيت . جلست اليوم كله فوق الكنبة وعندما انتابها ملل انتقلت إلى الكنبة المواجهة ، قال التكرلى إن أهالى الزعفرانى أشرار ، عدد من كبار المسئولين عندهم علم الآن بما يجرى . أحدهم انزعج جدا عندما أصغى إلى ما يحدث فى الحارة وقال إن هذا خطير جدا ، قال التكرلى إن الزعفرانيين جبناء ، فى الوقت الذى يبدون فيه خضوعهم للشيخ ولخادمه عويس ، قام بعضهم بإرسال شكاوى خالية من التوقيع إلى عدة جهات ، أطلعه مسئول آخر على إحداها ، قال إنه أوصى عدة سماسرة بالبحث عن سكن . . . ، هنا ارتفعت صرخات متقطعة لامرأة ، إنها امرأة حسن أفندى ، الطيبة ، العاقلة ، الكاملة تحول بين الأب وابنه ، فى هذه اللحظة أوشكت عروق حسن أنور على الانفجار ، لأول مرة يواجه بمعارضة تبلغ قلة الحياء . بعد مغيب

الشمس استدعى ولديه ، أخبرهما بضرورة نومهما فى الثامنة والاستجابة إلى تعاليم الشيخ حتى زوال الغمة ، هنا خفض صوته حتى أوشك أن يصبح همسا ، ظهر اليوم التقى برجل ورع كشف عنه الحجاب ، لجأ إليه من قبل فى أزمات عديدة ، أخبره الرجل الصالح أن فرجا قريباً سيحدث فى الحارة ، سيرفع الشيخ أثر الطلسم عن ثلاثة من أهالى الزعفرانى ، طبعا سيختارهم من بين الملتزمين بأوامره والمؤمنين به فى السر أو العلن ، الشيخ يضمر نوايا عظيمة ستعرفها الزعفرانى والحارات المجاورة والمدينة والبلاد والعالم كله ، كل مكان يتجمع فيه العباد ، هنا يجب الإشارة إلى فرحه بحديث الرجل لدرجة نسيانه الدعاء الثابت أثناء طوافه بضريح الحسين ، أن يحميه من دخول قسم البوليس ، ألا يقترض أو يمرض ، ودعاء آخر أضمره ضد سيد بك لأنه آذاه أذية مهولة ، استدعاه إلى مكتبه ، سر كثيرا بهذه الدعوة لدرجة أنه نظر إلى ثلاثة من خريجى الجامعة الشبان العاملين حديثا بالإدارة ، ربما كلفه سيد بك بعمل ما ، هذا يعطيه الحق فى الجلوس متعبا أمام عبد العظيم أفندى و يقول إن سيد بك يؤثره بالكثير من المهام مما يسبب له إرهاقا ، حدث أن قص عليه عبد العظيم مرة واقعة هزته ، تأخر إعداد بعض المذكرات مما جعل عبد العظيم أفندى يحضر يوم الجمعة ، جاء لا يتضمن فى أجر إضافى أو مكافأة ، حوالى الظهر فوجئ بدخول سيد بك ، يشعر به لانهماكه الشديد ، لم يصدق عينيه ، نطق عبارات ترحيب مضطربة لدرجة محرجة ودعوته البالغة لتحويس وهذا لا يليق ، لكنه فوجئ بسيد بك يسأله عن بعض الأعمال ، ثم سأله عن الأولاد ، وعن صحته ، فى اليوم التالى قدم سيد بك مذكرة يطلب مكافأة عشرة جنيهات لعبد العظيم نظراً لجده وإخلاصه ، حسن أفندى قضى أياما يحلم بحدوث هذا معه ، سيقابل مجىء سيد بك بوجه خال من الانفعالات ، سيسأله عن صحته ، عن أحواله ، يوم الجمعة التالى ذهب إلى مكتبه ، تخلف عن صلاة الجمعة لأول مرة منذ سنوات عديدة ، خلع جاكتته كدليل على انهماكه ، لم يذهب إلى دورة المياه خوفا من مرور سيد بك العابر ،

أغفى مرتين تعبا ، خاف حضور سيد بك فى لحظة . يغمض فيها عينيه ، يبدو مضحكا ، فى اليوم التالى قص على زملائه ، كيف أنه قضى اليوم كله فى إنهاء بعض الأعمال المتأخرة ، أصغوا إليه بلا مبالاة ، أبدى أحدهم سخرية ، قال صراحة إنه يحاول تقليد عبد العظيم أفندى ، ضرب المنضدة ، كذب ، كذب ، بدون تفكير مسبق أعلن أن عبد العظيم لم يأت مصادفة بل علم مسبقا بنية سيد بك فى الحضور ، كل ما تفوه به ، وصل عبد العظيم مضاعفا ، قال إنه تأثر جدا مما سمعه لأن حسن أفندى زميل دراسته وهو غير حقود ، كيف أفترى عليه ؟ ثم أنه بهذا التصرف يقوض وحدة حملة الشهادات المتوسطة فى المؤسسة ، أوشك الأمر على الوصول إلى سيد بك بعد أن رواه بعض خريجى الجامعة ، أبدى حسن أنور انزعاجا ، لم يقصد الاساءة إلى قضية حملة الشهادات المتوسطة ، المهم أنه تردد أيام الجمع التالية لمدة أربعة أسابيع ، سيد بك لم يحضر ، استدعاه أمس ، أشار إلى ثلاث أوراق ، تساءل عن ضرورة طلبه تركيب تليفون ؟ تضاءل وجه حسن أنور ، قرأ سطرا من المذكرة الأخيرة . . « حاجة العمل الماسة تدعو إلى تركيب جهاز للتليفون » ، أشار حسن أنور بيده مرات ، فكر فى احتمال دخول أحد زملائه ورؤيته هكذا ، سيصاب بسكتة ، زعق سيد بك ، « ما حاجتك الملحة وعملك لا يستدعى الاتصال بالخارج إطلاقا » ، قال إنه يطلب تليفونا داخليا للاتصال بزملائه فى الأقسام الأخرى ، صاح سيد بك ، « لكنك تطلب تليفونا بقرص » كشف عن أسنان بيضاء جدا ، قال إن هذا كسل لا يليق بموظف قديم ، وتحايل مرفوض ، عندما استدار حسن أنور سمع تمزيق الأوراق . فى الخارج رأى أربعة موظفين وساعيا ، كتب مذكرة يطلب نقله إلى إدارة أخرى ، قبل أن ينهيها مزقها بسرعة ، ستجر عليه المتاعب ، لو لمح أحد زملائه ما تضمنته سيجر عليه ، يواجه بمصاعب من نوع آخر ، مر عليه بعض زملائه ، لم يتحدثوا إليه ، آله هذا ، قبل انصرافه صاح على رشوان الساعى أثناء تجمع الموظفين أمام المصعد ، إنه أقدم ساع بالإدارة ، يسافر كل خميس إلى طنطا ، يطلب منه بصوت

عال الدعاء لولديه سمير وحسان ، سمير الذى سيصبح مهندسا باذن الله ، وحسان الذى سيتخرج طبيبا ، ود لو سمع الجميع ما قاله ، تمنى لو أخبر سيد بك باصرار المرحوم والده على دخوله الثانوى العام تمهيداً لالتحاقه بالجامعة ، لكن ظروف الأسرة لم تسمح شأن العائلات الكريمة التى جار عليها الدهر ، اقنع والده بضرورة الالتحاق بمدرسة تجارية ثم يستكمل دراسته بعد تخرجه وتوظفه ، لكن التأكل أدرك نواياه مع السنين ، خاصة أنه هوى القراءة ، عرف التصوف والمتصوفين ، وعندما نشبت الحرب العالمية تابع معاركها ، اشترى الأهرام يوميا ، قص اخبار القتال والصقها على ورق أبيض مسطر ، انحاز منذ البداية إلى هتلر ، حصل على صورة كبيرة له ، يبدو فيها أنيقا ، يعقد يديه أمام صدره ، احتفظ بها فى غرفة النوم ، يثق أنه لم يمت ، اين جثته إذن ؟ لديه يقين خفى بمجيء هتلر إلى مصر ، ربما يقيم فى أحدى المحافظات ، باحد ملاجيء العجزة ، سيظهر فى الوقت المناسب ليفتح المخزن رقم ١٣ الذى يحوى آلات دمار مهولة ، يقهر خصومه ، يسود العالم ، وذلو يعلم سيد بك باطلاعه المستمر على الكتب العسكرية ، أصحابه يستشيرونه فى أحداث الحرب ، يشهد بهذا عوض الرماح وعبده البرتقانى والخاج عبود رحمه الله ، طوال معارك الصحراء الغربية بها [illegible] ، يسقط صحفيه ، يقول : لو تقدم روميل من هنا بدلا من التفافه لحقق نصرا ، عندما بدأ تقهقره أكد أن هذا لا يرجع إلى عيب فى عبقريته إنما يكمن السبب فى نقص الإمكانيات . لو ارسلوا إليه طلباته لما هزم . يوم شيع روميل حزن ، اعتبر نفسه مسئولا عن نهايته ، حالت الحواجز بينهما وعندما أذيع أول بيان يوم الإثنين الخامس من يونيو ١٩٦٧ . وسمع المذيع يقول « هاجمت إسرائيل مطاراتنا فى كافة أنحاء الجمهورية » قال لزملائه ، « خسرنا الحرب » ، لو عرف سيد بك [illegible] صحبته ، ربما دعاه إلى مناقشته . يضغط زرا أحمر ، يجيء الساعى فيقول « قهوة لحسن بك ؟ » ، لو أتم تعليمه لاصبح الآن وكيلا لوزارة ، أو رئيسا لمجلس إدارة ، ضحى بهذا كله من أجل المعرفة ، فى نفس اللحظة تذكر عدم دخوله الجامعة

تستخفى العبء عن والديه ، من يذكر هذا ؟ كل شيء يتلاشى ، مسح دمعتين بسرعة حتى لا يراه أحد الموظفين ، ألم يضرب هتلر جبهته مرارا ، مثل تلك اللحظات لا يفهمها سيد أبو المعاطى ، إنه حائر ، منذ سنة يطالب بتركيب تليفون فى مكتبه ، لماذا لم يستدعه إلا اليوم ؟ هل وشى أحدهم به ؟ ود لو قام وتحدث إلى بيته . يسأل أم حسان عما طبخته ، يقول إنه سيتأخر قليلا فى الحسين ، ليعلم الجميع بامتلاكه تليفونا خاصا ، غير أن اليوم لم ينته على خير ، إذ سرى خبر مضمونه قرار سيادته بالمرور المفاجىء خلال الدقائق المتبقية على الانصراف ، أخرجت الملفات مرة أخرى من المكاتب ، أخفيت حقائب السيدات ، عاد بعض الموظفين من أمام المصعد ، انتهت حالة القلق لدى الباقين فى المكاتب ، وسؤال كل منهم للآخر ، « كم تبقى على الانصراف ؟ » حتى حسن أفندى غالب ضيقه ، أخرج مذكرة قديمة ، راح يعيد صياغتها ، حمد الله عدم ذهابه إلى عبد العظيم أفندى ليشكوهم ، بعد دقائق سمع صوت سيد بك ، يعرف أن حمدى السكرتير يتبعه ، والحسينى رئيس قسم المأموريات البعيدة ، والطوانسى رئيس العهدة المستمرة ، لم يصل عبد العظيم بعد إلى درجة تسمح له بمرافقة البك أثناء مروره ، لايدرى من أين جاءه خاطر مخيف ، ربما يسأله عما يجرى فى الزعفرانى ، الحى القديم كله يعرف ما حدث ، الخبر أشبه بحجر ألقى فى بركة ، تتسع الدوائر حتى تمس الضفاف ، لو سأله سيذوب كرغوة ، غير أن سيد بك لم يدخل عنده ، جاءه الطوانسى ، أخبره بقرار البك إعادة توزيع المكاتب بحيث تستوعب الشقة أكبر عدد ممكن ضغطا للنفقات ومراعاة لظروف اقتصاد الحرب ، تقرر تخصيص الحجرة للآنسات اللواتى تم تعيينهن أخيراً وليبتعدن عن الأحتكاك بالموظفين ، طلب منه اغلاق ادراج مكتبه بعد إدخال كافة الأوراق التى يتركها فوقه لنقله إلى الصالة ، ؟ بعد هذا العمر كله يجلس ضيفا مع موظفى الالة الكاتبة ، كفاحه من أجل وضع مكتبه فى الصدارة فاشل لأن الطابونى أفندى موجود ، رئيسهم الفعلى ، ماذا لو سمع ولداه هذا القرار ؟ سيد بك يحكم الحصار حوله ، يحط من

وضعه ، يريد افقاده الميزات التى أكتسبها بعد كفاح ، إن التراجع أفضل خطط الهجوم أحيانا ، على مهل للم أوراقه ، تأمل الحجرة التى أودعها قدرا من حياته ، قمم الأشجار تبدو من النافذة الضيقة ، عمارة ضخمة لم تكتمل بعد ، يجب الا يستفز ، فى مثل هذه المواقف يستدعي قراءاته ، يشد قامته ، يبرز صدره أثناء مشيه ، كأنه يستعرض فيلقا أصطف لتحيته ، خسر موقعا ممتازا ، لكن ماذا يساوى هذا لوقورن بما خسره هتلر . كيف تصرف عندما جاءته الجيوش الروسية من الشرق ؟ والحلفاء من الغرب ؟ ماذا فعل عندما أحكم الحصار حول برلين ؟ لم يفقد الأمل . لم ينهر ، لم يرفع راية الاستسلام البيضاء ، حاول استدعاء جيوشه ليفض حصار برلين ، أن يدفع الغزاة إلى أقصى الشرق ، و يرمى الحلفاء فى القنال الإنجليزى ، هكذا يجب عليه الإنسحاب مزهوا بتاريخه الطويل فى المصلحة وسجلاته النظيفة التى لم تلوث بتقرير سيىء ، إن الضربة المسددة إليه فظيعة ، تجيء فى توقيت يعانى خطرا مجهولا يهدد رجولته و يدرك ولديه ، لينتقل إلى الصالة . ليصبح فى مرمى العابرين بالطرقة ، بل ليستعد لما هو أفدح ، ربما يجيء عامل البوفيه يوما و يضع صينية المشروبات فوق مكتبه ثم يتناول أكواب الشاى وفناجين القهوة ليوزعها على الجالسين ، لن ينهره ، الصبر كفيل بامتصاص الهجمات ، لو استجاب بردود فعل عصبية ربما لجأ الطرف الآخر إلى هجمة إنتحارية ، ربما أصدر سيد بك قرارا بنقله إلى أحد الفروع النائية ، الثبات ، يوما ستنتهى غيبة هتلر ، يظهر أعوانه المختفون فى مشارق الأرض ومغاربها ، يعيد تشكيل فيالقه ، يوجهها إلى الجهات الأربع الأصلية ، يطوف الدنيا ، سيعرف من مخابراته اسماء الذين آمنوا بعودته ، اهتموا به ، اين موقع سيد بك عندئذ ، كيف يواجهه ؟ سيعدمه بأبشع الطرق ، سيذيبه حيا فى الحبر ، أما الآن فالمهادنة ، حتى لا ينقل و يترك سمير وحسان بلا رعاية ، أمهما طيبة لا يمكنها مراقبتها ، عندئذ ينحرفا .

الآن ينتظر إليها ، يخبرهما بما سمعه من الرجل التقى فى الحسين ، هذه بشارة لا ريب فيها ، سيرفع الطلسم عن ثلاثة ، التزامهما بكافة ما يطلبه الشيخ كفيل بسرعة شفائهما ، يجب أن يناما فى الثامنة . . . « مستحيل » ، قالها سمير بحدة أفقدت صوته الرقة ، عينا حسن أفندى تبرزان ، إن طنينا حادا يصم أذنيه ، ابنه الأصغر الذى يضرب به المثل ، الذى يذكره قبل أخيه الأكبر ، أيجاوبه هكذا ؟ لشدة المفاجأة يتساءل بصوت خافت « ماذا تعنى يا سمير يا ابنى ؟ » ، بعينين فيهما قحة قال إنه لن ينام الساعة الثامنة ولن يخضع لخرافات ، لن يخضع ؟ المعنى خطير ، لا يريد التزام الصراط المستقيم حتى زوال الغمة ، أشد ما يوجع ، تمرد أقرب الناس ، أخلص المعاونين ، يصبح التزييف داخليا من الصعب اكتشاف أسبابه ومنعه ، ابنه الخجول الذى كتب اسمه فى لوحة الشرف أكثر من مرة ها هو ذا يجيبه بالألفاظ الغلاظ ، صاح « هذا أمر » ، يقوم سمير معلنا إنه غير قادر على مواصلة الحياة فى هذا الجو ، يصرخ حسن أفندى « ولد » ، تتابع الأم موقفا لم يصادفها قط ، يشير ابنها إلى أبيه قائلا بسخرية ، إنه يطلب منها النوم فى الثامنة ، ينظر إلى شقيقه ، يطالبه بالكف عن الجبن ، تفور الدماء فى عروق حسن أفندى ، لم يدر ما لفظ به ، يدور بعينيه باحثا عن شىء يقصف به هذا المتمرد ، يقلب الكراسى ، يحطم زجاج الدولاب الصغير ، تسقط أوان ، تزعق امرأته ، « سمير لم يقصد » ، يزيد حركته ، الحقيقة أنه لا يبحث عن شىء معين ، لكنه يخفى حيرته وألمه فى محاولة وهمية للبحث عن شىء يؤدب به الصغير ، يصيح سمير مبديا عدم اهتمامه ، هنا سمع الجيران صوت حسن أفندى « لا أنت ابنى ولا أعرفك » . فى الحارة توقف الداطورى ، أصغى إلى الضجة ، لم ينتظر حوله . لم يرفع عينيه ، مال رأسه باتجاه الأرض ، حتى حسن أفندى الزعفرانى الأصيل ، الأمير الطيب الذى لم يسمع له حس أبدا ، ماذا جرى ؟ ماذا يحدث للزعفرانى ؟ إن دموعا صامتة تتلمس طريقها خارج عينيه فى العتمة ، « أنا برىء منك إلى يوم القيامة » ، لطمت امرأة حسن أفندى وجهها « يا

خرابى » جمد حسان كلوح خشب ، صور عديدة تتزاحم فى رأس الأب ، سيد بك يمزق الورقات الثلاث ، عبد العظيم أفندى يتحدث فى التليفون ثم يضع السماعة متمهلا ، يتبادل ابتسامة ودية مع سيد بك ، شاب خريج الجامعة يلوح بلا مبالاة ، عامل البوفيه يسند الصينية فوق مكتبه ، أربعة لا أمان لهم ، المال ولو كثر ، المرأة ولو طالت عشرتها ، الحاكم ولو قرب منك ، الزمن ولو صفا . ثناء ناظر المدرسة على سمير ، هتلر ، طائرات جورنج تمرق ، أولياء يبكون ، يرثون الماضى الجميل الهادىء الآمن الخالى من الزوابع ، قائد لا يذكر اسمه يضرب الأرض بيده ، فوجئ بالاختراق ، حدث الإختراق ، لو التزم سمير أدبه المعهود ، لو تقدم منه ، سامحنى يا بابا ، سيعفو عنه ، سينسى كل أساءته ، لكن شيئا ضخما يتحول ، لحظة يتقزز فيها سمير بأكمله ، سلوكه الفاجىء أذهل أمه ، دفعته باتجاه الجدار لاظهار غضبها ولتبعده عن أبيه ، أفلت منها متجها إلى الباب ، فوق السلم أعلن سمير أنه لن يبقى دقيقة واحدة فى الزعفرانى كلها . ردد الداطورى فى وقفته « الأبناء يجحدون الآباء ، عينى يا زعفرانى » ، تقول أم سهير لزوجها « سمير طفش » يسأل « سمير من ؟ » ، « سمير ابن حسن أفندى » .

المشاجرة الخاصة :

حدث فى عصر اليوم التالى أن تطور الحديث بين روض ابنة أم صبرى وشقيقتها الكبرى حتى وصل إلى حد الزعيق الذى أثار فضول النساء فى الزعفرانى ، خرجن إلى الشرفات يحاولن متابعة ما يجرى على الرغم من انشغال معظمهن فى مناقشة ما جاء بتعاليم الشيخ التى تليت صباح اليوم ، طلب من الزعفرانيين استبدال كلمتى صباح الخير ومساء الخير ، وجميع عبارات التحية بجملة واحدة ، ومن خالف ستحل به مصائب ، قيل إن الشيخ سيمسخ من يخالفه حجرا ، وأنه سينبت الأثداء فى صدور الرجال ، حاول رمالة السيامى

استكشاف المعاني الخبيئة وراء التحية الجديدة . رددتها أم سهير كثيرا حتى حفظتها وطلبت خديجة الصعيدية من زوجها اعادتها ما يقرب من مائة مرة حتى اطمأنت ، فريدة امرأة زلبي الفحيلة تمنت لو أخطأ زوجها حتى ترى ما سيلحقه ، أم يوسف رأت أن ذهابها إلى عويس له ما يبرروه الآن ، متسأله عن حقيقة المعنى ، في حجرته عكنها الاختلاء به ، تدس وجهها في شعر صدره ، تشم عرق رجولته ، بيوت الحارة كلها تردد العبارة ، حسن أفندى تأمل حروفها ، أصغى إلى امرأته أثناء الفترات القليلة التي عاد فيها إلى شقته والتي تخللت يومه ثم عودته للبحث عن سمير ، جلس الداطورى أمام مقهاه ، لا يلفظها إنما يتأمل معناها ، « هذا زمن الفرار » ، اقترح البنان على لطيفة امرأته أن يكتبا إلى ابنها ليلفظ هذه العبارة ، روت حزينة ، « وهل نعرف عنوانه ؟ » ، تأملات عاطف تجاوزت الجملة إلى ما يشبه التفسير الذي أذاعه عويس ، زمن الفرار من عصر إلى عصر ، من حال إلى حال ، لن تمضي المصائر وفقا للأمنيات والرغبات العاجزة والجهود الضائعة التي تستغرق أعمارا وتهلك أجيالا ، بسرعة الفرار ستتحقق الأمنيات وتتجسد الأحلام ، انقضت عصور ركود الإنسان ، بدأ عصر الحركة ، التغيير ، الفرار من المستحيل إلى الممكن ، إلى ما يتحقق فعلا ، لا الممكن وغير الممكن .

هذه المعاني شغلت الزعفرانيين خاصة عندما رددها عويس عصر اليوم ، من هنا بدا نشوب مشاجرة أمرا غريبا ، لأول مرة يعلو صوت الأختين ، اعتادت الحارة الفرجة على عائلة أم صبرى أثناء شجارها مع عائلة أخرى ، لم يسمع أحد شجارا دب بين أفراد الأسرة ، مشاجرة كهذه لا يمكن تجاهلها حتى لو نشبت في وقت يقام فيه مأتم ، والحقيقة أن جذور هذه المشاجرة ترجع إلى الأيام الأخيرة التي شهدت وفاقا بين سكينة الأبنة الكبرى وزوجها كمال القادوسي ، حدث الوفاق قبل إعلان الشيخ بأيام و بعد جهود أولاد الحلال وسعي دءوب من أم

صبرى ، طيلة الشهرين الماضيين ضاقت بمجيء ابنتيها في وقت واحد ، كل منهما تعاني فراغا ، تحاول شغل نفسها بتنظيف البيت . تلميع الزجاج . مساعدة خديجة الصعيدية ، استدعت سكينة لتذبح دجاجة هزيلة أوشكت على المرض لأنها تخاف رؤية الدم ، ساعدت أم سهير في العجين ، إنها قوية ، عريضة الصدر ، ملتفة الفخذين ، لا تهدأ ، روض صامتة ، تفكر دائما ، أم صبرى مشغولة باستمرار . تمضي إلى عزاء أسر تعرفها أو لا تعرفها ، يتردد صوتها من خلال مكبرات الصوت . تذهب في الصباح إلى بعض المآتم ، تخطب في النساء ، تذكر حكايات دينية ومواعظ وحكما تسهم في التحضير للأفراح ، تجهيز العروس من نتف شعر وتزيين واسداء نصائح ، لكن مهما تحاول شغل نفسها تجيء لحظة معينه ، تنظر إلى روض أو سكينة ، روض بالذات منظرها يضنيها ، لا تطيقه ، تعرف ما تعنيه لحظه الملل أثناء ابتعاد المرأة عن أليفها ، إنها معجبة بجمال ابنتها ، كثيرا ما طلبت النظر إلى عينيها الواسعتين ، تخجل روض ، أم صبرى عميقة الخبرة بشئون النساء ، تعجب بقوام روض ، خصرها ، صدرها النافر المتماسك ، بطنها المستوى الذى لم تفسده إلا مرة حمل واحدة ، مرة اصرت على رؤية جسم ابنتها ، روض لا تخلع ثيابها أمام أى مخلوق ، عندما دخلت دورة المياه لتستحم ، غمزت أمها بعينها إلى سكينة ، طرقت الباب بشدة ، صاحت أنها إذا لم تتبول فورا فسوف تنفجر ، روض تعرف مرض أمها بالكلى فتحت الباب ، استدارت تواجه الجدار منحنية ، تخفي صدرها ومقدمة جسدها بذراعيها ، دستها بين ركبتيها ، بدأت أمها تنظر إليها متمهلة ، فهمت روض ، طلبت الإسراع بالخروج لأن البرد يوشك أن يصيبها ، بدت أمها فرحة . تمنت مجيء ابن الحلال الذى يستحق جسدها ، أم صبرى حزينة لمرور الأيام على ابنتها المطلقة ، روض قاست طويلا ، لم تضيق أبدا بفقر زوجها خاصة بعد تحرك محمد كجنين في أحشائها ، في بداية زواجها عانت رطوبة الحجرة ونشع الماء في الشتاء ، عندما تخرج إلى مدخل البيت ترقب الرائح والغادي ، تقول لنفسها إن الأمور ستتحسن

عندما تبلغ الخامسة والعشرين ، لكم بدت المساحة الزمنية وقتئذ عريضة بين عامها الثامن عشر والخامسة والعشرين ، كل ما تمنته أن يوفر الله عملا لزوجها بأحد المصانع الأفرنجية ، عندئذ يمكنها شراء النحاس ، ودولاب صغير قديم من الخواج فؤاد الموبيلياتي ، وتجهز لحافا غطاؤه ساتان وردى ، يستقران فى حجرة بدورة مياه مستقلة فوق سطح ، أى سطح بحيث تجلس دائما فى الضوء ، لشد ما جاعت إلى الضوء ، إلى الشمس ، فى سنة زواجها الأولى بدت أحلامها سهلة ، وشيكة الوقوع ، لكن مرور الزمن ، وفترات البطالة التى مرت بزوجها جعلت اللعاب فى فمها مرا ، عندما التحق ببعض المصانع القريبة تضاءل أجره ، قال صراحة إنه لا يستطيع اطعامها ، كثيراً ما ذهبت إلى أمها تضم وليدها ، تسألها عن أحوالها فتحمد الله وتشكر فضله ، لا تريد ازعاج أمها ، تنتظر ميعاد الغداء حتى تشبع جوعها الذى استمر أحيانا يومين . فى الأيام السوداء عرفت الفاكهى وطالب الأزهر ، تذكر تلفتها المستمر وراءها أثناء ذهابها إلى أحدهم . فى الزعفرانى رأت دخول عاطف الجامعى لحظة ظهيرة ، نزلت مرتجفة الساقين فى صباح باكر جدا ، أبطأت خطواتها عند عودتها حتى رأته ، عيناه غائرتان ، بعد مروره تجهم الصباح ، لا تدرى ما الذى هاجها ، تذكر بعناه أن حزنا لم تعهده ، لم تعرفه حتى فى لحظات الجوع ، حزنا ترفق بها وقسا عليها ، لا تدرى سببا ، ربما هدوء وجهه أو الأسى الغامض فى ملامحه ، ربما تعمدها المشى البطىء وهز ردفيها ، ماذا سيجدى هذا ؟ مجرد التفكير فيه محال ، لم تدر كيف تتقرب منه ؟ لو رصدوا تفكيرها ستمتزج الفضيحة بالسخرية ، ألم تختر إلا عاطف الجامعى ؟ فشلت نيلة المدرسة فى جذب انتباهه ، لكن لم تمض إلا خمسة أيام حتى جاءت لحظة تجاوزت خجلها كله ، قالت فيها «صباح الخير ياسى عاطف» ، أجابها ، لحت أسى لا تلاحظه إلا هى . امتلأت بهجة وضوءا أشد سطوعا مما حلمت به والاستحمام فيه فوق سطح بيت ، إنها لا تخشى منه ، ترى انكساره ، فى انحناءة كتفيه ، فى تذكرها له عندما تخلو بنفسها ، فى قبوقرمز أمسك كتفها ، لم تطالبه

بالكف ، لم تبد حتى اعتراضا مفتعلا ، بدا لها أنه من الطبيعى أن يفكر فى جسدها منذ اللحظة الأولى ، لتبدأ علاقتها بين ذراعيه ، فى لحظة معينة يهمس فى أذنيها ، تصغى إلى تسارع أنفاسه ، ستمر بيدها على ظهره ، ستحتوى عاطف الجامعى حلم نساء الحارة . تسأله لماذا يبدو مهموماً ؟ ستحاول فهم ما سيقوله ، فى القبو قالت «أنا تحت أمرك فى الستر» ، فى القبو وضعت يدها على ما ظنته وهما فى البداية ، أيقنت انكسار الأفندى ، ربما لمصيبة حلت به . لضيقه من أمر ما . عندما احتضنها فى القبو بدا كأنه يلوذ بها من أمر غامض ، لم يهاجمها كالفاكهى ، بدا طفلا يتلمس الأمان حتى قالت بلا وعى «يا حبيبى» ، كأنها تناغى ابنها ، تمنت الانفراد به بسرعة ، لن تلف ، لن تدور ، لن تتباطأ عليه فى تقديم كل ما لديها ، وعندما تصل النشوة إلى ذروتها ويعلى الهمود ، تتطلع إلى عينيه ، تحكى له أيامها ، ليالى انتظارها لعبده زوجها وعودته بالأرغفة والطعمية ، تفوح منه رائحة الأحماض والنيلة وعفن الأصباغ ، حتى ما جرى لها مع الفاكهى ، لكن لو أنها امرأة أخرى هل سيرحب بها عاطف ؟ إذا ذهبت إليه أم يوسف فهل يصدها ؟ أليس شابا يحتاج إلى امرأة ، لكن ما يهمها أن ما أدركته لن تعرفه امرأة أخرى ، قنوات خفية اتصلت بينها ، دمها من دمه ، راودتها أمنيات حبيبة ، أن تجلس معه يوما فى الشمس فوق حشائش خضراء ، حديقة نائية حيث لا يعرفها أحد ، يتحدثان ، يصمتان أحياناً ، حسرة توجعها ، لن يحدث هذا ، لو طلب مقابلتها فلن تجد لديها جلبابا ترتديه تحت ملاءتها السوداء الممزقة . لن تطلب منه شيئاً ، ستقدم إليه ما يمكنها ، ستغسل ثيابه ، تنظف بيته ، ستجعله يشم رائحة الطعام البيتى عند رجوعه فى الظهر ، ستزيل الغبار من فوق ألواح الزجاج ، تصف الأكواب والأطباق فى المطبخ ، تعرف موقعها منه ولن تتجاوزه ، عندما مضت إليه التزمت الحذر خوفا من الألسنة الزعفرانية الحادة ، تجنبت أم محمد التى تجلس دائما أمام البيت ، عندما دخلت شقته بدت لها سطحاً خلا من الشمس ، البلاط عار ، لونه رمادى يتخلله مربع ملون كبير من بلاط

أخير ، بدا عمود البيت وحزنه جزءاً من الأسى الذى أدركته فى عينى عاطف ، عندما تجرد من ثيابه بسطت جسدها لملاقاته ، غمرها حنان ، عندما ابتل جسده بالعرق وتأى لم تضق ، الغريب أنها لم تتوتر بالرغم من مضى شهرين على آخر مرة نامت فيها مع بائع الفاكهة ، مدت يدها لكنه أبعدها ، خيل لها أنها أدركت حقيقة انكساره ، تذكرت قولاً تردده دائماً ، الدنيا لا تعطى من جميع النواحى ، إذا أعطت من ناحية أخذت من ناحية أخرى . لم تضيق ، عندما بدأت ارتداء ثيابها أبرزت نهديها ، تحسست ردفيها ، ربما أثارته على البعد ، لكنه دفن وجهه فى الوسادة . ودت لو وضعت رأسه على صدرها ، ناغته ، هدهدته ، خافت رد الفعل ، فى الأيام التالية اختل ميعاد خروجه المسائى ، سمعت أم سهير تقول إن الإنسان يمكنه ضبط ساعته على ميعاد خروجه اليومى ، ماذا يظن بها ؟ هل يقطع كل شىء ؟ ، لأول مرة تسعى إلى رجل مدفوعة بخفقات قلبها ، بالقلق المصاحب لابتعادها عنه ، بالاستيقاظ كل صباح على حلم عذب ، الجلوس إليه فى حديقة تغمرها الشمس ، إن ضيقاً يأكلها ، هل انتهى ما ظنته بدأ ؟ الآن أدركت ضيقه وانكساره . بعد اعلان الزعفرانى تذكرت همسه المخنوق « لم يحدث لى هذا من قبل » ، نبض الأمل داخلها كحركات الجنين الأولى ، رأت فى الطلسم سبباً قوياً لاستمرارها بدأ ، لم يحركها نحوه مجرد رغبتها فيه ، بساطته ، حديثه إليها بديل لمحظات النشوة ، انتظرته يوم الجمعة أمام الحارة ، قررت أن تمشى وراءه والحديث إليه عند ميدان الحسين ، لن تعبأ بالنساء والرجال ، لكنه لم يخرج ، اعتصم بمنزله ، إن ضنى شديداً يعذبها ، لم يبد اهتماماً بها ، ربما يجد المبرر من وجهة نظره بعد الطلسم ، تضيق بالبيت خلال الأيام الأخيرة ، تجلس فى ركن بالصالة حيث تنام مع طفلها الصغير وأمها . تتوه نظراتها فيما يحيطها ، وحدث أن دخلت الحجرة الوحيدة التى تنام فيها سكينة وزوجها ، لاحظت سكينة هذا ، نظرت إلى اختها بقسوة ، لم تلحظها روض ، بدت وكأنها تبحث عن شىء ، خيل لسكينة أنها أرادت الحديث إلى القادوسى زوجها وعندما رأتها

تراجعت ، منذ عودة المياه إلى مجاريها بينها وزوجها تحرص تماماً ألا تفقده ، ما جرى فى الزعفرانى أخيراً جعل مرقدها شوكاً وحصى ، إنها لم تتجاوز الثلاثين بعد وتزوجت ثلاث مرات ، تم زواجها الأول وعمرها خمسة عشر عاماً من لطفى الصائغ ، أحبها وأحبته ، أثث لها حجرتين بالعطوف الجوانية ، بها الماء والنور ، اشترى لها راديو كهرباء ، لكن أمه سمت بينهما حتى دب الخراب ، بعد عام واحد من الزواج وهى فى السادسة عشرة ، من الحلم بابن الحلال ، بعد عام جاءها صبرى شقيقها الذى يعمل بالإسكندرية وقال إن عريساً ليبياً يبحث عن زوجة ، حدثه عن شقيقته فأبدى استعداده ، فرحت أم صبرى ، انتشر الخبر ، قيل إن العريس ثرى جداً ، سيرسل إلى أم صبرى راديو وتليفزيون وفستان حرير طبيعى ، تم الأمر كله فى ثلاثة أيام ، لم يأت العريس إلى الزعفرانى ، أقام فى لوكاندة البرلمان بالعتبة ، قامت أم صبرى بتزيين ابنتها ، رافقتها أم سهير وبثينة وأم نبيلة إلى اللوكاندة ، فى الفجر ركبت السيارة مع زوجها إلى ليبيا ، بعد عودة النساء إلى الزعفرانى أبدين سخرية من العريس . قالت أم سهير إنهم لو وزنوه ذهباً فلن تزوجه سهير ، وقالت بثينة إنه يقف على قدمين أحدهما فى الدنيا والأخرى فى الآخرة ، مضا الأيام ولم تصل أم صبرى أى هدايا ، فى شهر رمضان تناقلت الزعفرانى خبراً يقول إن سكينة أرسلت لفة قمر الدين وكيلو تفاح أمريكانى ، اطمأنت الست بثينة مع مرور الوقت وخشيت فى البداية أن ترسل سكينة بعض الأجهزة الحديثة التى ترفع قدر أم صبرى فجأة ، الحقيقة أن الأم نفسها أدركتها خيبة أمل ، لكن خوفاً من شماتة النساء وسخريتهن تعمدت أن تتحدث عن العز الذى تعيش فيه سكينة ، قالت إن ابنتها تفطر عسل النحل والجبن الأبيض وتأكل اللحم يومياً ، نساء الزعفرانى أبدين شكاً ، لو صح ما تقوله لظهر أثر ما عليها ، لكن جلبابها الأسود لم يتغير ، لازمت أم صبرى وجيمة لانقطاع خطابات سكينة ، وبعد عامين من سفرها جاءت الحاجة فوقية صديقة أم صبرى الحميمة ، بعد دخولها زاعقة باسم الله وبعض الأدعية ، قالت إن رسولاً

جاء من ليبيا وأخبرها بأحوال ابنتها حسنية ، وقال أخباراً من سكينة نقلا عن حسنية المقيمة في نفس البلدة ، سكينة غير سعيدة ، ألا يكفي أن زوجها طاعن في السن ، لا نفع منه ، إنما تتعرض لاضطهاد أبنائه الشبان والشابات ، يعتبرونها خادمة ، يحصون عليها أرغفة الخبز ، السكر والشاى ، انزعجت أم صبرى أسرعت وقتها إلى الشيخ عطية في الفترة السابقة على احتجابه ، جاءت إجابته مؤكدة لما نقلته الست فوقية ، قال إنها تعاني كرباً ، في اليوم نفسه نزلت إلى زوج الست خديجة طلبت منه كتابة خطاب إلى ابنتها لحضورها فوراً نظراً لمرض والدتها ، لم تبال بانزعاج سكينة ، لكنها خافت ألا يسمحوا لها بالسفر إذا وجدوا الخطاب عادياً ، شاع مضمون الرساله في الزعفراني ، هزت النساء رءوسهن وتغامزن ، ما تنبأت به حقيقي ، أكدت بثينة أنها تعرف سيدة من الطبقة الراقية تقيم في قصر حوله حديقة بالعباسية ، ابنتها متعلمة تعلما أجنبياً ، لا تنطق كلمتين بالعربية ، تتحدث عدة لغات ، باهرة الجمال ، خطبها أحد أثرياء الدول الزنجية ، دفع مهراً ، انقطعت أخبارها بعد سفرها معه ، وتزايد القلق بأمها حتى اضطرت إلى استئجار طائرة خاصة لترى ما حدث لابنتها ، وعادت مفجوعة ، أعجب الرجل بامرأته الحلوة ، البيضاء ، وفي احدى الليالي تزايد إعجابه بها فأكلها ، قالت أم سهير هذا جزاء الأمهات اللواتي يبعن بناتهن ، سهير لن تغادر مصر ، وعندما تتزوج ستسكن بالقرب منها ، بل ستنزلها إحدى حجرات الشقة المقيمة بها ، أكدت أم نبيلة أن ما جرى لهذه العروس الثرية أمر مقدر ، سمعت كثيراً عمن يأكلون البشر لا أن ابنتها نبيلة الملتحقة الآن في كلية الآداب قسم انجليزى أخبرتها عن نيام نيام أكلة بنى آدم ، المهم أن الست أم صبرى لم تتلق رداً خلال شهر ، أرسلت خطاباً ثانياً ، ثم ثالثاً ، ورابعاً ، وبعد خمسة شهور رأت أم صبرى رجلاً غريباً يدخل الزعفراني ويقرأ عناوين البيوت ، صاحت عليه من النافذة تسأله عن مقصده ، قال إنه يبحث عن أم صبرى ، زعقت « أنا خدامتك أم صبرى » ، أطلت النساء ولأن الست بثينة تسكن نهاية الحارة ، فقد

سألت أم نبيلة عما يجرى فقالت إن رجلا جاء إلى أم صبرى وأخبرها بوصول ابنتها فجر اليوم ، لم ير أحد سكينه بعد عودتها ، لم تطل من نافذة ، وعندما توجهت الجارات لتحيتها جلسن في الصالة ولم يدخلن الحجرة لمرضها ، والحقيقة أن سكينة قاست أعواماً خشنة ، رافقتها ذكريات بشعة بعد عودتها ، لفترة طويلة بدت غير راغبة في الاختلاط بالحريم ، أو الخروج ، وعندما جاء كمال القادوسي بعد عام من رجوعها وطلب الزواج أبدت خوفاً ، لكن أمها طمأنتها وقالت إن العريس مضمون ، أجرت حوله التحريات اللازمة ، ثبت حسن أخلاقه ، وانتماؤه إلى وظيفة يتقاضى منها حوالى سبعة جنيهات شهرياً ، إلى جانب عمله بعد الظهر في دكان ورق قديم ، بدت سكينة حريصة جداً على زواجها الجديد ، تعرف أى حيرة ، أى ضياع وتلف يلحقها بعد انتهاء علاقتها برجل ، واجهت الخوف من المجهول عندما عاشت في بلد بعيد كأنه ينتمى إلى كون آخر ، أثناء سفرها راحت تفكر ، من سيرضى بها بعد أن أصبحت كالبضاعة التالفة ؟ تود الآن الاستمتاع بهدوء وراحة بين أحضان رجل حقيقى ، من أجل خلوة ليلية في صندوق حجرتها المغلق تحتمل أى مضايقات من زوجها ، خلوة تحكى له فيها عما رأته عندما ذهبت تشترى حاجاتها ، تتوسد ذراعه ، تمرر أناملها على كتفيه وصدره العارى ، في الأيام الأولى لزواجها ظنت أنها مدركة راحة البال ، لولا أن القادوسي كشف عن أمر أخفاه ، ظنها مدخرة بعض المال بعد إقامتها في ليبيا ، سألها كثيراً ، ضايقها ، فتش بعض المواضع في البيت بحثاً عن كيس يحوى جنيهات أو دفتر توفير ، مع كل استفسار منه تضيق لكنها لا تغضب ، توشك على الاختناق لكن صوتها لا يعلو ، ما يوجعها رؤية نفسها هدفاً للطمع باستمرار ، في ليبيا طمع الشيخ وأولاده ، هنا يطمع زوجها في ثروة وهمية لم تحصل عليها ، لا تملكها ، احتملت كثيراً ، حتى أيقنت أنه لم يقبل على طلب يدها إلا مع ثقته بوجود ثروة لديها ، أشد لحظات ضيقها عندما تفاجأ بهمسه في الفراش ، أين المال ، كم ؟ لجأ إلى كافة المحاولات ، ذهب إلى الشيخ عطيه

ليتبثه بكان التروة ، لضمر في نفسه ما سيقوله للشيخ عن سبب اهتمامه ، إذ أنه ينوي افتتاح دكان لبيع أوراق الصحف القديمة ، سيديره لحساب امرأته ولن يأكلها في حلي ، لكنه لم يستطع مقابلة الشيخ ، ذهب إليه بعد بدء احتجابه ، برغم صبر سكينه حدثت مشاجرات عديدة ، اختلقا حول أسباب تبدو لبعض تافهة ، تجاوزها مصروف البيت بقرش أو قرشين ، تركها موقد الغاز مشتعلاً بدون أن تضع فوقه « طبيخاً » أو ماء ، يتصاعد صوته ، يحمر وجهه ، أحياناً يمزق ثيابه فتلطم خديها لأنه لا يمتلك قميصاً آخر أو جلباباً ثانياً ، يضرب صدره بقبضته ، يقوم إلى الصالة ، يصدم كل ما يقابله ، يستدير فجأة متناولاً حذاءه ، يدفع سكينة وأمها ثم يمضي طافشاً ، في المرة الأولى انزعجت بكت مبل حقلها وتعاستها ليلة بأكملها ، فشلت محاولات أمها لتهدئتها ، أكدت عودته بأسرع مما تتصور ، فعلاً عاد في اليوم التالي ، جاء وبه اعياء ، عندما آوت إلى ذراعيه بكى ، طلب منها أن تسامحه ، اجرم في حقها ، هي لا تدري ما يلاقيه من مذلة في العمل وضيق وعسر حاله ، وقلة ما بيده ، احتضنها ، أوشك أن يقبل يدها ، دمعت ، اهتز جسدها بالانفعال ، ارتجفت كفرخ حمام ، فجأة سمعته يهمس ، لو تخبره بما أدخرته فهاك كل شيء ، تزايد ارتجافها ، سحت عيناها دمعاً غزيراً ، لم تمض أسابيع إلا تشاجرا مرة ثانية ، في هذه المرة غاب ثلاثة أيام كاملة ، خرجت تبحث عنه في المقاهي المحيطة بالحسين ، تتمنى اللقاء به صدفة ، عندئذ تحنو عليه ، تعتذر إليه برغم قسوته عليها ، تصحبه إلى البيت ، لكن في مثل هذه الظروف لا يلتقي الإنسان صدفة بمن يبحث عنه ، مضت إلى الشيخ عطية ، وجدت بابه مغلقاً ، في نهاية اليوم عاد القادوسي متجهماً ، لم يبد ندماً ، اضطرت إلى مداعبته ، غسلت قدميه في الماء والملح الدافيء ، في بعد تعودت منه تقلب أحواله وخروجه ، بعد عودته تعلن أنها مخطئة ، وتنحاز أم صبري إلى القادوسي بينما تحمس لابنتها سراً ، تؤكد سكينة استعدادها لأي عذاب يلحقه بها ، لا تريد لحياتها الفشل خاصة انها أم لطفلين الآن ، وتتقدم في السن ، إذا طلقت للمرة

الثانية فمن يرضى بها زوجة ؟ يبدو أن القادوسي أدرك هذا ، إنه يغضب لأتفه الأسباب ، يسارع بهجر المنزل عقب أول بادرة خلاف ، آخر مشاجرة قضى بعدها أطول فترة خارج البيت ، استغرقت مساعي أم صبري شهراً كاملاً ، ذهبت إليه في عمله ، رجت زملاءه ، وجأت إلى بعض بلدياته ، عاد معها ليجد أن عدد المقيمين في الشقة ازداد بحضور روض ابنتها بعد طلاقها من زوجها عبدة عامل المصبغة ، لم تمض أيام وطلست الزعفراني ، كالعادة ألقي المسئولية عليها ، لم قبلت الانتقال معه منذ سبع سنوات إلى الغرفة التي عثر عليها بحارة الجوانية لأنقذ مما حل به ، لكنها رفضت وقتئذ ، لماذا ؟ لكي تبقى بجانب أمها ، تساءل ساخطاً عما جنته من البقاء إلى جوار أمها إلا التحسر ؟ هنا قالت أم صبري بهدوء ، لو تذكر جيداً لما قال ما قاله ، عندما عثر على الغرفة لم يمتلك وقتئذ مبلغ الخلو ، بدا صوتها يختنق عندما قالت انها أرهقت نفسها من أجلهما ، تركت لهما السرير ونامت فوق بلاط الصالة ليتمتعا ببعضهما ، الأكلة الجيدة تحرمها على نفسها وتوفرها لهما ، هل نسي القادوسي هذا ؟ بدأت في البكاء ، ارتبك القادوسي لكنه أراد أن يبدو غير عابيء بهذه الدموع ، لأول مرة تبكي ، أمر غير عادي أن تبكي ، المرأة الشهمة الأشد بأساً من الرجال ، التي لا تدع مناسبة إلا حضرتها ، استمر في الزعيق قليلاً ، اندفع ناحية الباب ، بمجرد خروجه كفت أم صبري ، قالت جادة إنه في أزمة وعليها احتماله ، ستسعى لدى الفران ، خادم الشيخ ، سمعت اشاعات حول رفع الطلسم عن ثلاثة ذكور زعفرانيين ، ستبذل جهدها كله ، ستجند اتصالاتها القديمة بالمشايخ والسيدات الفاضلات المريدات الصالحات ليتوسطن لدى الشيخ فيرفع الطلسم عن القادوسي ، في هذه الليلة عاد سكراناً ، الحقيقة أنه التزم هذه العادة منذ طلسمة الزعفراني ، لكن ثمة هماً أضيف إلى هموم سكينة ، لاحظت نظراته تجاه روض ، لهجته في الحديث إليها جذبت اهتمامها ، ان روض تبدو ساهرة ، تطل كثيراً من النافذة ، لا تعود من الخارج إلا وتكتشف أنها تسببت شراء شيء ، تخرج من جديد ، تلتقي نظراتها

عرضا بالقادوسي ، من يدري ، ربما يفكر في تجربة نفسه معها ، تبدو له حلوة ، متماسكة ، ربما منحته ، ربما بددت أثر الطلسم . ولأن البيت ضيق ويمكن رؤية ما يجرى فيه من أي موضع ، دأبت سكينة على رصدها . اليوم لحظة خروجها من دورة المياه لمحت روض تدخل الغرفة ، هل بلغ الأمر هذا ؟ بدت روض مفاجأة بوقوف القادوسي في ملابسه الداخلية ، ارتبكت ، لم تتكلم سكينة ، أضمرت غيظا ، بعد خروج زوجها تساءلت عما تريده روض من القادوسي ؟ هل تأمل فيه خيرا ؟ من أين يجيء الخير والحارة كلها مطلسمة ؟ بوغتت روض ، سمع صوتها بعد قليل ، تعلن رأيها في القادوسي ، لو عرضوه عليها بعد انتهاء الرجال من العالم لما قبلته ، لوحت سكينة بذكرى عبده الصباغ الذي يسد الأنوف بنتانة رائحته ، تفيض روض بما قالته سكينة ، لابد من اسكاتها ، ماذا يقول عاطف عندما يسمع الزعيق ؟ سيقول إنها ليست فقيرة وجاهلة إنما غجرية أيضا . تبدو سكينة شرسة ، منفوشة الشعر ، تلوح إلى كميات الأكل التي تلتهمها روض في الوجبة الواحدة ، إلى الأصوات التي يحدثها أبنها في الليل والتي تمنع زوجها من النوم ولا تمكنه من الذهاب إلى عمله صحيحا معافى كل صباح ، تحدثت عن ارهاقها المستمر وتنظيفها البيت . وإعداد الطعام ، وذهابها إلى الجمعية وصراعها المستميت لمدة أربع ساعات في الزحام حتى تمكنت من شراء كيلو سمك بستة عشر قرشا طفحت منه روض التي لاهم لها إلا فرد شعرها والخروج ، تنبأ الزعفرانيون بتطور الشجار إلى تبادل اللكمات ، تابعت الست بثينة باهتمام . نظراً لبعدها النسبي إضطرت للاستفسار عدة مرات من أم نبيلة ، عندما أدركت ان السبب غيرة سكينة على زوجها ، طاف بعقلها خاطر غريب ، هل تغار سكينة على زوج عاجز ؟ ربما بقيت لديه القدرة ، هل ستعثر على الرجل الوحيد في الزعفراني أخيرا ؟ هل ستداوي أرقها وضيق أنفاسها الليلي وتقلبها ، ستولي اهتمامها للقادوسي منذ الآن ، خرجت نبيلة المدرسة ، زعقت بعبارات شبه فصحى ، متسائلة عما يجرى ، المفروض أن يهدأ الأهالي خلال النهار ، إذ لا فسحة

للوقت بالليل حيث ينام الجميع اعتبارا من الثامنة ، في ظل هذه المشاجرات لا تستطيع متابعة محاضراتها الجامعية ، وقبل دخولها الشقة رمقت شرفة عاطف ، نظرت أم سهير إلى فريدة وفي عينيها سخرية ، تلمح خفية إلى كلام الأستاذة نبيلة وإشاراتها المستمرة إلى انتسابها الجامعي ، صمت الشجار فجأة ، قيل إن امرأة على الكوبجي التي تسكن في مواجهة أم صبرى لمحت روض تسقط باكية ، بدت سكينة مترددة لحظات ، تقدمت من شقيقتها ، احتضنتها ، سمع صوت بكائهما واضحا ، علقت امرأة الفول على ما جرى بأن الزعفراني بها مس من الجن .

المشاجرة السادسة (لم تتم) :

حدث نفس الليلة أن أصدر الشيخ تعليمات جديدة ، تضمنت مطالب يمكن اعتبارها أوامر . كل ما ينسب إليه يعتبر شديد الخطورة بالنسبة للزعفرانيين ، تبدو بعض التعاليم شاذة ، غريبة ، لكن لا يسمع احتجاج ، أو تعجب ، لا يجهر أحد بمعارضته ، اعتراضات تدور في الأذهان ، لكنها لا تعلن ، بل تجرى محاولات من مشيريها لاقصائها عن تفكيرهم . من يدري ، ربما أدرك الشيخ ما يخفى ولا يعفو ، تضمنت تعاليم الليلة نقاطا هامة نلخصها فيما يلي :

• منع جميع المشاجرات ، بحيث يسود الزعفراني الهدوء سواء في اليقظة أو النوم .

• ضرورة بدء الافطار في لحظة واحدة ، وتوحيد ألوانه ، يقتصر على الفول والحليب .

• حذر الشيخ بعض الذين يقودون حملات فاشلة ضده ، وذكر للمرة

الأولى إن القواد التكرلى حام حول البيت الذى يقيم فيه الشيخ ، وقال إنه لم يتقدم ناحية المأوى خطوة واحدة . وقال إن من يظن نفسه قادرا على وقف ما يجرى فى الزعفرانى ــ وهذا مستحيل ــ هل يستطيع إيقاف ما يجرى فى العالم ، هل « يوقف زمن الفرار » .

قيل إن الشيخ سيلحق أضرارا لا تخطر ببال مخالفيه . إلى جانب إيقائهم ناقصى الرجولة . ربما سخطهم . وهذا فى مقدوره ، منذ سنوات تتحدث الزعفرانى عن حجرين غريبين أمام الفرن ، كل منهما فى حجم لوح الثلج ، قمة كل منهما أقل حجما مما يوحى أن لها شكلا آدميا ، يتجنب زبائن الفرن الاحتكاك بها ، أو الجلوس فوقها أثناء فترات الزحام الشديد على الفرن قبل عيد الفطر والتى يتخللها انتظار طويل للحصول على صاجات الكعك الفارغة . تقول الحكايات إن كل حجر منها أصله آدمى ، غضب عليه الشيخ لسبب غامض فسخها . أحدهما امرأة والآخر رجل . لو مر أحد بالقرب منها ساعة الفجر سيسمع نشيجا وبكاء صادرا من الحجر القائم إلى اليسار . إن رأس الفجلة يقع الآن تحت وطأة أفكار مفزعة وخواطر تهز ثباته ، لأول مرة يتأثر عالمه الداخلى بأسباب جديدة عليه ، لم يهتز إلا لخسارة المال ، أو ضياع فرصة أوشك خلالها على اقتناء شىء ثمين يضيفه إلى مخزنه ، عبث فريدة الصيانى لم يزعجه ، بل أرضاه أحيانا ، طوال زواجها قام بواجبه ، أشبع فمها وفرجها ، حتى جاء الطلسم فأبدل وحول ، فريدة وابنته مازالتا بالخارج ، ميعاد النوم يقترب ، كيف يتصرف ؟ هل ينتظرها ويكسر تعاليم الشيخ ؟ أم ينام ثم لا يدرى فى أى ساعة عادتا ؟

مضر إلى تغيير نظام حياته وسبب هذا خسائر له . دائما يغلق دكانه فى فترة الصباح بينما يذهب إلى صالات المزادات ، تجار الروبابكيا ودكاكين التحف القديمة ، يعرف الباعة الجائلون ، يفضل البحث والتنقيب فى الأشياء العتيقة . يسعد جدا إذ يجد مجموعة من زجاجات فارغة أو آلة كاتبة قديمة ، أو أغلفة مجلدات

انتزعت ، أو محابر نحاسية ، أو تماثيل مثبتة إلى قواعد من خشب ، أو دفاتر حسابات قديمة مثقلة بالأرقام ، ينتهى من جولته فى الواحدة ظهرا ، يدخل المخزن بما اشتراه ، يخرج إلى بيته ، يتناول غداءه . إنه يعتمد على زبون آخر الليل بالنسبة للدكان ، منذ سنوات طويلة لاحظ أن دكاكين البقالة فى الحى تغلق أبوابها بعد الحادية عشرة ، كثيرون يبحثون عن أطعمة خفيفة أو عشاء لأولادهم بعد هذه الساعة ، حتى الثانية صباحا لا يجدون إلا دكان رأس الفجلة ، ربما أدى سهره إلى سهولة عمله كمسحراتى ، لا يدرى كيف ستصبح الصورة عندما يأتى شهر رمضان ؟ هل يسمح الشيخ بالسهر ؟ إلى جانب هذا هو البقال الوحيد الذى يبيع البيرة ، إن زبائن البيرة معروفون ، معظمهم يشربها بعد عودته من عمله الليلى ، من المناظر المألوفة رؤية دكان رأس الفجلة مضاء وسط الشارع المظلم الضيق ، ودكة خشبية يجلس فوقها رجلان أو ثلاثة يتحدثون إلى رأس الفجلة الذى لا يفتح فمه إلا نادرا ، بعضهم يشرب زجاجة كاملة ، آخرون يحتسون كوبا . كوبا ، إنه يفضل هؤلاء لأن بيع الزجاجة مجزأة يرغمه ثلاثة قروش زيادة فى الزجاجة الواحدة . بعض شاربى البيرة يتحدثون إليه طوال جلوسهم ، يتكلمون على مهل مطيلين فترات شربهم برغم ما يلاقونه من صمت ، راحة تغمرهم لوجود إنسان يسمع . إن رأس الفجلة يهتز تأثرا لبعض ما يصغى إليه ، لكن انفعالاته لا تنم عنها حركة أو اختلاجة ، اضطر إلى العودة مبكرا الليلة وإغلاق الدكان ، خسر زبائنه الليليين ، لاحظ منذ البداية ما حدث قلة تردد الرجال عليه ، سمع الحاج السنى بائع الخبز المجاور له يقول إن الرجل الزعفرانى لو لمس شيئا ثم انتقل إلى آخر سيلحقه الطلسم ، أدت هذه المخاوف والأقاويل إلى تناقص الزبائن ، ما يغيظه أيضا عدم قدرته على توفير الوقت اللازم لزيارة تجار التحف ، كل لحظة تمر بدون بحث تعنى أن شيئا ثمينا ونادرا انتقل لآخر ، ما يعزيه أنه أحسن حالا من غيره ، فاخون أفندى اضطر إلى الرقاد فى البيت وطلب إجازة مرضية ، عجزت جهوده عن تغيير مواعيد عمله ، لم يستجب

له أحد ، لم تشفعه خفة حركته ، والمعلومات الدقيقة التي يعلمها عن الوزراء والمحافظين ورؤساء مجالس الإدارات وكبار الموظفين وضباط الجيش عبر السنوات العديدة المتعاقبة ، لا يذكر اسم مسئول كبير أمامه إلا و يذكر فورا مؤهلاته وعائلته وأسرة امرأته ، أصدقاءه والمراكز التي يحتلها أقاربه ، إنه ملازم الآن لبيته ، يتحدث بصوت عال من النافذة عن مشروع يجب البدء فيه ، يعلن عن نواياه فى نقل تفاصيله إلى الشيخ ليشرف عليه ، منذ يومين أثناء نزول رأس الفجلة فتح طاحون باب شقته ، بدأ يتحدث عن السر الهائل الذى سيفضى به إلى جاره الغالى ، تحدث عن أنفاق يمكن حفرها ، تهدف إلى المساواة التامة بين الفقراء والأغنياء ، أصغى إليه جامد الوجه ، عندما أتم طاحون حديثه أكمل نزوله كأنه لم يسمع حرفا ، إن طاحون يطل من النافذة دائما ، يتحدث إلى النساء جاراته ، أم يوسف لم تعد ترى مطلة إلا قليلا ، الأسطى عبده لم يعد قادراً على مقاومة اضطهاد الست بثينة التى أصبحت تستفز جداً من بقائه عاجزا كأى خرقة أو قطعة أثاث قديم ، حاولت معه ، استخدمت أساليب عديدة ، لجأت إلى مشايخ كتبوا أحجبة وتعاويذ ، لم ينفع شيء ، سرى نبأ فى الزعفرانى بهروب عبده السائق ، كثيرون حاولوا التنبؤ بما سيجرى له ، هل سيرفع الطلسم عنه بعد هجره الحارة ؟! رد البعض مذكرين بما قاله الشيخ لحظة شروق الشمس ، إن أثر الطلسم لاحق بالإنسان ، أبدى آخرون أسفهم ، قالوا إنه سيقضى عمره مطلسما ، بعد زوال الطلسم لن يتسامح الشيخ مع الذين تركوا الزعفرانى ، أو تمردوا عليه أمثال التكرلى الذى يجهر الله فى سبيل إتمام عمل يخلص الجميع ، الأسطى عبده أضاع على نفسه فرصة شفائه بين الثلاثة الذين تؤكد الهمسات عودتهم إلى أحوالهم الطبيعية خلال أيام . إن خواطر سوداء تهاجم رأس الفجلة الآن ، شعور يقوى لديه بإمكانية حدوث أشياء لم يتوقعها ، عندما يمضى إلى تجار التحف ، عندما يبحث فى الأكوام المهملة ، فى نفايا الزمن ، لا يفارقه يقين بعثوره على شيء مبهر ، غامض لا يدرى ما هو ، لكنه نادر جداً ، ثمين للغاية ، متى يعثر

عليه ؟ لا يدرى ، ما يتوقعه الآن تغيير هائل فى حياته ، أفكار معينة تدركه ، يراوغها ، يتأمل بعض المتاعب الطارئة عليه بسبب الأوضاع الجديدة ، منذ الغد سيحمل طبقا يتجه إلى أم سهير ليحصل على افطار العائلة ، سيدفع الى عويس ثلاثة امثال ما سيدفعه البناء ، أو زنوبة ، المطلقة ، أو أحمد النجار زوج خديجة الصعيدية ، نصت تعاليم الشيخ على أن يدفع كل زعفرانى مبلغا يوازى تكاليف إفطاره اليومى ، استثنى رأس الفجلة وعاطف الجامعى ، ونبيلة المدرسة والداطورى ، كل منهم سيدفع خمسة عشر قرشاً ، لا يذكر رأس الفجلة إنه تناول إفطاره فى البيت ، يجف لعابه فى الصباح ، عند العاشرة يتناول كوبا من الشاى فى أى مقهى يلقاه ، منذ الغد مضطر إلى تناول إفطاره فى تمام الثامنة والربع مع الحارة كلها ، من خلال الأيام الماضية أدرك إمكانية التعود على كل شيء ، أصعب الأمور لا تبدو ممتنعة إلا فى البداية ، الآن ترن الساعة القديمة رنة واحدة باهتة الملامح ، رنة تحرك رائحة معينة ، ربما رائحة أركان الصالة التى لا يدركها ضوء الشمس ، أو رائحة خشب المقاعد القديم ، تذكره بزمن قديم ، يدق قلبه ، لم يبق إلا عشر دقائق ويحين نوم الزعفرانى ، ليغلق النوافذ ، ليطفىء أنوار الحجرتين ، لا يخدع ، لا يناور أوامر الشيخ ، لكن الخوف مما قد يحدث يرهقه ، أثناء جذبه مصراعى النافذة أطل لأول مرة فى حياته يراقب عودة فرقد ، الزعفرانى هامدة ، البيوت مسها شيء ما ، رفع رأسه ، لمح لجزء من الثانية حسن أنور يقف فى الشرفة ، مشدود القوام ، يرتدى الحلة العسكرية التى اشتراها منه ، أمس جاءه ، بلهجة رسمية بدأ حديثه ، طلب حلة عسكرية مهيبة ، إنتاب رأس الفجلة حماساً ، ذهب إلى المخزن ، عاد حاملاً زيا عسكريا كاملاً ، حلة يميل لونها إلى الأصفر المشوب بخضرة ، على جانبى الكتفين رمانتين من خيوط برتقالية لم يضع زهاء ألوانها ، الصدر مثقل بمجموعة نياشين براقة ، وصلبان زرقاء ، يتسع البنطلون حول الفخذين ثم يضيق عند الساقين ، القبعة لا تساعد على تحديد جنسية الذى ارتداها فى الزمن القديم ، يتوسط مقدمتها نسر ضخم .

جناحاه مبسوطان ، أبدى حسن أنور بهجة صادقة ، إزداد سروراً عندما قدم إليه رأس الفجلة عصاً خشبية رأسها مغطى بمعدن أصفر كالذهب ، طلب رأس الفجلة خمسة عشرة جنيهاً ، قطب حسن أنور حاجبيه ، قال إنه سينقده الآن عشرة جنيهات ، سيدفع المبلغ الباقي أول الشهر ، وافق على توقيع إيصال بالخمسة جنيهات ، أدى تحية عسكرية ، لم يهتم رأس الفجلة ، كل ما يراه هذه الأيام محيراً ، أغرب ما جرى له عجزه وبقاؤه في البيت ، الخلل أدرك هيكله العظمى ذاته ، يبدل موضع الفقرات ، خواطر صغيرة كوميض مصباح كهربائي متقطع ، يعرف فريدة في بيت غريب عارية ، يرى وجهها ، يلحظ ما تحدثه النشوة في ملامحها ، تستدير في غرفة ما ، أين موقعها ، ما عنوان البيت ، من رآها أثناء دخولها ؟ تبرز قدميها ، تتحسس موضع الشيب ، تعقد شعرها فوق رأسها ، تطلب من رجل إدارة رأسه حتى تكمل ارتداء ثيابها ، تمشط شعرها . يقوم ، يثيره ملمس قميصها الداخلي ، كأنه لم يضاجعها طوال الليل ، لم يتحسس جسدها كله ، تبدى مقاومة واهنة ، تتسرب إليه الحرارة ، تهمس بحذر ، « أنا تأخرت » ، رأس الفجلة عاجز عن معرفة مكانها ، يذكر أقوال الشيخ ، ما يسرى على الرجال يشمل النساء عدا واحدة ، ربما نجت فريدة من الطلسم ، وإذا لم تنج فهل ستبوح بما جرى لها ؟ سواء وفق الغريب أو فشل ، هل يمنع الطلسم عبث الأيدي ، وتحسس الصدر ، والأرداف ، إنه يروح ويجئ ، يفكر في الصعود إلى أمه فوق السطح ، في فتح الشرفة وتأمل حسن أنور ، هل ينهي وقفته الغريبة عند الثامنة ، أم يكسر النظام ؟ فكر في ضرب الجدار بقبضته ، في الصراخ ، أن يعزل الخزانة ، هل يمكن اتفاق امرأته وابنته ؟ يفترقان في مكان معين ، تمضي كل منهما لقضاء مآربها ، تلتقيان في المكان ذاته ليعودا معاً ، يجلس متصلبا على مقعد مجاور لباب الشقة ، ترمي الساعة ثماني دقات كالفجيعة ، جرى ما جرى ، غدا سيهرع إلى عبويس ، يعلن ندمه وأسفه ، قبل أن تدق الساعة التاسعة فتح الباب ، نظر إلى فريدة ونشوى ، ينقبض قلبه ، فريدة تبدو راضية ، عبرت ابنتها الصالة ، قالت

فريدة « زمن القرار » ، رد تحيتها ، يخيل إليه أن عبارات السلام العادية قيلت في أزمان نائية ، تمت إلى لغات منقرضة ، خطوات فريدة سريعة ، تحاول الابتعاد عنه ، لم ينطق حرفاً ، لم يتحدث إلى ابنته ، ما يربطهما واه ، كثيراً ما ينظر إليها أثناء عبورها أمام الدكان ، يتساءل ، « أحقا هذه ابنتي ؟ » طقطقة السرير تحت جسد امرأته ، على مهل تمدد إلى جواره ، صمت بارد يملأ الفراغ ، بعد لحظات قال وعيناه معلقتان إلى السقف ، التأخير حتى الثامنة مضر ، قالت إنها لم تتأخر كثيراً ، ليس من المعقول ترك ابنتها بمفردها مع مدرس غريب ، ينتفض رأس الفجلة ، أوشك على الصراخ ، أي مدرس هذا ؟ ألم تقل إنها ستتلقى الدروس مع مجموعة ؟ تذكر انقضاء ميعاد النوم ، عدم إباحة الزعيق ، خرجت ألفاظه مضغوطة بين أسنانه ، قالت إن ابنتها اتفقت مع إحدى المدرسات لكنها لم تف نظرا لانشغالها الشديد ، حاولت الاتفاق مع أكثر من مدرس ليحضر إليها في البيت ، بالفعل جاء مدرس لكن أولاد الحرام استقبلوه ، لم يجرؤ على الدخول ، بعد بحث قبل مدرس إعطاءها دروساً في بيته ، لم تأمن على نشوى فذهبت معها ، صمت ، إن رأس الفجلة يغلي ، أين هذا المدرس ؟ أهو أعزب ؟ ألا تبدو الأم مضروبة أكثر من الابنة ؟ هل تتستر البنت على أمها ؟ دائما ردود فعله بطيئة أمام الأمور المفاجئة ، في الليل تقلب مرات ، خيل إليه أن امرأته تتنهد براحة ، برقت صور قديمة ، سرورها في الأيام التالية للدخلة ، عيناها ، قميصان الفراش ، تأوهات الشبع والفرح باكتشاف منابع المتعة ، في اليوم التالي قطع جولته اليومية ، قرر مواجهتها ، بعيني عقله رأى المدرس يحتضنها ، يميل بجسدها متمهلا ، نشوى تنتظر في الصالة ، لم يتخذ مواقف عنيفة أبداً ، يجب ألا يتردد الآن ، يجب عليها الاحتشام ، يعرف زوجات أخلصن لرجالهن بعد دخولهم السجن والحكم عليهم بالمؤبد ، ما جرى لم يحدث له بمفرده ، الزعفراني كلها تعاني ، الرجال لا يعارضون أملا في الخلاص ، عند مدخل البيت نادى عليه طاحون ، اضطر مرغما إلى الوقوف ، قال إن الفؤاد التكرلي أرسل إلى صحيفة ما جرى ، وأن صحفيا

جاء إلى مقهى الداطورى يستقصى الأحوال ، وأن طالباً بقسم الصحافة أبلغ الأحداث إلى رئيس التحرير المشرف على تدريبه ، ويقوم بجمع الأنباء ، لكنهما لم يدخلا الزعفرانى ، ولم ينشرا شيء بعد ، وأن مخبرين من الأمن المخصوص سألا فى الحى عما يحدث ، يبدو أن الحكومة شمت أخباراً ، هز رأس الفجلة رأسه ، هم بالدخول ، لكن طاحون أشار إلى أعلى ، حسن أنور يقف مرتدياً الزى العسكرى ، يتأبط عصاً قصيرة ، يرفعها من حين إلى آخر ، يشير إلى أعلى ، إلى أسفل ، بسرعة دخل رأس الفجلة ، وقف أمام امرأته ، يعلو صدره ويهبط بسرعة ، حرص ألا يتلفت داخل الغرفة حتى لا تظنه يبحث عن رجل مختبىء ، مطمئن إلى هذا ، تساءلت عما يجرى ، عما به ، ماذا جرى ؟ نظر إليها ، إن العبارات التى فكر فيها ، الصور المتوالية طوال الليل والنهار تبتعد الآن ، لا يدرى ما جرى ، ربما الخوف من تطور الحديث إلى زعيق حرمه الشيخ ، ربما لشعوره بالحاجة إليها الآن ، لا يتخيلها بعيدة عنه ، يضيق بعجزه لكن وجودها اعتاده ، طريقة حديثها ، نظراتها ، رائحتها ، إنه فى حاجة أشد إليها الآن ، فريدة تبدى دهشة ، يرفع رأسه ، لكم تبدو جميلة الآن ، تخفى ضحكة حرصاً على عدم استفزازه ، لم تعهد طريقة دخوله ، يجيئها صوته هادئاً ، فيه ذلة غريبة ، استسلام ، قال إنه لم يحدث ما يزعجها ، كل ما فى الأمر إنه عثر على تحفة رائعة ولم يجد معه ما يكفى من نقود فجاء إلى البيت ليستكمل ثمنها .... » .

* * *

« مذكرة رقم (١) ، من قسم بوليس الحى القديم الى هيئة الأمن الأعلى »

« .. أفادت تحريات رجال البوليس السرى التابعين لقوة القسم أن أموراً غامضة تجرى فى حارة الزعفرانى ، منذ عدة أيام ولا أحد يستطيع دخول الحارة فيما عدا سكانها ، بدعوى الطلسمة ، وكل من يطؤها يلحقه أثر الطلسم ، ويتلخص أثره فى سلب الرجال أغلى ما يملكون ، قواهم الجنسية ، وترتب على هذا عدم تمكين بعض الموظفين الرسميين من أداء أعمالهم . وقد وردت إلينا بلاغات عديدة نوجزها فيما يلى :

١ — بلاغ من موظفى مصلحة الكهرباء (قسم التحصيل — فرع الحى القديم) بخصوص عدم تمكنهم من الكشف على استهلاك السكان من الكهرباء عن شهر مارس ، والفرع يطلب اتخاذ إجراء عاجل وإلا اضطر إلى قطع التيار عن الحارة كلها .

٢ — بلاغ من هيئة الآثار « تفتيش الحى القديم » ، بخصوص عدم قدرة مفتشة الآثار سعاد أبوزيد عن الدخول إلى الحارة ، لقيامها بأعمال التفتيش الدورية على الأثر القديم رقم (٤٣) ، وهو بقايا منزل من العصر المملوكى الثانى ، ويضم نقوشاً جصية وألواحاً رخامية ، وحشوات خشبية ، والتفتيش يطلب اتخاذ إجراء من جانب الأمن لحماية هذا الأثر ، أو تمكين المفتشين من دخول الحارة بدون تعرضهم لأثر الطلسم .

٣ — بلاغ من المدعو التكرلى ، ضد المدعو الشيخ عطية ، وبعض أهالى الزعفرانى .

٤ ــ بلاغ من الأسطى عبده السائق بالنقل العام ضد زوجته بثينة الشريطي ، يتهمها بطرده والاستيلاء على حاجاته .

٥ ــ بلاغ موقع : « رجال "الزعفراني" يطلبون حماية حريمهم من بعض القوادين المحترفين الذين بدأوا يترددون على مقهى الداطورى » .

وأفادت التحريات أن المدعو الشيخ عطية بدأ يفرض رغباته على الأهالي المطلسمين ، وحدد مواعيد ثابتة ، لنومهم واستيقاظهم ، تعارض هذا مع ظروف البعض ، كما حدث لأحد العاملين بمصلحة السكك الحديدية ، أيضاً قام الشيخ بإجبار الأهالي على الأكل في مواعيد محددة ومن أنواع معينة ، كما يقوم بعمل إذاعة على الأهالي بواسطة أحد المتعطلين ، و يعتبر هذا تعدياً على الجمهور ، كما تدخل في أمور تخص الجهات المسئولة ، من ذلك تعهده للأهالي بضمان الأمن والطمأنينة إذا طبقوا ما يطلبه ، وقوله إنه سيعيد ترتيب العالم ، وحديثه عن تعميم أثر الطلسم تدريجياً ، وتوليه مسئولية كافة المواطنين .

رجاء الإحاطة ، واتخاذ اللازم . . . »

* * *

« بعض الحوادث الزعفرانية » .

واضح أن أوامر الشيخ لا تنفذ تماماً فور صدورها . يبدو بعضها في البداية شاق التحقيق ، يعلن البعض تمرده و يبديه آخرون سراً ، لكن استمرار الرفض صعب في ظل الطلسم ، مخالفة الشيخ تؤدى إلى مزيد من غضبه ، حدث بعد منع المشاجرات وقوع حوادث صغيرة ، شهد منزل الصول حالتين في يوم واحد ، أولاهما في شقته ، لم يهمه الطلسم أو عجز الحارة كلها ، أيضاً امرأته ،

الصول يقترب الآن من الخامسة والسبعين ، عمرها مشدود إليه ، سنواته جزء من أيامها ، لا يقدر على البقاء ساعة واحدة بدونها ، إذا خرجت لشراء خضار أو خمسة يقلق ، يطل . يلمحها قادمة فيصيح طالباً منها الإسراع ، يقضى وقته في الحديث عن أصدقائه القدامى وزوجاتهم وعاداتهم ، أو يبحث عن صندوق قديم ليفكه ثم يعيد تجارته ، أو يدق قاعدة النافذة ، يعلق صورة ، عندما يحاول اللعب بأسلاك الكهرباء ترجوه امرأته الابتعاد ، تطيل الرجاء ولا يستجيب إلا بعد أن تحلفه بحياة الأمير ولى العهد . مع مضى أيام الطلسمة بدءا يقلقان . ستتعرض حياتهما لحدث يساوى أثره ما جرى للأهالي ، لم يستطيعا تخمين ما سيجرى ؟ عكس عويس في البيت ترهبها ، يخيل لها سماع أصوات وقرقعة في عمق الليل . عندئذ يرفع الصول رأسه قليلاً ، يؤكد مجيء الجان إلى غرفة الفران ، يلح عليها ألا تأتى بذكر ما تسمعه ، تهز رأسها مجيبة ، يقول إنه يعرفها ، امرأة ذات لسان طويل لا تطيق الاحتفاظ بسر . لا تجيبه في مثل هذه الحالات ، تطلب منه الهدوء عندما يسترسل في سبها ، تقول إن الشيخ عطية سيغضب لو علم أنهما يتحدثان في جوف الليل ، التزما بكافة ما أذاعه عويس خوفاً من المجهول الذي قد يحل بهما ، لكن اليوم أبدى الصول مخالفة ، حدث بعد استيقاظه أن طلبت إحضار نصيبها من الفول واللبن ، تساءل عن أى شيء تتحدث ؟ قالت إنه إذا لم ينزل الآن فلن يتناولا لقمة واحدة وسيجوعا ، فجأة وقف ، هل من المعقول أن يأتى زمن يقف فيه الصول ، طباخ الملوك والأمراء أمام امرأة يأنف الإنسان من رائحتها لتعطيه حفنة فول وتعطيه كوب لبن ، اتسعت عينا امرأته ، قالت فزعة « اهدأ يا رجل يا مجنون » ، هل نسى تعاليم الشيخ ؟ . تذكرت الحجر بين الواقفين أمام الفرن ، باستطاعة الشيخ مسخهما فتمضى السنون ولا يتحركان ، يشاهدان ما حولهما ، يسمعان الهمسة والصيحة ، لا ينطقان أبداً ، اتخذ الصول وضعاً متصلباً ، أعلن عدم خوفه من أحد ، لن ينزل تحت أى ظروف ليحصل على طعام أعد بسرعة ، حاولت امرأته تكليمه ، يمكنها التغاضى عن أى كلام إلا ما تسمعه

الآن ، يمس الشيخ مباشرة ، تعرف زوجها ، ينسى نفسه عند استرساله ، أثاره اقتراب يدها منه ، صرخ بأعلى صوته معلنا تأكده الآن من عدم احترامها له ، تدهور الوضع إلى محاولتها تكتيفه ، حياته العريضة الحافلة لا تحتمل ذل يوم واحد ، قطع الصالة إلى حجرته ، هنا نسيت امرأته كل شيء ، رأت الخطر مجسدا ، سمع صراخها واضحا . أبدى طاحون ضيقه من هؤلاء الحمقى الذين يخترقون تعاليم الشيخ المباركة . كأن الأمر يخصهم وحدهم ناسين إن الخطأ الفردى يعم بآثاره الجميع ، لحظة الصرخة تصادف صعود رمانة السياسى حاملا طبقا مغطى برغيف وكوبا صغيرا ممتلئا باللبن ، زعيق المرأة دفعه إلى الصعود حتى الطابق الثانى ، زعقت امرأة الصول « البارودة . . » . بعد إصغاء رمانة إلى الصول ، إلى حيلته ، والأمراء ، والأطعمة الفاخرة ، وزمان الذل الذى يحاول إجباره على الوقوف فى طابور من أجل حصوله على الأكل ، قال رمانة إن الصول تاريخه معروف ، لا ينكره أحد ، كل ما فى الأمر مرور الزعفرانى بظروف غريبة تدهشة شخصيا ، يظن إن ما يحدث فى الزعفرانى الآن نواة أمر غريب لم يتكشف بعد . الموضوع أشمل وأعمق بكثير من ظاهره ، وهو لا يرى فى إجراء الشيخ الخاص بالطعام ضررا . وهذا مفيد بالنسبة له شخصيا فهو لم يلتحق بعمل منذ خروجه من المعتقل ، نقوده محددة . لن يحصل على أموال من أية مصادر فى وقت قريب ، النظام فى بدايته والأمور فى هذه الفترة تبدو عسيرة . بمرور الوقت يصبح كل شيء عاديا ، اتكأ على الجدار واتخذ وضعا مسترخيا متجاهلا الغدارة المصوبة إلى رأس الصول ، قال إن حياته مليئة بمثل هذه المواقف ، عندما دخل السجن الانفرادى لأول مرة فى حياته ، فوجىء بضيق الزنزانة ، قضى الليلة الأولى مثقلا بالأحزان ، أيقن موته لو مضت عليه ثلاثة أيام ، استحالة الحياة فى هذا الحيز الضيق حيث لا يمكنه المشى أكثر من خطوتين فى خط مستقيم ، حيث لا يمكنه النوم متمددا ، حيث لا إنسان يبادله الحديث ، فوجىء بمرور أيام العمر ، انضغاط الزمن داخل الزنزانة ، ربما لعدم تحركه فى المكان حركة واسعة ، مر

أسبوع ، بعد فترة نسى معالم الأيام ، أصبح الزمن متشابها ، لا فرق بين الجمعة والسبت والأحد وبقية الأيام ، بدأ يحفر خطوطا صغيرة ضئيلة على جدار الزنزانة ، هل يدرى الصول كم يوما انقضى ؟ هز الصول رأسه ، لاحظ رمانة تدلى يده الممسكة بالغدارة ، ستة شهور وأربعة أيام لم يكلم مخلوقا ، توقف رمانة ، قال إنه سيذكر حادثة أخرى ذات دلالة أعمق . فى أول أيام السجن عندما دخل العنبر جاء إليهم أحد السجناء بالغداء ، إناء كبير ملىء بسائل أخضر اللون ، تطفو فيه أوراق نبات ، وأجسام مستديرة ، اسطوانية الشكل ، نظر إلى الطعام بتقزز ، أدار ظهره ، لحظ إقبال زملائه الذين قضوا فترات متقطعة من أعمارهم فى المعتقلات ، لاحظ شرههم ، يذكر قوله لنفسه وقتئذ ، السجن يعلم الروح الإنسانية الغلظة ، فى المساء جاء العشاء ، فول مدمس ، حبات لم يرى مثلها ، لابد من نزع القشور عنها ثم استخراج السوس من داخلها حتى يمكن أكلها ، ابتلع حبات ، فى اليوم التالى جرع الشربة الخضراء الممسوخة بشراهة ، فيما تلا ذلك استمتع بها ، أقسى الأمور تلين مع الزمن ، ما فعله الشيخ لا يخلو من خير ، أثناء وقوفه فى الطابور سمع طاحون يتحدث عن خروجه مرة ليشترى إفطارا لأولاده ، رأى أول الحارة احدى النساء المطلقات ، الضيق يمسك بها ، اقتربت منه ، دعت له بالستر ، طلبت منه قرشين لتشترى بهما طعاما ، قال رمانة إن الاجراء الأخير يجنب النساء الخروج الى بائعى الخضار والجزارين ووقوفهن أمام الجمعيات التعاونية ، خاصة أن البائعين دأبوا على التعرض لهن بسخيف الألفاظ خلال الأيام الأخيرة ، بالطبع فإن امرأة كريمة كزوجة الصول . . هنا لوح مقاطعا ان من يجرؤ على التعرض لامرأته سيفرغ فيه هذه ، هنا أدرك رمانة اللحظة المناسبة ، طلب منه وضع الطبنجة الملكية مكانها ، عندئذ نظر الصول إلى امرأته ، قال إنه من أجل الرجل الذى عانى وسجن سنوات طويلة من اجل المبدأ سيعيد النظر فى موقفه الحالى ، عاد رمانة إلى حجرته ، تذكره تلك الأيام بالسجن ، فمنذ سريان الطلسم لا يخرج ، جزء كبير من وقته يقضيه فى قراءة كتب ، أو استرجاع الأيام

الثانية . منذ أيام زاره شاب زعفراني ، قال إنه حسان بن حسن أنور ، علم بخروج رمانة ، يرغب في توثيق علاقاته به ، ابدى ترحيبا أضمر شكا ، علمته الأيام الجهمة المليئة بالجواسيس ان يشك دائما فيمن يقبل عليه ، تحدث إلى حسان بحذر ، بعد يومين ايقن حماس الشاب وظمأه الى المعرفة ، تذكر ايامه الخضراء عند جلوسه الى « بدر » الذى علمه الاشتراكيه وحب الناس ودله على أولى خطوات العمل السياسى السرى ، رمانة ينتظر حسان اليوم ، حتى الآن طرقا موضوعات عامة ، يرغب رمانة في استكشاف هذا الجيل ، يود مناقشته في امور كثيرة ، بعضها يتعلق بالجامعة ، ما يجرى فيها ، ما يحدث في الزعفراني ، أحوال والده الذى سمع عنه أقوالا متضاربة ، لم يستطع الاسترسال في تفكيره . سمع صراخ طفل فوق السلم ، ولأن اتفه الحوادث يمكن اكتسابه أهمية الآن فقد أسرع بفتح باب غرفته ، مال فوق الحاجز الخشبى ، امرأة ضخمة تميل على طفل صغير ، ترفع يدها لتنهال عليه ضربا ، صاح رمانة ، « حرام ياست » احتمى الطفل به ، سب المرأة من خلال بكائه ، فوجىء رمانة بالست بثينة تقترب منه ، لامسه صدرها الضخم ، برقت عيناها من خلال البرقع واليشمك الذهبى ، عينان واسعتان تعبران عن كل ما يحمله الجسد الهائل من رغبة ، قالت إن هذا الولد اسمه يوسف وهو ابن الست أم يوسف التى تسكن تحت رأس الفجلة ، أثناء خروجها رأته يقف أمام حجرة عويس ولأنها سيدة حرة وشريفة لم تطق المنظر ، أمرته بالانصراف ، لكنه أخرج لها لسانه ، عندئذ انهالت عليه ضربا ، تساءل رمانة عما لا تطيقه؟ خفوت صوتها أرسل قشعريرة في جسده ، قالت . أم يوسف امرأة شرهة ، فى حاجة دائما إلى رجل يبرد نارها ، ظنت الغبية أن عويس هو الوحيد القادر نظرا لقربه من الشيخ ، بدأت تحوم حوله وها هى ذى ترسل ابنها إليه ، ضربت صدرها ، هل رأى أحد أفدح من هذه المصيبة؟ هز رمانة رأسه بدهشة ، جرأة السيدة أدهشته ، خوضها هذه الموضوعات ببساطة شديدة ، نظراتها وحركات يديها تقول معانى أكثر مما تحكيه ، كأنها تود أن ينطق

رمانة مصرحا أنه هو الوحيد الذى أشار إليه الشيخ عطية ، قالت إنها لن تقبل الحال المائل ، نزلت السلم متمهلة ، عند كل درجة تلتفت إلى رمانة ، لا يدرى أحد كيف وصل النبأ إلى أم يوسف ، فورا اندفعت محاولة الخروج ، لكن طاحون تصدى لها بحزم ، بصوت خفيض ذكرها بما قد يعود عليها ، إنها تخالف الشيخ ، تدفق الدم إلى وجهها ، أيقن أن حمقها سيدفعها إلى الحارة ، الزعفرانيون ينتظرون دائما مشاجرات الست بثينة وأم صبرى أولا تليها خناقات أم سهير وأم يوسف ، إن المشاجرات التى تشترك فيها احداهن تصبح فرجة للأهالى ، أى منهن تتمتع باستيعاب ثروة كبيرة من ألفاظ السباب ، والتشبيهات ، وإن تميزت كل منهن بخاصية معينة . الست بثينة تقرن سبابها بالتصفيق ، وتلعيب الحواجب بلا توقف ، وابتداء حركات راقصة ، و يرجع الزعفرانيون ذلك إلى احترافها الرقص زمنا ، أما الست أم صبرى فتعتمد على ضخامة صوتها وقد تلجأ إلى كشف أجزاء من جسدها ، و يقال إنها فرشت ملاءتها السوداء فى إحدى المشاجرات و بدأت ترفع ثيابها ، وعندما اندمجت فوجىء الأهالى المطلون للفرجة تخلع ثيابها كاملة حتى أصبحت عارية تماما كما ولدتها أمها ، وراحت تستدير إلى جميع الجهات ، وكثيرا ما تدعى إلى الاشتراك فى خناقة بحارة أخرى ، وظهورها كفيل باسكات أى خصم ، و يشاع أن لها معجبين يتتبعون خناقاتها ، ويمضون وراءها إلى الحارات القريبة أو البعيدة . أم سهير تعرفها الحارة بصيحاتها الوقور التى تطلقها فى البداية « الله أكبر ، الله أكبر الله أكبر عليك يا ابنة الـ ...... » ترسل السباب غير ناظرة إلى الطرف الآخر الذى تشتبك معه ، تهز قبضتها مرارا ، وترعش اصبعها الوسطى ، و برغم بداية شجارها الوقور لكن الزعفرانى تتأهب لسماع اكبر قدر من الحكايات المليئة برموز جنسية ، وإذا احتد الموقف تغادر شقتها ، تقتحم المكان الذى تتحصن فيه خصمتها ، تنهال عليها ضربا ، تذكر الحارة توجهها إلى محاسن امرأة على المكوجى ، جثمت فوقها ، انهالت بفردة شبشب قديمة عليها ، ترتب على ذلك عدم قدرة على المكوجى الاقتراب منها شهرا . أم

يوسف تبدأ فى هدوء ، توجه حديثا عاديا إلى الجارات ، عادة لا يكف الطرف الآخر بل تزداد حدة الزعيق . هنا تتوارى أم يوسف دقائق ، تعود حاملة طبلة ، تنقر عليها ، تنظم إيقاع شتائمها ، اضطر طاحون إلى إمساك ذراعيها دفعها إلى الحجرة الداخلية ، فوجىء ، لأول مرة يلمسها منذ أيام . نعومتها أرسلت قشعريرة فى جسده . يتذكر المرات العديدة عندما أحاطته ، بأسى يذكر لحظات مللـه ، ضيقه بجسمها ، يود الآن لو شرع فى عناقها ، لكن وماذا بعد ؟ كأنه يجرى فى طريق طويل ثم يصطدم فجأة بحاجز خفى ، لم يأت الصراخ بفائدة ، لو يخبط صدره ، لو يفقأ عينيه ، لو يعض الأرض ، لكنه كالموثق ، أفكاره تلقى ظلالا كثيفة على عينيه ، يأتى صوت امرأته مبحوحا ، خافتا ، ترجوه تركها لترد على هذه الفاجرة ، قال طاحون إنه لا يريد اغضاب الشيخ ، انتزعت ذراعيها ، ضربت صدرها ، ارتمت فوق البلاط ، تعض يدها ، تشد شعرها ، الغريب أن صوتها يعلو برغم حدة انفعالها ، من بين حشرجاتها تقول إنها لا تطيق زمنا يضرب فيه ابنها ولا تستطيع الرد ، يزحف صوته خارجا راجيا منها الصبر مؤكدا عدم سكوت الشيخ على ما فعلته بثينة الغجرية ، طوال اليوم لم تخرج أم يوسف ، لم تطل من النافذة ، لكن الست بثينة لم تهدأ ، لم تستقر فى موضع واحد خمس دقائق متصلة ، تخرج لتشترى أتفه الأشياء ، الساعة الثامنة خرجت لتشترى إبرة خياطة ، مرة أخرى وصلت إلى بيت القاضى وعادت متمهلة ، إن قلبها يتفحم فى صدرها لأسباب عديدة . لم يسبق إنقضاء مثل هذه المدة بدون أن يقربها رجل ، تذكر لياليها مع الأسطى عبده الآن ، استعراضه فنونا يتقنها عندما ينظر إليها ويلمح الرضى يسعد جدا ، يغادر الفراش إلى المطبخ ، يعصر الليمون ، يقدمه إليها وهى ترقد مسترخية ، برغم فحولته يخشى إزعاجها إذا تأخرت قليلا فى النوم ، كثيراً ما غادر البيت بدون أخذ مصروفه ، لا يحتفظ بنقود معه ، يسلمها مرتبه كله أول الشهر ، وتتولى تدبير الأمور كلها ، خلا البيت من الرجل الذى اعتادت أن تأمره وتنهاه . أن تراه قابعا فى الصالة ينتظر خروجها من الحمام ، فى

لحظات كثيرة تتمنى لو طرق الباب وتراه داخلا ، لكنها لم تكلف نفسها عناء السؤال عنه ، لم يذهب إلى ناظر المحطة حيث يبدأ خط الأوتوبيس ، عبده لا أهل له ، لا تعرف له أما أو أبا أو شقيقة ، لم يتحدث يوما عن عمه أو خاله ، لم يتوجه لزيارة أحد أقاربه فى العيد ، لم يزر مريضا ، لم يواس مصابا ينتمى إليه بصلة دم ، تذكر عجزه فلا تطيق تخيل ظله ، مع ذلك تشعر بوحشة شديدة فى ليالى الزعفرانى الخالية من الحركة ، والحس ، آخر النهار دهمتها وحشة ، أطلت . لم تلمح إلا لطيفة ، نادتها ، لن تتأخر عليها ، أثناء صعودها السلم يراودها أمل الحصول على الطعام ، إنها تعانى عوزاً ، هل تستحق هذه المرأة الحديث إليها ؟ ما العمل ، لم تجد غيرها ، ستجد منها إصغاء واهتماما ، أبدت ضيقها من فجر بعض النساء ، وافقت لطيفة بهز رأسها ، ثم قالت إن الزمن فسد ، الدنيا لم تعد هى الدنيا ، الشيخ على حق عندما أبدل عبارات التحية بجملة واحدة ، فعلا هذا زمن فرار ، فرار من الحب والطيبة والاخلاص ، الحقيقة أن لطيفة لا تدع فرصة بدون الاشادة بأعمال الشيخ خوفا أن يلحق الأذى ابنها فى غربته باعتباره زعفرانى الأصل ، لأول مرة تتمنى ألا يحضر ابنها خلال تلك الطلسمة ، تطرقت الست بثينة إلى موضوعات أخرى ، ذمت بعض النساء ، هزت لطيفة رأسها ، هاجمت الست بثينة رجال الزعفرانى المستسلمين لما لحقهم ، سكتت لطيفة ، موافقتها على هذا الكلام فيه مخاطرة ، هاجمت بثينة نبيلة المدرسة ، وصفتها بالنفخة الكاذبة ، الغرور ، تظن نفسها مهمة جداً لا نتسابها إلى الجامعة ، مهما تدرجت فى الوظائف لن تستطيع مخالطة واحد من معارف بثينة فى الزمن القديم ، قالت لطيفة إن بنات هذه الأيام متعجرفات ، خبطت بثينة ركبتها ، قالت إن هذه المعجرفة ظاهرية ، نبيلة هذه مرتبها عشرة جنيهات ، تطبخ حلة مكرونة يوميا فى البيت وتأخذها إلى المدرسة حيث تبيع السندوتشات إلى التلاميذ ، تضطهد من لا يشترى منها ، قالت إن عائلتها تعيش بصعوبة ، شقتهم تقع أمامها مباشرة ، لم يحدث أن شمت رائحة بصل يقلى فى سمن ، كل ما يصدر عن مطبخهم رائحة

الزيت ، لا يذوقون اللحم إلا مرة كل شهر ، تضايقت اطيفة ، تبدو هزيلة
نحيلة ، لا تشم رائحة الدسم إلا بعد وصول حوالات ابنها الشحيحة ، إنها حساسة
جداً تجاه ما يمس فقرها ، بعد ثوان قالت لنفسها أن بثينة لا تقصد ما قالته ، كل
تفكير بثينة اتجه إلى نبيلة هذه ، غضب مفاجىء يملؤها ، نبيلة هي الزعفرانية
الوحيدة التى لم تخض مشاجرة حتى أمها لا يسمع لها صوت فيا عدا بعض
مناقشاتها حول الأسعار مع الباعة الجائلين قبل انقطاعهم ، على مهل تتجه إلى
الشرفة ، الوقت الآن يميل إلى الغروب ، لا شيء يزحم عقل بثينة إلا الاحتكاك
بهذه البنت وكشف غرورها ، يبدو أن الظروف لم تدعها تنتظر طويلا ، قذف
بعض الصبية كرة فيا بينهم ، انهم أطفال زعفرانيون إذ أن الأمهات فى الحوارى
الغريبة حذرن أطفالهن من اللعب بالزعفرانى ، تصايح الأولاد ، هنا ظهرت
نبيلة ، تمسك كتابا ، صاحت ليكف الأولاد عن لعب الكرة حتى تتمكن من
مراجعة المحاضرات ، تلك لحظة مناسبة ، علا صوت بثينة ساخراً تساءلت
مستنكرة عن حجم الضجة التى أثارها الأولاد ، أم من الضرورى افتعال المواقف
لتذكير الناس بانتساب البرنسيسة الداخلة إلى الجامعة ؟ فوجئت نبيلة تماما ،
بدت نبرة الهجوم واضحة لدرجة أن عدداً من النساء سارعن بالنظر ، بعضهن
أقسمن أن اليوم لن يمر بخير ، مصمصت نبيلة شفتيها دهشة ، زعقت بثينة إنها لا
تطيق رؤية بنت مفعوصة ، عانس تجاوزت الثامنة والعشرين ، مدرسة الزامى ،
تموت شوقا إلى شم عرق رجل ، لا تستحم إلا كل شهر مرة ، بنت قليلة الحياء ،
تعاكس الرجال وتتحكم في الزعفرانى ، ألا يكفى ما جرى حتى تجىء مفعوصة
لتأمر وتنهى ، فوجئت الحارة كلها بهذا الهجوم الخاطف المركز الذى شنته بثينة ،
بدون مقدمات ، لم يلحظ أحد أن توترا سابقاً بين بثينة ونبيلة ، سارعت نبيلة
بالدخول متناسية أمها ، صوتك بأنك مذعور ، صاح أحمد النجار مطالبا بثينة
بالتعقل ، ما تفعله يضر الحارة كلها ، لأول مرة يرتفع صوت عاطف الجامعى « لا
يصح يا ست بثينة » إن ماء مغليا يصب فى عروقها ، فرصتها مواتية الآن للهجوم

على شخصين لم يجرحهما أحد أبداً ، تساءلت ، هل يخشر عاطف نفسه لأنها
تدرس فى الجامعة التى تخرج منها ، أم لأن الأمور وراءها ما وراءها ، لا يخفى
عنها أمر مما يجرى فى الزعفرانى ، لا داعى للكلام الآن ، لكن إذا ظنا تعاليهما
على الحارة فهما مخطئان ، بثينة أعلى الأهالى مقاما ، طالما عذبت رجالا لا يحلم
عاطف بالجلوس إليهم ، وربما تدرس عود البوص هذه تاريخهم الآن ، يمط عاطف
شفتيه ، يتوارى داخل شقته ، كذلك أحمد النجار ، حتى خديجة الصعيدية لم
تظهر ، يخفت صوتها ، وحشة السكون المفاجىء تدرك قلبها ، رعشة خوف
أدركها ، تود لو رأت عبده الآن ، البلاط المكشوف ، الجدران القديمة ، الصور
الحاطة بإطارات باهتة ، الباب الذى لا تنتظر أن يطرقه أحد ، الوحدة الليلية
ترعبها ، الغيظ المفاجىء والانفعال الحاد يتحول الآن إلى رعب ، صوت خفى
يكرر عليها فكرة غريبة ، لو أغمضت عينيها لن تفتحهما قط ، ترقب الضوء
الرمادى المقبل فى أصرار قاس ، تبدو أيامها البعيدة منتمية إلى شخص آخر ،
الحرب ، الصالات ، الانجليز ، إنطفاء الأنوار فجأة ، رنات آلة القانون الشجية ، لا
تذكر اسم احد هؤلاء الأغراب ، تذكر تفكيرها الساذج قبل أن يلمسها أول
واحد منهم ، هل ستجده مختلفاً عن المصريين ، تذكر تقلصات وجهه ، خالفت
عادتها أن تغمض عينيها ، أحد أصدقائها المصريين حدثها عن ضعفهم ، تجربتها
معهم أثبتت العكس ، أنات النشوة ، أضواء الصالات ، طرقعة الزجاجات عند
فتحها ، لكم يبدو هذا ضئيلا الآن ، عرفت راقصات ومغنيات امتلأن بالحرارة
والحيوية ، بعضهن سقطن فجأة ، تخشى مداهمة الموت ، لكم يبدو مفزعاً ، تغمض
عينيها ولا تفتحهما ، لا ترى أحلاما ، لا توقظها ضجة ، لن يعرف موتها إلا بعد
تحلل جثتها وفواح رائحتها ، ترى الزعفرانيين يحاولون كسر الباب ، أصوات تعلو
« فعلا لم نرها منذ أيام » ، « منذ أن زعقت لنبيلة لم يسمع صوتها » « هذا ذنب
المسكينة التى لم تأت ذنبا » ، تجلس فى الصالة مستسلمة لبرودة قاسية ، خلال
الوقت المتبقى حتى نوم الزعفرانى لم يرها أحد فى الشرفة ، لم يسمع صوتها ، لكن

هذا لا يعنى أن الهدوء ساد الحارة ، سرت أخبار حوالي السابعة بظهور أغراب بمقهى الداطورى ؟ أكد على المكوجى أن بعضهم قادم من الهند يحمل حلا للمشكلة ، قال طاحون أنهم موظفون جاءوا يستقصون الأحوال . موضوع الزعفرانى لم يعد خافيا ، والدولة مكلفة بحماية المواطنين ، ربما استدعوا الأهالى واحداً ، واحداً ، ماذا سيقال لهم عندئذ ؟ اتجه إلى عويس ليطلب منه نقل تساؤل إلى الشيخ عما يمكن إجابة الأغراب به ؟ والحقيقة انه خلال اليومين الأخيرين لجأ طاحون إلى عويس عدة مرات مستفسراً عن أمور صغيرة كى يضمن ترديد اسمه لدى الشيخ ، وعده عويس بنقل استفساراته ، لم يكذب وعداً ، يقول كل ما يسمعه عن الأهالى ولا ينتظر تلقى جواب سريع ، عرف بأمر هؤلاء الأغراب ، ربما جاء أحد من البلدة يسأل عنه ، ربما أرسل المعلم أبو الغيط يستدعيه ، لن يصل إليه إنسان ، ينسى تدريجيا ملامح بلدته البعيدة ، والمعلم أبو الغيط ، والحمام ، والأفندية المحترمين ، بقاءه بمفرده فترات طويلة يجعله راحلا باستمرار إلى سنوات عمره ، كثيراً ما حلم بحجرة صغيرة ، ورائحة طبيخ تنتظره ، وزوجة ، ازدادت معالم الحلم وضوحا بعد مجيئه مصر ، برغم نومه فى الفرن ، بخار الحمام الخانق ، رطوبة بلاط الرصيف المحيط بمسجد الحسين ، اعتبر هذا كله أموراً عابرة تمهد لأيام الاستقرار ، إذن عليه الاحتمال ، عندما استأجر الغرفة استبشر خيراً ، قضى لياليه الأولى سعيداً ، يتأمل سقف الحجرة المائل والمستعمل كسلم أيضا ، يصغى إلى وقع الخطوات الصاعدة والنازلة ، بدا نومه صعبا خاصة أن عمله وقتئذ فى الحمام يقتضى سهرا ومجهودا عقليا مع الأفندية ، برغم مضايقات الحركة فوق السلم ، بمجرد خروجه يعود إليها خفيف الخطى ، لأول مرة فى المدينة الكبيرة هذه يمتلك مفتاحا لمكان مغلق ، يخلع فيه ثيابه ، يشخر ، يضحك ، يبكى ، يجن كما يهوى ، لا يخشى عسكرى دورية ، أو هجوم نشال أو لص ، خلال الأيام الأخيرة ينظر بخوف إلى سنيته المنقضية ، ثلاثين قضاها باحثا عن اللقمة ، يقعد ساكتا بين المتحدثين ، يتردد على الأفراح ليس

مشاركا إنما عارضا خدماته ، فى المآتم لا يلتفت إليه أحد ، يتخطاه حاملو القهوة ، من يدرى كم من السنوات ستنقضى حتى يفرج عنه الشيخ ؟ فى البداية ظن أنه سيشفى سريعا نتيجة لوضعه المتميز ، مع مرور الأيام ثقل عليه ، يودع جزءاً من عمره فى حجرة الشيخ كلما ذهب إليه . إن فكرة استمراره طوال عمره فى هذا الموضوع ليست غريبة ، سقط فى أسر مريب ، لحظات معينة تفاجئه رغبة موجعة رهيفة حادة كمس الموس فى الذهاب إلى مقهى أبو الغيط ، يلتقى بأهالى بلدته ، يستفسر عن أخبارها ، حتى أمنيته فى امتلاك عربة خشبية ، ماذا تضاءلت ؟ هل يفك الشيخ قيوده بسهولة ؟ كلما ذهب إليه يفاجئه خوف ، يحرص جداً على تنفيذ ما يطلب منه ، حتى لا يمسخ قطا أو حجرا ، الزعفرانيون لا يتجاهلون الآن ظهور قطة سوداء منذ أسبوع ، تقف قريبة من طابور الطعام ، أقسمت أم صبرى أنها سمعتها تتحدث بلغة آدمية ، لم تفسر ما قالته تملك الخوف منها ، يعاملها الجميع برفق ، يمنعون الأطفال من مطاردتها أو قذفها بالطوب ، رهبة داخلهم تؤكد لكل منهم إمكانية لقائه نفس المصير ، سرت إشاعة لا يدرى مصدرها تقول إن القطة مسخ لهم مصطفى العربى بائع الذرة المشوية ، لم يره أحد منذ فترة ، يبدو أنه أطلق تهديدات أغضبت الشيخ بعد أن لحقه الطلسم أثر دخوله الزعفرانى أول يوم . أكدت أم صبرى أن التكرلى سيلقى مصيرا مشابها ، يبدى عويس اهتماما بالاغراب ، خاطر ينبهه إلى وحدته ، إلى انقطاع الدنيا عنه ، اهتمامه بهؤلاء الرجال مشوب بحنين ، لا بد من أخبار الشيخ خاصة أنهم لا ينتمون إلى جهة واحدة ، كما يقول الزعفرانيون ، رأوهم يجلسون متباعدين ، كل منهم لا يعرف الآخر ، حوالى السابعة والربع سرى أن شجارا يجرى أمام مقهى الداطورى حدث أثناء عودة التكرلى وامرأته أن تعرض أفندى من الأغراب لها ، نهره التكرلى بهدوء لكن الرجل لم يرتدع فاشتبكا ، لكن قيلت رواية أخرى ، عندما لمح الغريب التكرلى قام وصافحه ، دعاه إلى الجلوس ، لكنه بدا متحرجا ، أشار إلى امرأته التى تقدمته خطوات ، هنا اتجه إليها الغريب ، أشار إلى التكرلى

قائلا إنه بوسعه الحصول على ثروة لو أصغى إليه ، قال إن الحارة الآن بلا رجال وباستطاعتها العمل فوراً ، تصاعد الدم إلى رأس التكرلى ، ارتعشت أطراف أصابعه ، صاح آمرا الأفندى بالابتعاد ، زعق الاخر قائلا أن مدحت بك لم ينس بعد الجنيهات العشرة التى سرقت منه فى بيت التكرلى ، يجمع الشهود أن جسد التكرلى انتفض هائجا . كأن جسده كله تحول إلى قبضة سددت إلى الرجل ، قفز ناحيته ، ألقاه أرضا ، مال على أذنه ، غرس أسنانه فيها ، أسرع عدد من المارة محاولين تفرقة الرجلين ، قام رجلان آخران ، ابتعدا عن المقهى ، لم يتدخلا لإنقاذ الأفندى الغريب الذى كان يجلس إليهما ، لا يريدان زج أنفسهما فى عراك قد ينتهى بقسم الشرطة ، تتكشف حقيقة كل منهما ، أكثر الواقفين ذعرا هى امرأة التكرلى . يعرف أى حد من العنف والدموية يمكن أن يصل إليه ، فى مثل هذه الحالات يمكنه القتل ببساطة ، نفس بساطة استقباله الزبائن العديدين أعواماً طويلة ، بساطة فرشه ملاءة السرير للزبائن ، جلوسه منتظرا امرأته ، اطلاعه من ثقب الباب على تمرغها فى أحضان غريب ، تعى المرات التى مشيا فيها معا ، بمجرد سماعه كلمة غزل ، أو إذا لاحظ احتكاكا متعمدا بجسدها ، ينتفض جموحا ، يخوض أعنف العراك ، أطلقت صرخات سريعة ، نادته مرات عديدة ، فى هذه المحفلة ظهر على المكوجى ، وأحمد النجار ، نفذا بين المارة ، انهالا على الرجل الغريب ضربا ، لقد سمع على المكوجى بمجيء بعض القوادين الى مقهى الداطورى ، وتعرضهم للتكرلى وامرأته وتشنيعهم على الحارة ، تصادف مجيء أحمد النجار يستعجل كوى جلبابه ، أخبره بما جرى ، أسرعا معا ، لم يتحرك الداطورى من جلسته . ينفث دخان النرجيلة . كأن ما يجرى يحدث فى شارع آخر ، هذا ما يخيل للناظر اليه ، لكنه يشعر فى الحقيقة بجراح تتفتت داخله . لا يراها أحد . الأيام تتوالى والغمة تطول ، وكلما ازداد الأمر استقرارا أصبحت علاقات الناس ببعضهم لبعض أكثر غرابة ، لا ينسى مجيء الست بثينة اليه ، بقاءها مدة ثم سؤالها الفاجىء . هل هو الوحيد الباقى ؟ رجته أن يكشف عن

نفسه . ألا يبخل عليها . إنها تخاف النوم ، ليست بثينة الوحيدة التى شكت فيه ، بعض الرجال نظروا إليه بريبة ، طاحون جاء إليه مرتين ، حاوره وداوره ، لم يرد عليه إلا بهزات رأسه ، اما إيجاباً أو نفياً ، ها هم هؤلاء يقتتلون ، المارة يتفرجون ، أطفال يتشقلبون مقلدين الرجال المتصارعين . زبائن المقهى من أهالى الحى هجروه منذ شيوع ما يجرى فى الزعفرانى ، من يدرى ، ربما أصاب الآخرين ما لحق برجال الزعفرانى ، ينتقل العجز كالمرض بالملامسة أو الاقتراب ، زبائن العمر الذين زحموا المقهى سنيناً طويلة غالية بلعب الورق ، بالطاولة ، بالدومينو ، برواية الحكايات ، بالاستماع إلى حفلات أم كلثوم ، كلهم هاجروا إلى مقاه بيت القاضى والحسين ، اعتاد رؤيتهم فى أيام هدوء البال حتى أن غيبة أحدهم أياما تجعله يكلف خادم المقهى بالذهاب إليه فى بيته والسؤال عنه ، حتى الزبائن العابرون لا يأوون إلى المقهى التماسا لكوب شاى أو تدخين الشيشة ثم الانصراف بسرعة ، أما أصحاب الدكاكين والورش فكفوا عن طلب الشاى والقهوة بعد الغذاء ، لم يعد يرقب خروج الصوانى الصفراء النحاسية تخرج من المقهى محمولة فوق يد الخادم فى اتزان عجيب ، يحاول تخمين ، من سيشرب هذا الكوب الممتلىء ، أى المشاعر ستجول بخاطره أثناء رشفه السائل الساخن ، ينظر إلى الأكواب الفارغة ، بعض الزبائن يترك قليلا من المشروب ، البعض الآخر يمضغ « التفل » ذاته ، نوعية جديدة تتردد الآن على المقهى ، منهم هؤلاء القوادون ، لا يقدر على طردهم ، المقهى للجميع ، نوعية أخرى من الأغراب تجىء ، صباح اليوم جاء شاب فى الثلاثينات ، طلب حلبة مطحونة شربها متمهلا ، تلفت حوله ، نادى عم محمد الجرسون العجوز ، أشار محمد إلى المعلم الداطورى ، قام إليه ، ودلو انصرف عنه ، فارقته الرغبة تماماً فى الكلام ، قال الشاب إنه يعمل صحفيا بجريدة اليوم ، سمع بما يجرى وهو يريد أن يعرف فقط ، مثل هذا الموضوع حساس جداً ولا يمكن نشره على الرأى العام قبل دراسات عديدة ومناقشات طويلة ، أثناء حديثه شغل ذهنه بقضية هل يجيب تحيته بنفس

الألفاظ ، أم يرد « هذا زمن الفرار» ، أمر مثل هذا بالغ الأهمية ، الوقوع فى خطأ غير مقصود ، ربما يساوى التعمد وسبق الأصرار لدى الشيخ ، تملكه خوف ، ليسمع الصحفى كما شاء ، لكن أن يتحدث المعلم عما يجرى فى الحارة فهل يجوز هذا ؟ صمت الشاب ثم عاد يسأل حول حقيقة وجود جنرال فى الحارة ؟ رفع الداطورى حاجبيه ، قال الشاب موضحا إن بعض الأقوال تردد وجود ضابط كبير مجهول الجنسية فما حقيقة هذا ؟ لم يلفظ المعلم حرفا ، ابتسم الشاب وقال إن اسمه جمدى ، سيتردد كثيراً و يسره التعرف إلى المعلم ، أثناء عودة الداطورى إلى البيت مر بحجرة عويس . طلب منه نقل استفساراته الخاصة بالتحية المتبادله مع الأغراب ، وإمكانية اجابتهم عما يجرى ، نظر إلى شرفة حسن أنور ، يظنونه جنرالا ؟ اعتادت الزعفرانى وقفته ، لم يتأخر رد الشيخ إذ أعلن عويس فى ندائه الليلى ضرورة استعمال نفس الألفاظ ، ومهما بدا للآخرين غرابتها فسوف يأتى يوم لا يتعجبون فيه حتى لو أنهم ينطقون بلسان أجنبى ، ولا ضرر من الحديث عن أمور الزعفرانى فما هو بعيد اليوم سيصبح قريباً من الآخرين غداً ، الآن ينظر إلى العراك الذى انتهى ، ابتعد الأفندى ، أمسك التكرلى زوجته متجها إلى الحارة ، جاء على المكوجى وأحمد النجار ، قالا إن هذا زمن الفرار ، رد المعلم التحية ، جلسا ، نظر إلى محمد الجرسون ، انه يدير أعقد الأمور بعينيه ، لا يتحدث إلا نادراً ، لكن محمد الجرسون وزقلة الذى يقف وراء النصبة يعرفان تماماً ما تعنيه كل التفاتة ، بعد لحظات جاء محمد بالشاى ، قالا إنهما يطلبان منع الأغراب من التردد على المقهى ، لا يريدان تهديد الأعراض واستغلال الحارة ، قال على إن المقهى قريب جداً وموقعه يسهل على أى غريب تتبع من يشاء . يلحظ الداطورى توقف بعض المارة ، ينظرون ثم يسرعون ، جلوس ثلاثة من الزعفرانى أمر مثير ، تذكر كلمات عويس عن يوم يجىء فلا تبدو أحداث الزعفرانى غريبة من الغرباء . قال على المكوجى إن الداطورى لن يقبل أى ساكن فى عمارته التى سيبنيها قريباً بإذن الله ، لقد تحدث عن السكان وضرورة انتقائهم ، وعليه

أيضاً اختيار زبائنه ، يشعر الداطورى بثقل يملأ روحه ، منذ هجرة الزبائن لم يعد يتحدث عن العمارة ، لم يأته سمسار بزبون يرجو قبوله ساكنا ، بل إنه لم يفكر فى العمارة منذ يومين ، يمتلىء بحزن ، يطفو حتى يسد حلقه ، يقتل الكلمات عند طرف لسانه ، لم يعد يضيف تفاصيل إلى صورة عمارته ، عدد أدوارها ، لون طلائها ، الطابق الذى سيسكنه ، شكل المدخل ، ينظر إلى جاريه بعينين دامعتين ، لم يجيبا ، ارتبكا حتى عجزا عن القيام عندما لمحا دموعا ، بينما يبدو وجهه البدين جامد الملامح . هل وقعا فى خطأ ، على مهل قالا « هذا زمن الفرار» ، قبل ميعاد النوم الجماعى بربع ساعة خرج بسيونى المجرسى من الحجرة ، زعق منادياً أهالى الحارة أنه برىء من ابنه لولى ، الولد العاصى ابن الحرام يعد عليه اللقيمات أثناء الأكل ، ارتفع صوته قائلا إنه سيسلم ابنه إلى البوليس لأنه يعمل ضد الدولة ، ابنه عضو فى شبكه الاخوان المسلمين ، خرج لولى ، اقترب من أبيه متعبا ، حاول تقبيل رأسه ، لكن الرجل ازداد هياجا ، كرر أنه سيبلغ البوليس الذى عمل فيه عمرا بأكمله ، لن يسكت على الأعمال التخريبية التى سيقوم ابنه بها ، لم يعد ولده ، هل وصل الأمر إلى عد لقيمات الخبز عليه ؟ ، فى الليلة نفسها ، قبل النوم مباشرة أعلن عويس ضرورة حل الخلافات قبل ظهورها إلا سيلقى المخالف جزاءاً مفزعا ، يكفى ما حدث من مخالفات ، وحتى يأتى اليوم الذى تنتهى فيه كل المشاكل ، يصبح الجميع وحدة كموج البحر يدفع بعضه بعضا ، كل موجة تسند الأخرى ، أعلن أيضاً أن الشيخ سيتحدث يوماً إلى عدد مختار من الزعفرانيين ، صمت عويس ، بدا الليل عسيفاً ؟ وسمع صوت لم يعرف صاحبه يقول : « هذا زمن الفرار» ، جاوبه صوت آخر : « هذا زمن الفرار» . . .

* * *

« بعض مما جاء فى مذكرة سرية جدا ، مرفوعة الى مدير هيئة الامن المخصوص » :

بدأت المعلومات فى الوصول إلينا بعد تكليف الشرطى السرى ثابت عبد الجابر من قوة الأمن الممتاز بمتابعة السجين السياسى منصور سليمان وشهرته رمانة ، وذلك خلال الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر مارس ، أنهى إلينا عدم تمكينه من متابعة المذكور وأفاد بأنه عند وصوله إلى الحارة . صاح عليه أكثر من شخص محذراً ، لو خطا خطوة واحدة فسيطلسم ، و برغم تحلى الشرطى ثابت بقدر كبير من الشجاعة ، فإنه تردد ثم قرر جس حقيقة الأمر خوفا من وجود حيلة متفق عليها بين المذكور و بعض الأهالى . لكن اتضح له أن ثمة أموراً غير عادية تجرى . ثم اتجه إلى مقهى الداطورى (صاحبه أحد سكان حارة الزعفرانى) قرر أن يرقب حركة المذكور . ولم يره يخرج إطلاقاً خلال الأيام الثلاثة الأولى ، و بالسؤال الحذر عنه اتضح تواجده فى نفس حجرته ، لا يغادرها إلا ليحصل على طعامه الذى يعد للحارة كلها دون تفريق . لم يتردد عليه أحد نظراً لعدم إمكانية دخول الحارة ، حاول الشرطى ثابت الحصول على معلومات إضافية لكنه وجد بصعوبات . كما لاحظ تردد شاب على نفس المقهى ، تبين إنه يعمل صحفيا بجريدة اليوم ، ويجيء لمتابعة ما يحدث فى حارة الزعفرانى ، وبمراجعة السجلات ثبت عدم وجود نشاط سياسى له ، وقبل التطرق إلى دور منصور سليمان الشهير برمانة نلفت أنظاركم إلى ما يجرى فى الحارة والذى يتلخص فيما يلى :

وجود الشيخ عطية فعلا بالحارة ، بالبحث تبين عدم وجود أى ملفات بالإدارة ، وغير معروف عنه أية معلومات ، وليس لدينا أى صور له ، وأوصافه مجهولة ، و بالبحث فى سجلات جامعة الأزهر بدار المحفوظات ، وكشوف أسماء

حفظة القرآن الكريم ، والمؤذنين ، وطلبة المعاهد الدينية ، الابتدائية والمتوسطة منذ مائة عام لم نهتد إلى اسمه . كما لم يوجد اسمه فى سجلات المدنية ، وأخبرنا مصدر أزهرى باتباع نظام تدريس قديم لم يقض بتدوين الطلبة فى جداول ، حيث يمكن للطالب الانتقال من حلقة درس إلى أخرى . وكثيرون تلقوا العلم فى هذه الحلقات ولم يحصلوا على اجازات علمية .

ثبوت أمر الطلسم ، وقد رصدت التقارير الموضوعة من مصادر عدة أن كثيرا من المواطنين بدأوا يشيرون إلى الزعفرانى ، والطلسمة ، و يوجد فى تقرير النكت اليومى أكثر من نكتة حول لزعفرانى . آخرها ما سجل يوم ٤ / ٣ ، وتقول إن رجلا عجز من النوم مع زوجته فتبجح قائلا إنه مر من حارة الزعفرانى ، ونكتة أخرى تقول إن شخصاً سأل أبى الهول عن سر صمته خمسة آلاف سنة ، فغمز بعينيه قائلا : « هل أنا مجنون ، أنطق فيحسبنى الشيخ زعفرانياً عندئذ يسلبنى قواى الجنسية » .

تتمثل الخطورة فى كشف الشيخ عطية عن نواياه ، والذى أشار إلى قيامه بطلسمة الحارة (عدا شخص واحد لم يفصح عنه) بغرض فرض أوضاع معينة ، وهى أوضاع تنتهى إلى السيطرة على الناس . بعد إلحاق عجز جسيم بهم يتعلق بأدق الأمور التى تخصهم ؟ وهذا العجز يؤدى إلى وضع الحقائق مجسدة أمام الأعين . وكما يقول فإن الإنسان ذاكرته ضعيفة وأفدح الأمور ينساها بسهولة . والبشر لا يتعلمون مما يمر بهم — كما تغيب عنهم حقائق واضحة جلية ، وتسودهم أوضاع تثبتها قوى لا بد من قهرها على حد تعبيره حتى يمكن تغيير العالم وإعادة الإنسانية إلى عناصرها الأولية ، لهذا فإن طلسمت الزعفرانى ليست إلا خطوة تتبعها خطوات . وهكذا يفيق البشر بعد إحداث الصدمة . ثم يضطرون للامتثال إلى ما يريده ، و يقولون إنه وعد الكل خيرا ، وقال إنه لن يعد بآمال ستحققها أجيال آتية ، أو عصور قادمة ، جميع الأحياء فى عالمنا سيرون تحقيق ما

يقوله ، وهكذا يلحق كل إنسان أياماً تهدأ فيها الأنفاس ، وتزول الضغائن ، ومن الأفكار التي وصلتنا عنها بعض التقارير ما يأتي :

١ ـ المساواة الحقيقية بين البشر وفي هذا يقول إنه من الشائع وجود جنس بشري واحد ، لكن كيف يمكن وضع الفقراء المرضى المليئين بالعاهات والآمال التي لن تتحقق في زمرة واحدة مع أغنياء متخمين ، يطالب بتصحيح أوضاع البشرية .

٢ ـ إنهاء كافة الخلافات والمنازعات بين البشر ، ويضرب في ذلك ـ نقلا عنه ـ أمثال عديدة على اقتتال أصحاب مذهب واحد ، أو فكرة واحدة .

٣ ـ استئصال الاحقاد ، والأوجاع .

٤ ـ اجتثاث أسباب الآلام .

وثمة أفكار أخرى لم تصلنا عنها تفاصيل كافية . لكن لا يخفى ما تتضمنه هذه الأفكار ، والاجراءات المتخذة بالحارة من تعد على سلطة الدولة ، وتهديد لقيم المجتمع ، والاعتداء على حريات الآخرين . وتقويض للأسس والأبنية القائمة ، ويلاحظ أن الطلسم قد عزل الحارة تقريباً عن بقية أنحاء الدولة ، مما يجعل القيام بأي أعمال داخلها أمراً سهلا ، ونشير هنا إلى المسجون السياسي السابق منصور سليمان وشهرته رمانة ، ولا يخفى تأثيره في كثير من الأفكار التي يدعو إليها الشيخ ، كما أن بقاءه داخل الحارة عدة أيام متصلة يشير إلى دوره بما لا يدع مجالا للشك ، وباعتبارنا مسئولين عن مقاومة الأفكار الشيوعية الهدامة نوجه النظر إلى ما يمكن للمدعو منصور القيام به في ظل هذه الأوضاع الجديدة الغريبة ، كامتلاكه لماكينة طبع منشورات ، أو أجهزة إرسال ممنوعة ، أو وثائق متبادلة مع الحركة الشيوعية الدولية ، وسنقوم من جانبنا باتخاذ كافة الإجراءات الممكنة للحد من نشاطه الهدام . ونرجو من أجهزة الدولة التعاون معنا في اتخاذ إجراءات ...

* * *

ملف خاص لتفصيل
أحوال حسن أنور

بعض ما جاء فى صحيفة حسن أنور التى يصدرها قبل نومه يوميا :

أربعة لا أمان لهم « المال لو كثر، والحاكم لو قرب منك، المرأة لو طالت عشرتها، الدهر لو صفا » .

ترد هذه السطور بشكل ثابت وتتصدر الصحيفة كشعار، ثم يلى ذلك العناوين و يراها دائما حمراء، فاقعة، والمقتطفات التالية تنتمى إلى عدة أيام .

« عناوين »

فشل البحث عن سمير .. ضاع سمير .

ـ ايقاف عمليات البحث ..
ـ الأعداء يتجمعون .
ـ توحيد قوات الأعداء تحت قيادة واحدة .
ـ حسن أنور يعلن .. انتقامى مروع .
ـ حسن أنور يصرح .. قبلت المنازلة ..
ـ القتال أصبح وشيكا ..
ـ الشيخ عطية يقود عمليات الهجوم .
ـ معارك متفرقة بين الأهالى .

° ° °

« مقتطفات من بعض المقالات الافتتاحية »

« بات واضحا انضمام سمير إلى جانب اعداء أبيه . لم يتضح على وجه الدقة أى جانب انحاز إليه ؟ هل اختار الإلتحاق بسيد بك أبو المعاطى . أم قوات عبد العظيم الجواهرى ؟ . أم انضم إلى القيادة العامة حيث الشيخ عطية ، إن الزعيم يواجه موقفا مأساويا يندر حدوثه ، الابن يبوح للأعداء باسرار والده ، ربما قاد الهجوم الرئيسى ، إن الأمر يصبح بشعا لو جهل منهما الآخر . أى لو التقى الزعيم عرضا فى شبابه المبكر بأمرأة وانجب ابنا شب بعيدا عنه ثم جعلته الظروف أحد قواد الأعداء . حارب والده وهو لا يدرى . اذن أى بشاعة يمكن تصورها فى وضعها الحالى وكلاهما يعرف الآخر، لكن ما نود تأكيده أن الزعيم لن يتراجع . لقد احتمل متاعب كثيرة ، وشقاء لا نهاية له ، سيعلو على جراحاته . حانت اللحظة المرتقبة منذ سنوات » .

ومن نتائج هذا التحليل أن سيد أبو المعاطى قام خلال السنين الماضية بتدبير هجوم بارد ، اعتمد أسلوب الضربات غير المباشرة . المتقطعة . بهدف الحد من قدرة الزعيم على الحلم والأمل ، استند فى هجومه إلى عوامل خفية وأخرى معلنة ، ينتمى إلى الأولى ظروف عائلة الزعيم وعدم تمكنه من الحصول على مؤهل جامعى ، واحلامه من أجل العالم ، أما الثانية فكثيرة ، احتمل الزعيم ما تعرض له . حتى الإزعاجات التى سببها له زملاؤه فى العمل حملة نفس المؤهل المتوسط . أمثال الجواهرى الذى تمكن باساليب ملتوية من الحصول على مكتب يغطيه لوح زجاج . ثم استقل بغرفة ، ثم جهاز تليفون ، وساعى خصص للوقوف ببابه ، وعندما طلب الزعيم تركيب تليفون فى البيت تأخر بحجة قلة الخطوط ، بالطبع يختفى سيد أبو المعاطى وراء مثل هذا التصرف . لقد تغاضى الزعيم عن

كل المعارك الصغيرة الجانبية ، وجه طاقاته كلها لخوض معركة أشمل ، أن يخلق من حسان طبيبا .. وسمير مهندسا ..

قام الشيخ بتجميع كافة ما دبر خلال ازمان مختلفة ، وجه ضربة بارعة ، وهنا نسجل شهادة الزعيم بقوة الضربة و براعتها ، إن هروب سمير جاء نتيجة عمل عسكرى رفيع . وهنا تجدر الإشارة إلى شجاعة الزعيم وقدرته على مواجهة أشد الحقائق ايلاما بموضوعية . إنه يولى اهتماما لتقاليد القتال ، تلك التقاليد التى أهدرها أعداؤه . لكن مهما بلغت ضراوتهم فإن قوى الزعيم متعاظمة وحصيلته العسكرية لا حصر لها . وله قول مشهور ، مادام القائد قد قرر القتال فلا عذر له اطلاقا إذا لم يحارب جيدا . سيجد وراءه ذخيرة من المعارك . اذن يجب عليه أن يحارب و يفوز ..

ء ء ء

« مقتطفات من احاديث أجريت معه . آخرها قبل بدء المعارك بساعات .. »

« الحرب بغيضة وكريهة ، وطالما استمرت فهذا دليل على أن الإنسان لم يصبح انسانا بعد ، لكنها ضرورة عندما لا نجد وسيلة الا دفع الشرور والآثام ، او دفع الحرب بالحرب ..

ء تمنيت طول حياتى أن اعيش بين حلفاء ، يعينونى وأعينهم . لكننى أكتشفت الآن أن عمرى منذ ولادتى سلسلة معارك . أدق المواقف الخاصة معارك فيها كل المقومات التى تنطبق على أشمل معارك القتال ، شراء شيء ما معركة صغيرة . يحاول البائع أن يربح أكثر ، وتحاول دفع أقل . اليس هذا صراعا بين ارادتين مختلفتين ، شروعك التعرف إلى امرأة ما معركة تحاول النفاذ إلى قلبها ،

عند بدء العلاقة واستمرارها نجد كلا من الطرفين يحاول السيطرة على الآخر. الرجل السياسى يقضى عمره كله فى أوهام غريبة يلخصها احيانا فى كسبه موقعا ، تتضمن حياتهم مئات المعارك الضئيلة بالنسبة لشمول الهدف العام . و يظل الهدف نسبيا ...

ء اننى لا أقصد الغاء الصراع . أردت تقديم البرهان على أن الحياة سلسلة معارك ، الصراع ضد الموت أخطرها ، صحيح أن الموت ينتصر على الانسان الفرد ، لكن الانسانية تقهره ، غير اننى بعد الانتهاء من حروبى سأشن قتالا لا هوادة فيه ضد الموت ..

ء سأنازل مالم تشن ضده الحروب من قبل . ساهاجم الشر ، سأسحق المرض ، سيقع الخبث اسيرا لن اطلقه قط ، سأغتال الفقر ابدا وبعد . تلك أهداف حروبى .

ء بالعكس سأجيبك .. إن جراحى عميقة والجراح الغائرة تنزف دائما فى صمت .

« خبر »

تم تجهيز كافة معدات القتال الخاصة بالزعيم ، لقد أمده رأس الفجلة رئيس أحد الدول الصديقة بثياب عسكرية كاملة ، وعتاد ، ومؤن ، وسوف يتم اعداد زى خاص بالاستعراضات التى ستقام عشية النصر النهائى ، تم تجهيز مكتبة ميدانية تضم السير والملاحم والخطط ، وتم اعداد مجموعة دقيقة من الخرائط الفريدة لميدان القتال الممتد من الزعفرانى ليشمل مواقع مختلفة وسنين عديدة . كما تم اعداد المنظار المكبر كاشف ما وراء الحجب ..

ما قبل المعارك .

توقف طويلا أمام المرآة . لابد أن تشعر قواته بهيبته . معاونوه القريبون منه أو جنود الخنادق الأولى . سيتناقلون فيما بينهم أوصافه وطرق تفكيره . وتعبيرات وجهه فى اللحظات السابقة على اتخاذ القرار . المظهر العام هام جدا خاصة أن قواته تضم خلاصة المحاربين ، الآن يتفرغ تماما لخوض المعارك الحاسمة . قطع صلاته بكافة ما أوثقه سنينا طويلة ، انقطع عن الذهاب إلى المصلحة ، انتهى زمن الارتجاف من سيد بك وخطب وده ، يروح ويجيء داخل مسكنه ، تقبع امرأته أقصى الصالة . لا تتفوه بحروف ، الليلة الماضية طلب منها تحديد موقفها ، إما الاستمرار معه كرفيقة عمر وتعضيده فى لحظات الشدة ، تشد أزره خاصة عندما يأوى إلى جوارها فى ساعات الهدوء الليلية . فى مثل هذه الأوقات يظهر ضعف القائد الانسانى . عليها الأحتفاظ بأدق ما يقول واحتمال تصرفاته ، وأما أنها ليست مؤهلة لهذا الدور فتفارقه عندئذ إلى بيت أبيها وتلحق بابنها الخائن ، إنه قوى الشكيمة ويمكنه مواجهة لحظات وحدته بمفرده . لكنه تمنى فى أعماقه الا ترحل عنه . يحتاجها بلا شك ، أحنت رأسها و بكت بكاء مريرا ، قالت إنها لن تتخلى عنه ، اقتسما العمر الجميل معا ، فهل ستهجره لحظات الشدة ؟ تأثر حتى أوشك على البكاء . لكنه يدخر دموعه لمواقف أشد ايلاما . أعتى القادة لا يبكون لحظة تدمير جيوشهم ، لكنهم يبكون كأطفال فى مواجهة موقف إنسانى بسيط . رأى فيها المرأة الصلبة الوفية ، تقدم منها . شد قامته ، رفع يده محييا . سيذكر فى يومياته الخاصة أنه أدى التحية العسكرية لأمرأته لحظة قرارها البقاء معه . لابد من تدوين الأحداث الصغيرة التى تشكل فى مجموعها حياته الخاصة ، ستصبح يوما مادة ثرية يستوحى منها الفنانون أعمالهم ، ستلقى أضواء على شخصيته عندما يتناولها الباحثون والمؤرخون ، قالت امرأته إن حياتها ظلت هادئة وما يجرى الآن فى البيت يشبه حلما ثقيلا ، لقد

طحنها الزمن فى كل شيء ، كل شيء ، ربت كتفها ، قال إنها ستنسى عندما يذوقان حلاوة النصر ، إنه يقدر موقفها هذا يعدها بمنحها وساماً ثانيا بمجرد إنتهاء الحرب . وأن تحتل موقعها إلى جواره فوق منصة العرض بعد النصر ، لم يفه حسان بكلمة . عندما يراه تتذبذب الرقة . و يترقرق الحنين ، لكنه لا يثق بأقرب الخلق إليه ، لايثق بآرائه حتى . يعيد النظر مرات فى الرأى الواحد قبل تنفيذه ، حتى امرأته لا يوليها ثقة كاملة . من يدرى ، ربما وجهت إليه ضربة خفية ، يذكر الآن ، والمرأة لوطالت عشرتها ، حتى لا يتكرر ما حدث من سمير أسند إلى ابنه مسئولية مباشرة تضعه باستمرار فى موقف الحساب أمام والده ، سيعلنه بالمنصب قبل اشتعال المعارك ، كتب سطورا قليلة . أول أمر من أوامره اليومية التى سيوجهها إلى قواده ووحداته . بعد لحظات قام واقفا . حذاؤه يلمع ، والحزام الجلدى العريض المحيط بخصره ، الأوسمة تغطى صدره . هذه الأوسمة سببت له حيرة ، هل يرتديها كلها شأن كثير من القادة ، أم يعلن رفعها ؟ فضل تثبيتها كلها ، رؤيتها ستبعث الثقة فى نفوس رجاله ، على مهل عبر الصالة . خرج إلى الشرفة متأبطا عصا قصيرة ، يحيط عنقه بشريط متين يتدلى من نهايته منظار ميدانى . إن أرق الأفكار التى تمر بأذهان أمثاله فى مثل هذه اللحظات تظل مجهولة ، صمت ثقيل يخيم على الزعفرانى ، النوافذ مغلقة . البلاط يلمع تحت أشعة الشمس . موسيقى بعيدة . تتوالى عليه الصور ، تبدو وملامح موسيقى القرب الشجية . تذكره بأعياد بعيدة ، طفولة نائية تبدو الآن حصنا مباركا آمنا أحصنة أبو زيد . ضمت عليه ظلامه أمنى وأقوى مفعولا . ظلامه مانعة للأكدار ، تنفى الرعب ، تقفر ، للأسف يبلى مفعولها مع مضى السنين . تعلو موسيقى القرب ، حادة ، عازفوها يحاذون الشرفة الآن ، يتبعهم حملة الأعلام . أعلام الجيش والفرق والكتائب ، غابة من الأعلام متعددة الألوان تخفق أمامه الآن ، صراعه الدموى من أجل هذه البيارق على حصون الأعداء ، أعلام القواد الذين استدعاهم من بطون السنين لقيادة جبهاته ، نيبال ، جنكيزخان ، يوليوس

قيصر، لوكولوس، كراسيوس . فون مولتكه، سيدى احمد البدوى، دوق ولنجتون . خالد بن الوليد . نابليون، تخوزوتوف، بسمارك، فريدريك الأكبر، روميل، جورنج، عنترة بن شداد وسيف بن ذى يزن، أبوزيد الهلالى، عباقرة النزال، بعضهم تقاتلوا حتى أفنى كل منهم الآخر. ها هويجمعهم فى إطار واحد، يستطيع رؤية ملامحهم، يعرف ما يتميزبه كل منهم، يعلم جيداً فى أى المجالات سيتم استغلال طاقات إبداعه، يرفع يده بالتحية حتى يتم مرورهم، تخلو الزعفرانى لحظات، تعلوموسيقى نحيلة شاحبة، أعداد هائلة من مشاة المظلومين على مدى الدهور. يحملون كافة الأسلحة بدءا من المقارع والدروع والسيوف والرماح حتى الصواريخ والمجنزرات، إن أياما شاقة تنتظره، ولحظات حرجة، وظروفاً وعرة . إنه يرى أيضاً أياما يحتفل فيها الناس بنشوة النصر، سيدخل مدناً لم يرها من قبل، يشرف على بحار زرقاء تموج بالأمان .

أمر رقم (١) :

يعين حسان حسن أنور، رئيساً عاماً لأركان القوات . و يتسلم مهام منصبه . اعتباراً من لحظة اشتعال المعارك . . »

امر رقم (٢) :

يتم تشكيل هيئة قيادة مشتركة لتنسيق أعمال القوات على النحو التالى :

فيلد مارشال روميل، قائد الفيلق الأفريقى فى الزمان القديم . وقائد القوات الصحراوية حالياً .

أتيلا، زعيم الهون فى الزمان القديم . وقائد القوات الإنتقامية حالياً، ينعم عليه بلقب فيلد مارشال .

الجنرال هملر، قائد الجستابوفى الزمان القديم . مدير المخابرات حالياً .

أول الصدام :

شاءت الظروف أن يبدأ القتال بأسرع مما قدر، إذ جاء حسان رئيس الأركان العامة إلى مقر القيادة وسلم الزعيم خطاباً شديداً اللهجة وقعه سيد أبو المعاطى، صيغ بلهجة بذيئة، تجاهل القاب الزعيم ورتبه وخاطبه بإسمه مكتفياً بوضع كلمة السيد : وصفه متهكما بأنه موظف فى الدرجة الرابعة . أنذره بإحالة الأوراق إلى الشئون القانونية بسبب ما وصفه بالتغيب بدون إذن، إنتفض واقفاً، كيف قبل حسان استلام مثل هذا الإنذار؟ أبدى حسان تردداً، إرتعشت أطرافه « بابا . . » صاح الزعيم معبراً عن رغبته فى رؤية إبنه على أحسن حال، سيجد نفسه منه الآن مشرفاً على أكفأ رجال الحروب، لن يتعامل مع نابليون وفون مولتكه وروميل إنما سيرسم لهم الخطط، إنه المسئول عن إدارة الحرب . طلب منه التوجه إلى مقر الأركان، ألا يحملق فيه هكذا، وتوجيه جورنج لشن هجمات مركزة شاملة بالطائرات القاصفة، استدار متجهاً إلى الشرفة، امرأته لا تجرؤعلى المشى وراءه . يفكرفى إسناد بعض المهام اليها، كأن يجعلها المشرفة العليا على لجنة تضميد الجراح الدفينة، أو رئيسة مداواة الأحزان العميقة، يجب ألا تقضى الوقت فى رثاء إبنها الخائن . سيحسم المسألة بقرار يصدره اليوم، أما الآن فيجب الطيران فوق مسرح العمليات، ثمة ضباب كثيف يغطى المناطق الشمالية الزعفرانية، المنظار يكشف له عن تحركات بطيئة، وأقدام متثقلة . وعجلات، بيارق، مواطنين يرتدون ملابس القتال، يحملون الحقائب، والدوسيهات، يحكون جاكتاتهم، بعضهم يرشف فناجين القهوة، يلقى أعقاب السجائر. يلمح ابتسامات وانحناءات، أحذية لامعة، وأشخاصاً يخطون أوراقاً، وسعاة ينحنون، ومصاعد تفتح بسرعة، ومكانس

تنظف أبسطة ، صوراً فى إطارات مذهبة ، ولوحات تليفونية ، رنين تليفونات ، سوداء ، حمراء ، تليفونات بأقراص ، تليفونات مصمتة ، أفواه تنطق « آلو » ، أسلاكا تهتز ، يدير المنظار ، يسدد الرؤية ، يختبىء سيد بك داخل خندق عميق من الظروف ، يستند إلى حوادث حياة بعيدة ، آمال الالتحاق بالجامعة ، طريق الوصول إلى وظيفة محترمة . إلى مناداة الآخرين له « يا حسن بك » الآمال البديلة ، سنين العمر الخافقة بلهفة الحصول على علاوة جنيه ونصف . سيد أبو المعاطى يقود الجبهة المسدودة إلى أحلامه ، يعاونه عبد العظيم الجواهرى ، خائن آخر . الشيخ عطية يقود الجبهة الرئيسية لتقويض الحياة بمن فيها ، الغبار ثقيل ، يستدير جانبياً ، كل حركة من يديه أو إشارة من رأسه تترجم فوراً إلى واقع عملى زاخر ، تلك الاستدارة البطيئة تعنى رغبته فى استدعاء مدير المخابرات ، يجىء الجنرال هملر ، يحمل ملفاً يضم آخر التقارير الواردة عن أحوال الأعداء ، يلمح فى تعبيرات وجهه ملامح العرفان بالجميل ، الزعيم أسند إليه وظيفة مدير المخابرات بعد سنوات البطالة القاسية التى عاناها منذ إختفاء هتلر ، أمر أيضاً باطلاق يده للبحث عنه هتلر . بمجرد العثور عليه سيعينه مستشاراً أعلى لشئون القوات ، وسيشترك معه المارشال زوكوف ، هكذا وفق بين عناصر التاريخ ، طلب من الجنرال هملر الاطلاع على موقف قوات سيد أبو المعاطى ، بسط الجنرال ملفه السرى ، استند الزعيم بيديه إلى حافة المنضدة .

« بعد أن أرسل سيد أبو المعاطى إنذاره الأخير . تفيد تقارير عملائنا أن جيوشه بدأت التحرك . ومن المتوقع أن تأتى الضربة الرئيسية من إدارة المستخدمين المدعمة بالشئون القانونية والتحقيقات » .

« وبالنسبة لجبهة الشيخ عطية ؟ »

« لمدة ثلاثة أيام ساد هدوء . وفجأة قامت جيوشه باصدار بيان مركز

يدعو فيه إلى إنهاء جميع المشاجرات الدائرة والاستسلام فوراً ، وأمر بتوجه عدد من الأهالى إلى مقره لتلقى التعاليم . وبالفعل مضى إليه الصول سلام ، عقد معه اجتماعاً دام سبع ساعات ، وسوف تحاول مخابراتنا النفاذ إلى ما دار فيه بعد إعتمادكم النفقات اللازمة لتطوير الأسلحة الحديثة ، بعد الاجتماع الثانى أعلن عويس المتحدث العسكرى والناطق بلسان الشيخ عطية ، أنه يجب على عاطف ورأس الفجلة ، وقرقر ، والداطورى ، التوجه إلى منزل الصول لعقد أولى الجلسات الاستشراقية . ستتم الساعة الواحدة من ظهر الغد بعد توزيع وجبة الغذاء » .

« وموقف قواتنا الآن » ؟

يقوم فيلد مارشال رميل بالتفاف واسع النطاق حول خبث عبد العظيم الجواهرى ، يعاونه فيلد مارشال جنكيزخان ، أما عن نتائج هجمة سيد أبو المعاطى فلم تسفر إلا عن بعض مشاعر الخوف اعتبرها مدرجة تحت بند الخسائر .

« أطلب تقريراً كل ساعة زمنية » .

أدى الجنرال هملر التحية العسكرية ، بعد لحظات زعق الزعيم منادياً رئيس الأركان ، يجىء إبنه جامد الوجه ، مد إليه ورقة صغيرة تحوى سطوراً صريحة ببدء الهجوم الفورى ضد جبهة سيد أبو المعاطى . ومحاولة تجميد الوضع على جبهة الشيخ عطية ..

* * *

« التعاليم »

محاولة للحصول على بعض المواد اللازمة لتحقيق صحفي :

فى تمام الساعة الحادية عشرة صباحا ، خرج قرقر الموسيقار متوجها إلى مقهى الداطورى ليلتقى بحمدى الصحفى ، وصل إليه أن من بين المترددين على المقهى صحفيا شابا يحاول الالتقاء بأحد رجال الحارة منذ يومين لكنه لم ينجح ، قرقر يقدم نفسه قائلا إنه موسيقار وعازف قانون وزعفرانى ، يبدى حمدى الصحفى حماسا .. يصفق بيديه لكن قرقر ينبهه قائلا إنه ضيف وهو مدعو ، يقدم حمدى علبة سجائره ، يعتذر قرقر لأنه لا يدخن ، يقطب حمدى حاجبيه ، يقول إن الاسم ليس غريباً عنه ، يبذل محاولة للتذكر ، يخرج قرقر ورقة من حافظة جلدية سوداء ، الورقة بيضاء تتوسطها قصاصة من مجلة فنية قديمة ، خبر نشر عنه سنة ١٩٥٢ ، « و يشترك فى إحياء الحفل سيد قرقر أشهر عازف للقانون فى أوساط العوالم » ، يمد يده بعدد من مجلة الاثنين تسرب لون القدم الأصفر إلى أوراقه ، يقلب الصفحات بسرعة ، يتوقف عند باب « أخبار سريعة » ، يشير بأصبعه إلى سطور قليلة فى منتصف العمود الأول ، النص الكامل للخبر ، يهز حمدى رأسه ، يخرج قرقر صورة فوتوغرافية قديمة ، يمسكها حذرا بأطراف أصابعه ، عبد الحليم حافظ فى سنين شهرته الأولى ، حوله عدد من الرجال ، يبدو فى الصف الثانى وجه مبتسم ، قرقر شخصيا . يقول حمدى إن كثيراً من المواهب الأصلية لم تلق حظها وابتعدت عن الأضواء ، تبدو البداية مشجعة لقرقر . حلم طويلا أن يلتقى بصحفى ، يسمع عزفه ، يدرك موهبته الحقيقية ، لم يفارقه الأمل طوال سنوات عديدة قضاها فوق منصات الأفراح ، يعزف للعوالم والراقصات فى الحوارى ، فوق أسطح العمارات ، فى قرى ريفية نائية ، ها هى ذى الفرصة أخيراً ، يلتقى وجها لوجه بصحفى شاب ، خاف الاقتراب من إحدى الدور الصحفية ، من يعرفه هناك ، ثم من يتحمس له ؟ بقى ضائعاً بين أفراد التخت ، لا فرق بينه و بين

الطبال أو عازف الناى أو الرق ، بل كثيراً ما حاز الطبال اهتمام الناس لما يأتيه من حركات أثناء مصاحبة الراقصة . لم يعل صوت عزفه منفرداً أبداً ، لم يعرف صحفياً ، أو شخصاً بأحدهم ، حتى لو تم هذا فهل لديه الإمكانيات ، يسمع عن انتصار يف الطائلة والولائم الدسمة التى تنفق على الصحفيين ، بمضى الزمن إزداد اقتناعاً أن كبار الفنانين يحاربون ظهوره ، بمجرد حصوله على فرصة كفيل بزحزحتهم عن مواقعهم التى يحتلونها خلف أشهر المطربات ، مع إنه أحق منهم بالشهرة ، من ضحى فى سبيل الفن مثله ؟ لم يتزوج ولم ينجب ولدا ، لو مرض سيموت جوعا ، يركب الدرجة الثالثة سعيا وراء أحياء أفراح فى مختلف أنحاء البلاد . يركب مع زملائه مختلف أنواع المواصلات حتى يصلون إلى قرية لا يلقون فيها تقريراً ، أما الكبار فيسافرون إلى البلاد العربية و يستدعيهم الملوك بالطائرات إلى قصور الملوك ، بعضهم حاربه صراحة ، لكن الجميع يسدون أمامه الطريق بعلاقاتهم مع المسئولين فى الصحف والإذاعة . ها هى ذى الفرصة ، ما يحدث الآن بديل لمصائب الزعفرانى بالنسبة له ، يقول إن عمره ضاع من أجل الفن ، ضحى بكل شىء لإمتاع الناس لكنهم حرموه فرصة ، يقاطعه حمدى قائلا إن الأوان جاء لفرز الحقيقى من الزائف ، يعلم تماماً ما يجرى فى الحياة الفنية وما يسودها من قيم ، يتساءل متعجباً ، لماذا لا يحتل موسيقار موهوب مثل قرقر مكانه ؟ يقول قرقر إنه ينفرد بطريقة عزف معينة وهم يعلمون لذلك يقاومونه حتى لا يصل . ألف بعض المقطوعات التى تلعب فيها آلة القانون دوراً رئيسياً ، يقول حمدى إنه يتمنى سماع بعضها ، يصيح قرقر متحمسا ليدعوه إلى مسكنه المتواضع ، يطرق حمدى الصحفى فجأة ، يتساءل عن حقيقة ما يشاع حول الحارة . يقول إنه مستعد للذهاب بكل سرور فاكتشاف فنان عظيم لا يتم كل يوم لكن يقال إن أى رجل يطأ الحارة يتحول الى امرأة ، يعتذر عن كلماته الأخيرة لكن المدينة تتحدث ، والجهات العليا تمنع نشر الخبر لظروف معينة ، ان هبوطاً يبدأ داخل قرقر ، هل سيتخلى عنه من أجل حوادث الزعفرانى ؟ فجأة يسأل

حمدى الصحفى ، هل قال قرقر إنه لم يتزوج ؟ يعود الحماس إلى قرقر والضياء يلمع فى عينيه المتعبتين ، يضحك بهدوء ، يقول إن حياته تزدحم بعشرات الأحداث التى تصلح مادة كتاب وليس تحقيقا صحفيا فقط . فعلا لم يتزوج ، يتساءل حمدى باختصار . لم ؟ اهتمامه المفاجىء بزواج قرقر جاء نتيجة عوامل متباينة ، لم يرغب فى اظهار نفسه مهتما بما يجرى فى الحارة فقط . لا يريد أن يخسر الرجل الذى قبل الحديث معه أخيرا بعدما لاقاه من رفض الأهالى ، أما الأمر الثانى فهو ورود طيف امرأته ، يود لو قام منصرفا ، ستعاوده الرغبة فى الجلوس بعد شروعه فى القيام . جاء بدافع ذاتى لجمع المعلومات عن الأحوال الزعفرانية ، عندما أبلغ طالب الصحافة الذى يتمرن فى الجريدة رئيس التحرير بما يجرى ، عقد اجتماعا مع قسم التحقيقات وطلب منهم اعتبار الموضوع شديد السرية حتى لا يتسرب إلى الصحف المنافسة ، قال إنه من الضرورى استغلال هذه الحادثة الغريبة لرفع التوزيع ، من المحتمل الا توافق الرقابة لما يتضمنه الموضوع من حساسية ، لكن من الضرورى إعداد التحقيقات حتى تحين اللحظات المناسبة للنشر ، كلف اثنين هما عباس وخالد الذهاب إلى الحارة الخالية من الرجال ، لكنهما عادا فى المساء ، قالا إن الحال مختلف عن الصورة التى عرضها رئيس التحرير ، الظاهرة الزعفرانية معروفة تماما ، أى رجل يطأ الحارة يصبح عنينا والأمر يتعلق بسحر غامض ، عرض عليهما رئيس التحرير مكافأة مجزية رفضا ، فى الصباح التالى علم حمدى بما جرى ، أبدى استعداده للذهاب إلى الحى القديم ، اتفق على تفرغه لهذا الموضوع ، وعدم تحديد وقت معين لاتمامه بشرط تقديمه التحقيقات المطلوبة عند تقرير النشر ، تعهد رئيس التحرير بتقديم كافة أنواع العلاج لو لحقه ضرر ، لم يدر حمدى ما الذى دفعه لاختيار هذه التجربة ؟ زملاؤه سيسخرون منه ، سيقولون ، ليس لديه ما يفقده ، منذ ستة شهور ذهب إلى بعض أصدقائه ليطلب منهم الشهادة على وثيقة طلاقه . أبدى بعضهم دهشة ، زواجه لم يمض عليه إلا أربعة شهور ، ما السبب ؟ أمر لا يصدق ، لابد من اتاحة

اكثر من فرصة حتى يتم التأكد من استحالة العلاقة ، قال وقلب يتسع فى قلبه انهما اتفقا ، قال زملاؤه إن حبهما ظل سنوات الدراسة نارا لا تنطفىء حتى ضرب بها المثل ، آلمه هذا النوع من الردود . يذكر حياة بأكملها ولدت لحظة لقائهما بالجامعة ، البدايات المترددة ، المتأنية ، ثم التصاعد السريع المشبوب الحار ، جرفا كل العقبات ، تهديدات أبيها بقطع مصاريف اقامتها ، مشيهما المسافات الطويلة ، تدبيرهما قروشا قليلة لدفع ثمن كوبى عصير ليمون ، حتى تجميعهما الجنيهات للبحث عن شقة صغيرة . دخولهما جمعيات ، بحثهما عما يناسب المسكن الصغير ، بهجة عينيها عند عودتها من السوق بعد أن اشترت شيئاً يلزم البيت ، عندما أتم النجار صنع دولاب الثياب أشارت مرحة إلى الرفوف الداخلية ، هذا مكان قمصانك ، خرجا إلى المدينة ، تتوسد ذراعه أثناء مشيهما ، وعندما عرجا فى طريق جانبى قريب من النيل تظلله الأشجار شبت على أصابع قدميها ، قبلته ، قالت إنها تتحدى المدينة التى تراقبها باستمرار ، عناقها له قبل خروجها إلى العمل ، احاطتها جسده بذراعيها ، استلقاء عينيها واتساعهما فى ضوء الغرفة الناعس ، سلام ما بعد الارتواء ، تسرب جسدها إلى جسده ، كيف يستمر الحب ، سبع سنوات كاملة حتى ينتهى بزواج ، ثم ينتهى الزواج بعد أربعة شهور ، ما السبب ؟ لم يستطع الإجابة ، فى البيت حاول ادراك العلة . قالت إن حياتها لن تستمر لأنها تريد أن تسافر ، ان ترى الدنيا ، ان تنطلق لتسهم فى تغيير العالم ، لن تتحول إلى معدة طعام ومربية أطفال ومنتظرة لعودته الليلة ، اكتشفت هذا بعد شهر من الزواج ، قاومت فكرة الانفصال كثيراً ، لكنها ستحيل أيامه جحيما ، وإذا لم يوافق فستحاول السفر ، ستطوف العالم ، حمدى عالم بقوة إرادتها ، لم يبد إنفعالا ، اعتاد أفكارها المفاجئة ثم عدولها ، حاورها ، ناقشها ، أبدت إصراراً مخيفا ، قالت إنها تعزه جداً ، وتحترمه ، وفى اعتقادها انه سيجد الكثيرات ، العالم واسع ومزدحم ، كما التقيا سيلتقى بغيرها ، لم يبد غضبا إنما راح ينتظر إنتهاء الفكرة العارضة ، تذكر أنه أحب فيها مشاريعها المفاجئة ، حماسها المفاجىء

للأشياء . حتى لتبدو لحظة حماسها انها مستعدة بتضحية عمرها ، ثم تكتشف بعد قليل خطأها او اندفاعها أو تبدل رأيها . في عصر يوم خريفي شعر كأن يدا أمسكت عموده الفقري و سحبته بعيداً ، نظر إليها فكأنه يتأملها أول مرة . كأنه لم يعاشرها ، لم يضاجعها ، لم ينتقيا أشياء بيتها الصغير ، لم يتخيلا معا طفلهما المرتقب ، حول عينيه إلى الستائر ، فيما بعد تساءل بدهشة ، هل مشت شهرت أمامه بقميص النوم في البيت ؟ أوشك أن يسمع تمزق حبال اتصالها ، في اصفرار الضوء النهاري المتعب أدرك ان ما استمر بينهما انتهى ، المقاومة مستحيلة ، المجادلة لا جدوى منها ، اجتاز تلك اللحظات التي لا يبادل فيها الحبيب حبيبه نظرات الود ، التي لا يحرص فيها على مشاعر الآخر ، شيء داخله ينتزع و يلقى بعيدا ، فكر بأسى ، لكم يتغير الإنسان ، لم تعد شهرت تخصه ، انفصلت عن دنياه ، في نفس الليلة عبر الصالة وطرق باب الغرفة التي آوت إليها مبتعدة عنه ، قالت « نعم » ، خرجت إليه ، أوشك على الانهيار عندما رأى حضورها الذى أحبه ، تساؤل عينيها الحلو ، قال إنه سينفذ رغبتها ، قالت « شكراً » ، عاد إلى غرفته مهجورا ، خربا ، في اليوم التالي سأله أصدقاؤه ، ما السبب ؟ لم يستطع الرد ، ذهب إلى بعض أهالي بلدته قالوا إن ابغض شيء عند الله الطلاق ، السماء تهتز عند حدوثه ، سألوه ، ما السبب ؟ أثناء مشيه وسط المدينة تذكر متجراً يمتلكه أحد زملاء الدراسة الثانوية ، استرجعا ذكريات الزمن القديم ، قال صاحبه إنه يتابع ما يكتبه و يفخر به ويحرص على ان يقرأه ، ثم أصغى الزميل القديم بدهشة وتساءل عن ضرورة ذلك ، قال حمدى إنهما متفقان ، حاذر ألا تتسرب دموعه ، قال الزميل القديم إنه سيأتي ومعه أخوه ، تم تحديد موعد ، استأجرا عربة تسع لأربعة ركاب ، جلس حمدى وشهرت في المقعد الخلفي ، الشاهدان في المكان الأمامي . من النافذة رأى متاجر رجال مرور ، راكبي دراجات بخارية يتجاوزون بسرعتهم التاكسي . باعة فل ، أطل أحدهم ولوح بعقد ، حار حمدى ، ولت وجهها بعيداً ، عندما وصل التاكسي إلى مكتب

المأذون أصر الزميل على دفع الأجرة . جلسوا على دكة خشبية مستطيلة في مواجهة ثلاثة رجال يرتدون الزي الريفي ، أغطية رءوسهم من اللباد ملفوفة بشيلان بنية اللون ، علقت لوحة تحمل كلمات خطت ببراعة ، « يقيني بالله يقيني » . ساد الصمت لحظات ، ركزت شهرت نظراتها على اللوحة ، فوجىء بتفسه يبتسم . ثم يضحك ، ضحكت شهرت ، حاول الامساك بنبرات صوتها ليستعيدها بين الحين والحين ، أيضاً ضحكتها ، تبتسم بعينيها وشفتيها وأنفها وقلبها ، تبدو وكأنها لن تنتهي ، ضحكة باقية أبدا ، نظر الشاهدان بدهشة ، بعد إنتهاء الإجراءات قام حمدى إلى قلة مغطاة بكوب زجاجي . شرب حتى القطرة الأخيرة . جلس ، رأى الكوب في غير موضعه ، قام مرة أخرى ، أعاد إلى مكانه ، قالت شهرت إنه مازال يشرب الماء بكثرة ، أعادت إليه الألفاظ اهتمامها بأشيائه الصغرى ، لم يهزه توقيعه على وثيقة الطلاق ، لكن اهتمامها المفاجيء به أوشك أن يقصفه بتيار أسى لاراد له ، قالت إنها ستقيم معه الأيام القليلة المتبقية في مصر حتى تتم إجراءات سفرها ، لو ضايقه وجودها ستذهب إلى ملوى صاحبتها ، قال إنها لن تضايقه ، لو صح العكس يمكنه مغادرة البيت ، فوجىء بحديثها عن الرحيل ، لم يسألها التفاصيل ؟ لم تعد جزءا منه ، ترى متى اكتملت فكرة السفر في ذهابها ؟ أين موقع اللحظة من أيامها الماضية ؟ تذكر حوارا جرى بينهما منذ أيام بعد العشاء ، قال إنه لا يحب مضغ اللبان ، قالت إنها تكره من يأكل البطيخ بصوت عال ، في الصباح خرجا معا ، عند عبورهما الطريق امسكت يده ، فكر ، انها تدفعني برقة ، عندما تحرك قطار المترو التقط رقمه ٨١٩ ، انه يحمل قطاعا متكاملا من حياته ، الركاب والمحصل لا يعلمون شيئاً ، أقسى ما مر به خلال الأيام التالية رؤيتها تعد أوراقها ، الباسبور ، أجازتها ، أوراقا لا يعلم عنها شيئاً ، عندما لمح بطاقة التطعيم الصفراء تطل منها تذكرة طائرة مستطيلة عكسته الجهامة ، إنفصلت عن حياته كمرحلة أخيرة ، من صاروخ تاه ولم يتخذ مداره بعد ، يرقبها كميت احتفظ بوعيه فراح يتابع إجراءات دفنه ، كلما سمع

حركتها الليلة يرى نفسه فى مدينة أقام بها زمناً طويلا وفجأة أجبر على الرحيل ، راح وجاء داخل حجرته ، لا يستطيع الجلوس ، لا يرقد ، لا يقف ، لا يخرج ، لا يطيق الذهاب إلى الجريدة ، فى منتصف الليل طرق بابها ، لم يدركها النعاس بعد ، « أدخل » دفع الباب قليلا ، بدا الليل والشتاء موحشين وكأنهما الأيام الأولى من خلق الدنيا حيث لا يدب إنسان ولا يسعى حيوان ولا يزحف نمل ، طال صمته ، قالت متسائله بخوف « ماذا تريد » ؟ رجاها ألا تتركه ، بدا الصمت ثقيلا كالوحدة فوق قمم الجبال ، أو التيه فى عرض البحر ، أو هبوط اضطرارى فى صحراء مجهولة . لم ترد . لم تقل حرفاً ، إنسحب إلى غرفته يتيماً ، أول ليلة قضاها وحيدا حدث نفسه بصوت عال ، الهزيمة ، يجب أن يتماسك حتى يلملم بقاياه ، أهذا ما دفعه إلى قبول المهمة الصعبة والحصار محكم والأسر قائم والجراح رخوة ، هل أخطأ عندما أحب حماسها المفاجىء ، إصرارها على تحقيق ما تشرع فيه ، هذا الإصرار الذى دمر وخرب وأباد .

إنه يعود من رحيله البعيد ، ينتبه إلى قرقر الذى يواصل حديثه ، ربما آثر الاستمرار حتى لا يحرجه ، قرقر يتحدث عن المرأة التى أحبها ، عزفه وراءها فى جميع الأفراح التى أحيتها ، سنوات طويلة يتبعها أينما ذهبت . لا تولى عواطفه اهتماماً ، تعمدت دائماً الحديث عن عشاقها أمامه . تجلس آخر الليل تدخن الشيشة ، ترقب تعبيرات وجهه إذ يفتح الحجرات ، قال قرقر إنها لن تعوض ولن يخلق مثلها (فكر حمدى باسى ، إن كل رجل يرى فى حبيبته شيئاً لا يعوض » ، قال قرقر إنها عاشت ليومها فقط ، لم تجهد نفسها فى الجرى وراء إنسان ، لم تفكر فى الغد ، كل يوم تبدو وكأنها تعيش آخر أيامها . تضحك أشد الضحك ، إذا بكت تبد وكأنها آخر ما تمارسه ، كأنها تتزود لسنوات مقبلة ، قالت دائما إنها لن تحب ، لو أحبت ستنتهى ، ستموت إذا هجرها الحبيب ، فى أوقات إبتعاده عنها

يذهب إلى زملائه ، يبدأ الحديث ، يطرق أى موضوع وفجأة يتطرق إلى ذكرها . ربما غنى بعض ألحانه لها . وأخبرهم عن شيء بها ، شيئاً فشيئاً يتحدث عن عواطفه تجاهها ، يذكر سؤالا وجه إليه مرات ، هل تحبك سكر ؟ يطرق ، قال له المعلم صبحى عازف العود المشهور إن مثل هذا الحب يعطله عن الفن ، قال قرقر إن معظم الفنانين عاشوا تجارب فاشلة ، رد المعلم صبحى ، ليس فى كل الأحوال ، وإلا أنظر إلى عبد الوهاب وملاحقه النساء له ، ينظر الآن إلى حمدى ، يقول إن المرأة تهوى الرجل الذى يجرى وراءها ، لو يعلم إمرأة تحبه ولا يبادلها نفس المشاعر فلن يطيق اقترابها منه . لكن المرأة عكس ذلك ، تحب الاحتفاظ بالمولهين بينما تبذل مشاعرها لشخص مختلف تماماً .

يبتسم حمدى ساهما ، تساءل صامتاً ، « هل بدا ضعيفاً » ؟ بالعكس ، عاطفتها بدتا متوهجة دائماً ، ما أبدته من رقة ، اهتمامها به ، قال لها إن عواطفه تعبر عن نفسها فى صمت ، لهذا لا تنزعج إذا رأته مقلا فى ألفاظ الحب ، أسرعت بضمه ، قالت إنها تود الشعور بقربه ، متى تبادلا هذه الكلمات ؟ قبل رحيلها بشهر ، قبل الطلاق بعشرين يوما ؟ .

يسأل حمدى الآن ، هل يمكن لعاطفة من طرف واحد أن تعيش سنوات طويلة ؟ يهز قرقر رأسه ، لشدة ما أحدثته سكر من آلام أصبحت أمراً إعتاده فى حياته ، يتفتق زمن كامل ، يكشف صوراً أوشكت على الإندثار ، وروائح كاد ينساها ، أشواقاً غامضة لا يدرى طبيعتها . بعد سنوات من صحبة سكر بدأ يرى فيها أكثر من امرأة ، كل شيء يتصل بها ، حتى ما تسببه من ضيق إعتاده ، أحب جفاءها معه ، صدها إذا تودد إليها ، أليس تشددها نتيجة لعلمها بعواطفه ، ما من خاطرة لديه إلا مصبوغة بظلال سكر ، كيف يجيب هذا الصحفى الذى يبدو متعجباً من استمرار حبه زمناً .

جاكتته قصيرة ، جوربه ممزق ، لم يعد يرتدي الجلباب الأبيض ، رق جلد عنقه وتجعد ، أما الأستاذ الزنهوري فرحل إلى الجزائر وطنه الأصلي ، يجيء بعض السماسرة إلى الداطوري يصحبون الزبائن ، يتخلى أحياناً عن صمته ، يسأل الزبون عن عمله واسمه وعائلته ، ويخرج نوتة زرقاء يضم أوراقها باستك رفيع ، ينزعه ، يدون بالقلم الكوبيا بعض البيانات ، يطلب من الزبون المرور عليه بعد ستة شهور. يرفض أي نقود تعرض عليه بحجة أنه لن يتقاضى مليما كخلو ، تفككت حلقات كثيرة أحاطت حياته ، لن يغلق المقهى حتى ولو أصبح جليسه الوحيد،حتى لو رحل محمد الجرسون في أثر زقلة واضطر إلى إعداد الشيشة بنفسه ، واجه ضغطا من جيرانه لكنه قال إنه لا يستطيع منع أي زبون ، ولن يغلق المقهى إلا إذا أمر الشيخ عطية ، ألا يكفي أنه يغلق المقهى أول الليل حتى لا يتخلف عن ميعاد العشاء والنوم ، والدخان أيضاً تغير ، أين عصر التمباك الأصلي ، أنواع مختلفة ، عجمي وأزميرلي وعدني وتركي وهندي ، لا يوجد الآن إلا زبالة التمباك ، في الزمن الرائق البعيد لم يزد سعر الأوقية عن ثلاثة قروش ، تقارب الجنيه الآن ، يذكر سنوات عمله جرسونا في مقهى عكاشة الكبير ، عاش سنينا يأمل امتلاك مقهى ، وعندما تحقق حلمه اختلف الزبائن والسهر لم يعد له طعم ، لكم اعتنى بمقهاه ، طلاه كل عام بالزيت ، علق به لوحات زيتية باعها له طالب فنون جميلة ، المقهى مجمع الهموم والأشواق ، إنه يطيل تأمل الأفندي الشاب الجالس إلى قرقر ، يألفه ، هذه الألفة ليس من السهل على صاحب المقهى الشعور بها بسرعة تجاه زبون بعينه ، يحتاج نموها إلى زمن ، الزبائن الدائمون يعرفهم و يوليهم اهتماما خاصاً ، مظاهر بسيطة لكنها ترضيهم ، تشعرهم بتميزهم عن الزبائن العابرين ، مثلا عندما يرى الجرسون أحدهم قادماً يزعق « شيشة يا جدع للأسطى أحمد ، أو شاي ياجدع للمعلم فرج » ، عندما يحضر القهوة يجيء معها بكوب ماء به قطعة ثلج صغيرة ، إنه يعتبر هذا الأفندي من الزبائن الدائمين برغم تردده على المقهى منذ يومين ، ربما لسماحته وأدبه والوسط الطيب الذي

ينتمي إليه . عرف اسمه ومهنته من محمد الجرسون ، لم يتعجل الاطلاع على الغرض من مجيئه ، سيعرف كل شيء في حينه . غرباء كثيرون ترددوا على المقهى خلال الأسبوع الأخير ، بعضهم تسبب في متاعب كالقوادين ، والبعض الآخر سأل بشكل عام عن الحارة ، لم يرهم مرة أخرى . صباح اليوم جاءه شرطي من هيئة الأمن المخصوص . قال إن اسمه ثابت عبد الجابر و ينتمي إلى قسم مكافحة الأفكار الهدامة ، وجه أسئلة عديدة حول رمانة السياسي ، طلب معرفة تحركاته في الحارة ودوره في الأحداث الأخيرة . وقال إن القسم يتخذ الاجراءات الكفيلة بالقضاء على جميع أنواع المشاكل الموجودة والتي يرجح أن سببها رمانة السياسي ، لم يجبه الداطوري إلا بألفاظ محدودة ، لا علاقة له برمانة ، بدا [illegible]طي متعجلا ، انصرف بعد أن حذر الداطوري من ذكر أي شيء عن زيارته أو الحوار الذي دار بينهما ، بعد حوالي ساعة جاء شاب يرتدي الملابس المدنية أيضاً ، سأل الداطوري ، « هل أنت زعفراني ؟ » رد محمد الجرسون بالايجاب ، ابتعد قليلا بمقعده وقال إنه ينتمي إلى هيئة الأمن المخصوص ، قسم مكافحة التعصب الديني ، استفسر عن نادر بسيوني الهجرسي المشهور بلولي ، سأل عن أصدقائه والمترددين عليه ، والمظاهر التي تدل على نشاطه السري ، وعلاقته بالشيخ ، وقال إن دوره في أحداث الحارة غير خاف على قسم مكافحة التعصب ، وان المواطنين الشرفاء أرسلوا خطابات عديدة يحذرون من نشاطه . قال الداطوري إن علاقته واهية بشباب الزعفراني ، انصرف الضابط بعد أن طلب الانتباه إلى تحركات نادر الهجرسي المشهور بلولي حتى يمكن نجاح الاجراءات التي يتخذها القسم لمكافحة العصبية الزعفرانية .

ينتبه الداطوري إلى قرقر ، بصوت عال يقول قرقر إنه يسره جدا تقديم الأستاذ الصحفي المشهور حمدي إلى المعلم ، يقوم الداطوري متثاقلا ، يسمع حمدي فرقعة الهواء في صدره ، تحركه كلفه جهدا ، يقول قرقر إن المعلم أشد الناس أصالة

فى الحى كله ، لم تحل مشكلة صغيرة أو كبيرة إلا بفضل جهوده ، يحب الخير للجميع ، أحد الذين آمنوا بموهبته وشجعوه ، ما من رجل يسأله النصح فى إحياء فرح إلا و يشير عليه باصطحاب قرقر ، حتى وقت قريب تولى إيقاظ الناس فى الفجر والذهاب على رأسهم إلى مسجد الحسين لأداء الصلاة ، لكن الصحة لم تعد تساعده ، رفع قرقر يديه إلى السماء طالبا من الله أن يضفى كل صحه وعافية على المعلم . ينفث دخان الشيشة ، كلمات قرقر تلقى صدى طيبا فى قلبه ، يأخذه التأثر . يقول قرقر إن الأستاذ حمدى من أشرف الصحفيين ، صاحب قلم نظيف ، لم يرتبط بمصلحة أو بتقيد بشخص ، يقول حمدى إن قرقر يبالغ قليلا . ما هو إلا ساع وراء الحقيقة ، والحقيقة يمكن أن توجد فى صاحب موهبة أصيلة كالأستاذ قرقر أو حادث يجرى فى مكان ما . يقوم قرقر ، يتدفق الدم إلى رأسه . يشير إلى حمدى ، لم ير انسانا أشرف منه ، عاش حياة قاسية لكن الأمل لم يفارقه أبدا فى مجىء انسان شريف يقدمه إلى الناس ، يجلو الحقيقة ، حتى لو مات فسيجىء من يقدر أعماله ، لكنه حسن الحظ أن جاء الأستاذ حمدى قبل رحيله عن الدنيا ، يجلس منفعلا ، يرى جموعا كثيفة تصفق لعزفه ، تتردد التعليقات ، أين دفنت هذه الموهبة ؟ الدنيا بخير طالما ظهرت أخيراً . ينحنى للجمهور ، يصر على صعود الأستاذ حمدى إلى جواره ، يفاجئه حزن رهيف ، كم يود لو شهدت سكر نجاحه ، سيزور هانى اليوم التالى ويهديها راديو ترانزستور فى منفاها الأبدى . تسمعه فتبكى أيامها التى لم تعشها معه ، تكتب المجلات الفنية عن حبه العظيم ، إنه ينظر بود وشعور صادق بالعرفان للأستاذ حمدى وكأن كل ما تخيله حدث فعلا . يسأل حمدى ، منذ كم من السنوات يعيش الداطورى فى الزعفرانى ؟ ترتجف عينا المعلم ، ينظر قرقر متأهبا للرد ، لكن الأستاذ حمدى يشير إليه بما معناه انه يريد سماع المعلم نفسه ، يجيب الداطورى أنه لا يذكر ، يقول حمدى إنه يود لو رأى هذا البيت لكن ظروف الحارة تقف حائلا ، عموما يستريح إلى المقهى ، الصالة الداخلية والجدران المغطاة بمرايا ضخمة والصور الزيتية تبرز كلها

الخاصة ، يشير قرقر إلى الأستاذ حمدى ، انظر كيف يقدر الفن ؟ يقول حمدى إنه يعشق الحى القديم ، يسكت فجاة ، رأى شهرت تتأبط ذراعه ، يتمشيان إلى السور القديم ، يصعدان السلالم الحجرية العريضة المرتفعة ، بدت متوثبة ، تريد أن تعرف كل شىء ، من صاحب المكان ، من بناه ، من جدده . صاحت انظر ، أشارت إلى أحجار الجدار حيث تتوارى فى الظلال كتابة هيروغليفية ، لابد أنهم هدموا بعض الآثار الفرعونية واستخدموا حجارتها فى بناء الحصن . نظرا من الفتحة الضيقة إلى الساحة الواسعة ، عربات يد ومارة ، لم يتابعها الحارس ، أصبحا بمفردهما ، تملكته رغبة فى احتوائها تلامست أطراف أصابعهما ، امتزجت أنفاسهما . تحسسته بشفتيها الحريرتين ، مررت يدها فوق ظهره برفق ، عندما خرجا إلى الضوء تمددت فى جسديهما سعادة كما يمتد البناء الأثرى فى الزمان ، آثار نشوتهما ضائعة الآن ، لو صعد فى هذا الشارع عشرات الأمتار فسيمكنه تحديد المكان الذى احتواهما ، ينظر إليه الداطورى ، نظرة ثقيلة ، بطيئة ، قرقر ساكت ربما يستفسران عن صمته المفاجىء ، يقول حمدى إنه يتمنى الإقامة فى الحى ، يأمل تحقيق رغبته على يدى المعلم ، سمع عن عمارته ، ينفث الداطورى دخانا كثيفا ، يطرق الأفندى ، سيرة لا يملها ، يتخلى عن صمته وجموده ، سيقيم العمارة بإذن الله ، عديد من العقبات تسبب فى تأخيره ، منها عدم ثقته بهؤلاء المهندسين مصممى المبانى الحديثة ، يريد تصميما فيه رائحة الزمن الحلو ، الغرف متسعة ، الصالات بها نافورات صغيرة ، المشربيات بدلا من النوافذ ، لن يعبأ بتكاليف ، لا بد أن تبقى العمارة بعد وفاته كعلامة فى الحى ، عمارة الداطورى ، يريد عائلات محترمة تحفظ المبنى لكن ما جرى فى الزعفرانى أضاف عقبة أخرى . يتوقف . ينتظر بادرة حماس من حمدى بعد ذكره الزعفرانى وأحداثها ، عدم اهتمام الأفندى الصحفى خيب ظنه ، فى نفس الوقت زاد شعور الألفة تجاهه . يقول قرقر إن ما جرى لن يؤثر على مشروعات الأهالى ، وكما قال الشيخ فى خلوته الأخيرة بالبعض إنه لم يقصد ضررا ، ما يخيل للبعض أنه أذى ، مجرد وقفة

شاملة يتم بعدها ترتيب أوضاع الإنسان إلى الأبد. ما تم وسيلة إلى غاية. يقول الداطورى، لم تتضح الغاية بعد لكن يكفى أن الشيخ قال ما قاله. يتدخل حمدى متسائلا، ألم يجد الشيخ وسيلة إلى غايته إلا تعجيز الخلق؟ ينظر الداطورى إلى قرقر، يدرك حمدى إندفاعه. يستعيد لهجة الداطورى. يبدو مدافعا عن الشيخ. أهذه لهجة تتناسب مع عجزه، خطر له سؤال قرقر عن نشاطه الفنى خلال الأيام الأخيرة: أرجأ تساؤله إلى فرصة أخرى. يود التعرف إليها أكثر. يقرر العودة إلى الحديث عن عمارة الداطورى، أخبره قرقر أن مفتاح الحديث مع المعلم هو الكلام حول العمارة، لا يملك الداطورى تكاليفها أو الأرض التى سيقيمها عليها لكنه يحلم بها منذ سنين، يجاره حمدى. كيف يعيد الحديث إلى العمارة؟ سيسأل عن رخصة البناء. هل حصل عليها أولا؟ لكن قرقر يقوم واقفا. يتجه إلى شاب طويل يرتدى حلة كاملة، يحييه « هذا زمن الفرار ». يصيح بحماس شديد، « الأستاذ عاطف خريج الجامعة-أحد السكان المحترمين الذين يقدرون الفن و يطربون لسماع النغم ». يمد حمدى يده مصافحا « حمدى رشوان. محب للحى القديم أولا، وصحفى بجريدة اليوم ثانياً » . .

* * *

« بعض من مذكرة رفعت الى رئيس هيئة الأمن المخصوص من قسم مكافحة التعصب الدينى . . »

ومما دعم تقديراتنا تلك الخطابات التى وصلتنا عن نشاط المدعو نادر بسيونى الهجرسى الشهير بـ « لولى ». وأحد هذه الخطابات أرسله والد المذكور. هذا ما أثبتته تحرياتنا لأن الوالد لم يوقعه، وجارية محاولة الاتصال به، وللعلم فهو مخبر قديم عمل بالشرطة السرية، ولا بد أن إلتزامه القديم بالعمل، وإخلاصه لواجبه دفعه إلى التبليغ عن نشاط إبنه، وتدل كل القرائن على المسئولية المباشرة الواقعة على عاتق المذكور، ومن خلال التعاليم التى استطعنا رصدها يمكن ملاحظة بعض أفكار الهجرسى والتعصب، والتحريض ضد نظام الدولة والمجتمع، وتجدر الإشارة إلى أن تجميع هذه المعلومات تم بصعوبة بالغة. وفيما يلى بعض الخطوط العريضة التى تضمنتها أفكار الشيخ والتى أفضى بها إلى عدد من أهالى الزعفرانى — بينهم المذكور.

« طلب الشيخ من المجتمعين به أن يعوا تماماً بدء تغير الأحوال، ويجب أن يستعدو الأن زمانهم سيشهد المنعطف الحاسم، ظهر موعود البشر بعد احتجاب عصور كثيفة خلف ستار العزة، بعد اتصافه بكمالات لا تحصى، صبر لا يوصف لما رآه وسمعه، سيكشف منابع الزلازل و يرفع الأرصاد والاغلال، ما هو إلا حرف من كتاب عظيم وقطرة من بحر لا ساحل له. اشتغل طول حياته بالإنسان، أفنى عمره فى تأمل العالم، ما مضى ويمضى وسيمضى، عمره الاشتياق إلى رؤية بنى الإنسان يتعاونون، أما الآن فها هو ذا زمن الاتفاق، إنه يرصد نبض العالم و يرى أياما آتية لا ريب فيها، يسمع منها أغانى الحية

ترتفع فى مجامع الأحياء . ينفذ إلى مستقبل سعيد بالبصر الحديد ، مستقبل لا يعد به فالإنسان منذ خلق يعيش وعدا لم يتحقق ، مستقبل يحققه .

قال إنه منع المشاجرات تمهيداً لاجتثاث الحروب . يصبح الإنسان متسامحا مع أخيه ، بعد ترتيب أوضاع البشر تختفى العداوات . تصبح المحبة حقيقية والشفقة حقيقية . بدلا من المشاجرات يعرف كل إنسان الكمالات المودعة فيه وفى الآخرين . خلق الإنسان غنيا ، لماذا يفتقر؟ خلق عزيزا . كيف يستذل ؟ عجن من طين الحب . كيف يبغض ؟ نزل من الرحم ممتلئا . كيف يجوع فى الدنيا ؟

فكر طويلا فى الوسيلة . بعد اجتهاد طويل ، ومعاناة علوية . قرر أن يحرم البشر إلى حين من الثمر . فى البدء فكر فى حرمانه من الخبز ، لكنه سيهلك و ينقوض بنيانه . أفضل وضع ارتآه حرمانه من الثمر . يعرف أن الإنسان العقيم كالشجر الأجرد ومثل هذه الأشجار تلقى للنار . لكنه أعطب العطاء إلى حين مقدر . صدمة توقظ الإنسان وتقل كثيراً عما لحقه من صدمات البغض والاقتتال . بعدها يطيعه الناس . إذا لم تحدث الطاعة ستستمر الفتن والقلاقل . يخاصم الناس بعضهم بعضا . يستعملون جزءا كبيراً من قوتهم لدحض مجهودات الآخرين من إخوانهم بدلا من العمل جنبا إلى جنب لإزالة الأوجاع المرئية والمستوردة ، يكفى ما ضاع منذ خلق العالم فى التناحر والخلاف . بعد الصدمة تتوحد أحوال البشر أجمعين فى البداية . ثم تتغير الأحوال تغيرا جماعياً ، كلياً ، يصبح العالم كله أوراق شجرة واحدة . حبات عقد متساوية . مصابيح ثريا . وغزلان مرعى واحد .

قال إن العالم كله سيسمع صوت الحقيقة ، ستتحدث كافة الأجهزة

التى تنقل صوت الإنسان وصورته ، وتنقل كافة المواصلات الجوية والنهرية والبحرية والبرية » .

هذا ما وصلنا عقب جلسته الأخيرة إلى المختارين من أهالى الحارة . وتردد فى الحى القديم عقب الخلوة أن الطلسم سيلحق كافة العاملين بالإذاعة والتليفزيون ، ووسائل الاتصالات ، تمهيدا لانتشار أفكاره . كما اختار شخصا من الحارة اسمه الصول سلام وأطلق عليه المنذر الأول ، وفى أقوال أخرى ، رسول الميثاق رقم (١) .

* * *

العالم يتساقط :

يقول رمانة السياسى إنه سجن أربعة عشر عاما من أجل القضية . عشرة منها متصلة . بدأت عام ١٩٥٤ . وانتهت عام ١٩٦٤ . بخلاف سجنه الأخير . يردد حسان ، عشرة أعوام متصلة ؟ يعكس وجهه دهشة ، وتأمل ، ومحاولة يائسة لتجسيد هذه الفترة من حياة إنسان ، كم بلغ عمره عام ١٩٥٥ ؟ ، شهورا ! دخل رمانة السجن وهو طفل يرضع وخرج منه وحسان ينتقل إلى الثانية الإعدادية . ١٩٦٤ عرف طريقه إلى مكتبة المدرسة . إلى الشيخ تهامى بائع الكتب القديمة . يمضى إليه بعد خروجه من المدرسة . يدفع خمسة مليمات . يجلس فوق الرصيف ، يقفز قلبه مع أرسين لوبين إذ يهاجم خصومه شاهرا سلاحه ، يأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء . توهج خياله بمغامرات اللص الشريف . رأى نفسه مرتديا حلة سوداء وقناعا ، يدس يده فى جيبه ، يأخذ الحلى والمجوهرات ، يوزعها على زنوبة العازبة ، البستانى وامرأته لطيفة ، يعطيها أجرة السفر حتى يلحقا بابنها . يدس تحت وسادة أبيه مبلغا . يدفع عنه حيرة الأيام الأخيرة من الشهر . يعطى كل فقير

حول الحسين جنيها كاملا . لكم تبدو هذه الأيام حبلى بالأماني . مع توالي السنين أصيب الخيال بضمور ، يوما بعد يوم يتنازل الانسان عن أحد أحلامه حتى يتنازل عن الحياة نفسها ، يذكر مشاعره عام ١٩٦٤ ، يسخر منها الآن ، بعد عشر سنوات هل سيسخر من أفكاره الآن ؟ لكن ما الذي فعلته هذه السنوات الطوال برمانة ، هل مازالت لديه القدرة على الحلم ؟ يقول حسان إنه لا يستطيع تصور نفسه محبوسا لمدة أسبوع واحد . يضحك رمانة ، برغم طول المدة يذكر بعض هذه الأيام وكأنها ذكريات جميلة . لا حدود لقدرة الانسان على التكيف . يصمت رمانة ، يبدو السكون حادا يتعجب حسان . تمتلىء الحارة عادة بصياح الأطفال في مثل هذا الوقت . حديث النساء عبر الشرفات ، يتذكر استمرار الهدوء منذ أيام ، يقول رمانة إن ما يخشاه بالنسبة للحارة ، يرجع الى قدرة الانسان على احتمال ظروف شديدة . ما يجرى محير وعجيب . خارج عن المنطق ، غير محكوم بأى قانون . يواجه الزعفرانيون قوى غيبية و يعيشون على أمل فك هذا الطلسم وانتهاء تلك الصدمة كما يسميها البعض ، كل يوم تسرى اشاعة بقرار الشيخ رفع الطلسم عن عدد معين لكن لا تحدث . يذكره هذا باشاعات الافراج في المعتقل . اعتاد المعتقلون ترديدها . يصل الأمر في بعض الأحيان إلى تحديد اسماء المفرج عنهم ويحددون التاريخ . تمضى الأيام ولا تحدث الافراج ، تسكت الاشاعات فجأة لتعود من جديد . يكذبون و يصدقون أنفسهم . تشتد هذه الاشاعات في الاعياد والمناسبات ، كمولد النبي وعيد الثورة وعيد الأم . هذا ما يجرى الآن في الزعفراني ، يرقب حسان رمانة متأنيا ، يحتفظ عقله بفكرة ثابتة ، هذا الرجل قضى أربعة عشر عاما في السجون . يبدو مقابل لفظ السجن كهوف مظلمة ، زنازين لا يمكن للانسان أن يقف فيها ، أيام بلا نهاية وكلاب متوحشة . حراس غلاظ القلوب . يقول حسان إن بعض الذين ارتفعت أصواتهم باحتجاج هدأوا الآن وأوهمه التكرلي الذى يضفي غموضا على تصرفاته . ثمة ملاحظة أخرى ، خلال الأيام الأولى حرص كل رجل على الايحاء بأنه المستثنى من

الطلسم ، لكنهم الآن يخفون ضعفهم . خوف الناس يتضاعف خشية أن يفشي الشيخ بعض أسرارهم ، يتساءلون ، كيف توصل إليها ؟ يتعجب رمانة . هل نسي الزعفرانيون أنهم مصدر كل ما يعرفه الشيخ عنهم ، إنه يعيد ما قالوه عندما لجأوا إليه لحل مشاكلهم ، يجيب حسان ، انه قضى سبع سنوات محتجبا لا يقابل أحداً من الخلق ، يقول رمانة إن ما جرى في الحارة خلال السنوات الماضية غامض جداً بالنسبة له . يفكر حسان ، رمانة واحد من الذين يحاولون تغيير العالم . اعتقل وعمره ثمانية وعشرين . خرج وعمره ثمانية وثلاثين ، ثم انتقل من جديد ، الآن بلا أطفال أوغد مأمون . بعد اللقاء الأول أدرك حسان أنه أمام رجل صارع الحياة . عمل رمانة في بداية حياته مجلدا للكتب . ثم جرسونا في مقهى تملكه والدته التي ماتت أثناء وجوده في السجن . لكم ود حسان أن يصمد والده أيام المصيبة ، لكن والده احتمل الكثير،رفض البوح بمتاعبه ، وعلق آماله على ولديه . رأى في نجاحهما راحته ، لهذا جاء هروب سمير كانهيار الأساس الذى شيد فوقه منزل من طابقين ، أبوه آيل للسقوط ، تزحم حلقه غصة إذ يتذكر والده حتى في ساعات نومه لا يخلع الحذاء . كثيراً ما يقف متصلبا في صالة البيت ، إذا حاول حسان أو والدته الحديث إليه زعق فيهما آمرا اياهما بالسكوت واتاحة الفرصة له حتى يتلقى تقرير إبراهيم باشا قائد الخيالة ، أو يصغى إلى متاعب روميل ، عندئذ يأوى حسان إلى غرفته باكيا . ها هوذا يرى أباه في وضع طالما يسمعه كحكايات عن آخرين ، أن يراه مطبقا على والده فهذا مؤلم ، يوقن حسان بوجود صلة بين أحوال أبيه وما يجرى للزعفراني ، يسأل رمانة عن الكلية التي ينوى دخولها ؟ ، يرى حسان والده في لحظات الصفاء يوم عطلة الجمعة بعد عودته من الصلاة في مسجد الحسين ، يقول إنه قرأ الفاتحة على أرواح الموتى وتوجه بالدعاء راجيا من الله قبول دعائه حتى يحصل حسان على مجموع كبير و يدخل الطب . يسأل رمانة ، ماذا يعرف حسان عن الاشتراكية ؟ يقول إنه قرأ كتبا عن الاشتراكية ، وأن أحد الأساتذة في المدرسة حدثهم طويلا عن سنوات ثلاث

قصاها في بلد اشتراكي . يقول إن قراءاته متناثرة لا يربطها منهج . في البداية تحمس بشكل صبياني ، لا يذكر بالضبط متى قرأ أن الاشتراكية تحقق العدالة . منذ هذه اللحظة بدت شيئاً غامضاً موجوداً في مكان ما ، راح يتحمس لها في احاديثه حتى حذره أحد المدرسين ، لم يتضح في ذهنه الطريق الصعب للوصول إلى العدالة وقتئذ ، لم يدر شيئاً عما جرى من اعتقالات عام ١٩٥٩ ، لم يتم الثامنة في هذا الزمن ، يذكر انه حصل على عيديته وخرج إلى ميدان الحسين . جذب انتباهه كتاب لامع الغلاف ، « البؤساء لفكتور هوجو » . عاد به إلى البيت . قال أبوه إن الكتاب صعب ولابد من وصوله إلى الجامعة حتى يفهم ما فيه . أخذه منه ، لكنه لاحظ فيما بعد أن والده يعرض الكتاب على أحد أقاربهم وسمعه يقول في المساء الهادئ « انظر .. ماذا يقرأ ابني ؟؟ » يذكر حتى الآن سطورا من البؤساء .

سقطت بوجهي إلى الثرى   وداعا رفاقي إلى الملتقى

يقول رمانة إن الأشياء الأولى لا تضيع من ذاكرة الانسان ، الفرح والمؤلم . قضى أياما عديدة في السجن . لكن اليوم الأول في عقله بكل تفاصيله ، حتى ليوشك أن يرى الآن سترة المخبر الذي يقوم بوظيفة السجان في معتقل المباحث ويرى موضع زرار ناقص يظن أنه الثاني من أسفل ، يسكت رمانة لحظة ، يقول إنه سيحاول العثور على بعض الكتب ليقرأها حسان « انه ليس مثقفا بما فيه الكفاية . غلب على عمله السياسي عنصر الحركة لكنه يعرف بعض الكتب الأساسية التي لا غنى عنها ، يقول حسان إن هذا سيساعده على بلورة العديد من أفكاره . ينظر رمانة عبر النافذة لبيوت الحارة عليلة . اعتادت الزعفراني الصمت منذ أن أصبحت تعاليم الشيخ عنع الشجار واقعا محسوسا . يذكر الوقفة الغريبة لوالد حسان ، يسأل . هل عمل الوالد بالجيش ؟ . يهز حسان رأسه نفيا ، لا يرغب في الحديث . يسكت رمانة أيضاً . في البداية تمنى حسان اتصال

الحديث بينهما . لكن لا يمكن الاستمرار في موضوع واحد بين الزعفرانيين إلا ويمتد إلى ما يجري . أسئلة عديدة تطفو على ذهنه . اكتشف رمانة الطلسم ما رأيه في الحل ؟ هل يؤثر الوضع عليه ؟ ما رأيه في أقوال الشيخ عن المساواة ؟ إن استفسارات مشابهة تشغل رمانة . تناولا في حديثهما قضايا عديدة لكنه يمس حتى أوضاعهما الشخصية في ظل الظواهر الخاصة التي تمر بالزعفراني . حسان لا يخشى الحديث في هذا الموضوع ، لكنه يضيق إذ يذكره أحد بأبيه خاصة أن أحواله تتخذ الآن شكلا مزعجاً . حدث صباح اليوم أن تسلل صبيان إلى سطح البيت المواجه لهما . أفلتا من رقابة عائلتهما . بدءا يشيران إلى والده ، يصيحان بلهجة منغمة « العبيط أهه .. أهه .. » صاح إن العدو يشن حملات نفسية بجبارة بالإذاعة . قذفه صبي بحجر صاح منادياً ابنه رئيس الأركان . قال إن محاولة جرت لاغتياله بواسطة وحدة مدربة ، زعق . إن الثغرات لم يحكم إغلاقها . طلب حضور مدير المخابرات . أومأ حسان برأسه واستدار لكن والده جذبه ، صفعه بقوة . قال إنه لابد من أداء التحية العسكرية عند الانصراف . هذا التسيب هو السبب فيما يلاقيه هانيبال الآن من صعوبات في إخفاء حركة قواته عبر الجزء الجنوبي من الزعفراني . طالب ابنه بالانضباط مظهراً وجوهراً . بحزن أومأ حسان . رفع يده بتحية عسكرية . عند الباب وقفت أمه تبكي صامتة . همست « ياخراب بيتنا » . سألته ، إلى أين سيمضي ؟ قال إنه سيطلع إلى سطح البيت المقابل ويمنع الصبية من قذف والده بالطوب . هل يلجأ إلى عويس راجيا منه إبلاغ الشيخ بمخالفات الصبية . حتى الآن يرفض الاعتراف بالطلسم رغم سريان مفعوله عليه . رغم ذلك ربما اضطر إلى اللجوء إليه باعتباره مصدر القوة والسيطرة الآن في الحارة . لم يجد الصبي . أطل من فوق السطح ، رآهما يقفان في الحارة يشيران إلى الجنرال الواقف في الشرفة ، نزل إليهما مسرعاً . لم يجدهما . دهمه خجل . لم يعتد دخول بيوت الآخرين في الحارة ويجري الآن مطاردة عبثية .

غالب ضيقه وأدى التحية العسكرية لوالده. قدم التقرير المطلوب منه ومضمونه إتمام الإجهاز على فرق الاغتيال.

سينظر رمانة إلى حسان، يرى سنيه الأولى وعمله في المطبعة تحت إمرة عامل إسكندراني اسمه بدر، تعلم منه التجليد والسياسة. كيف يطبع منشوراً؟ كيف يهرب من المراقبة؟ كان عفياً. لم تلحقه اضطرابات العمل السياسي. لم ينغمس في الخلافات ولم يناقش زميلاً له يعتنق نفس الأفكار لكنهما يختلفان في وجهة النظر لدرجة العداء الشديد، بحيث يبدو عداء كل منهما للآخر أشد وطأة من عدائهما للرجعية والمستغلين. وقتئذ لم تحركه إلا الحماس والرغبة في تحدي المجهول، اقتلاع الظروف القديمة من أساسها. بدا العمر فسيحاً والواقع يسمح بالتضحية. في السجن وهنت الآمال، أحياناً فكر في استعصاء العالم وضآلة الإنسان بالنسبة إلى الهدف الأسمى. لكنه يذكر الآن هذا العجوز الذي مات عن تسعين عاماً في المعتقل. شارك في تأسيس الحزب الأول عام ١٩٢١، وأخلص للقضية حتى مات في معتقل الواحات. يستعيد الآن جنازته المهيبة، جثمانه الملفوف في بطانية حمراء يتخللها شريط أسود من الطرف إلى الطرف، الطابور الجنائزي، وقفة رجال الحرس الذين لم تستطع ملابسهم الرسمية طمس ملامحهم الريفية وانتمائهم إلى القرى والنجوع. يذكرها والذي يقود ثمانمائة مليون من البشر، يقارب الثمانين. لكن ما أقل البشر الذين رأوا تحقق ما كافحوا من أجله بعيونهم. هناك ما يحجب بعض الناس عن بعضهم البعض، يؤجج الخلافات النامية سنيناً بأكملها، يدفع الزميل إلى الشك في زميله. أهو مرض تثيره جرثومة لا تقدر على العيش إلا في جو معتدل صيفاً، معتدل شتاء كمصر. إنه ينظر إلى حسان، يود لو لا يتيح الفرصة لأفكاره أن تنعكس على عينيه حتى لا يرصدها الشاب اليقظ المتحسس، منذ خروجه والهم يدب في كل شيء حتى ما جرى في الزعفراني، كأنه نتيجة لسنوات الخلاف والتناحر وعدم

الوحدة وضياع الهدف. إنه يستدير إلى حسان، تبرق عيناه، لم ينجب طفلاً. لكنه يشعر تجاه الفتى بمشاعر شتى أشمل بكثير من الأبوة، تراوده راحة خفية. الآن أمامه من سيواصل الاندفاع بحماسه القديم، سيتحدث عنه إلى زملائه الأصغر سناً، سيقول لهم إن القضية متجددة، وما أفقده من العمر لم يضع هدراً، عندما اعترض على حل الحزب لم يفكر في وجود فتيان جاءوا إلى الدنيا، يعرفون ما عرفه في البدايات، ويوماً يحسون بدفئهم الخالي من العطب، إن انفعالاً يدركه، هل يوقف حسان تساقط العام؟

* * *

تقرير من أجهزة المتابعة إلى هيئة الإعلام العليا

بتاريخ ٢٨ / ٣، نشرت جريدة «ديرا فوباز» الفيناوية خبراً في صدر الصفحة الأولى، يتحدث عن ظاهرة غريبة في عاصمة البلاد، وكيف أعد أحد الشيوخ طلسماً مسخ به القدرة الجنسية للرجال، وأعلن تعميم الطلسم على العالم، وعلق الكاتب الأساسي بالجريدة «ديريوس فون فوجد» النمسوي تعليقاً نقتطف منه ما يلي:

«من المثير حدوث هذا في القرن العشرين. إذا صح الأمر فيجب الاستعداد لمواجهة عالم بلا رجال. وعلى النساء المسارعة بارتشاف اللذة قبل أن تصبح عزيزة المنال، ونحن لا ندري رأي العلم في ذلك، لكن الموضوع يثير قضايا عديدة، إذ أن صاحب الطلسم يقصد غايات معينة. وكما تقول الأنباء إنه يسعى إلى تغيير الطبيعة البشرية بواسطة إحداث صدمة تمهيداً لخلق عالم خال من الصراعات، تتوحد حدوده ولغاته، خال من النزاعات والأحقاد، ويقول الشيخ إن دنيانا تضم عوالم مختلفة، وليس صحيحاً أن الجنس البشري واحد، فهناك

جنس الأغنياء . وجنس الفقراء . جنس السود ، وجنس البيض ، الإنسان ضد الإنسان . وهذا ما يريد محوه ، أن يجعل الإنسان للانسان ، وذلك بإيجاد الإنسانية في وضع واحد يوقظها ثم يفرض عليها ما يريد . هذا ما تقوله تلك الأخبار الغربية . وإننى أعلن منذ الآن أننى البشر الأول بالشيخ وتعاليمه لعل هذا يقينى أثر الطلسم . . . »

وبعد نشر هذا التعليق كتب صحفي متخصص في الشئون السياسية بألمانيا الغربية يدعو إلى ضرورة توجيه نداء عاجل إلى حكومتنا بفرض اتخاذ موقف حاسم . وإصدار بيان رسمى يضع الأمور في إطارها الحقيقي بالضبط حرصاً على الجنس البشرى . كما دعا هذا الكاتب حكومته إلى ضرورة التشاور مع الحكومات الأخرى في العالم بصدد هذا الأمر الخطير . ولا يخفى ما تتضمنه هذه الدعوة المشبوهة من إعداد للتدخل في شئون البلاد . وسارعت الأبواق المعادية بترديد هذه الأنباء . ودعت السياح إلى التردد في السفر إلى بلادنا بقصد ضرب الحركة السياحية . وبالتالى تخريب مورد هام للاقتصاد الوطنى . . » .

* * *

على أثر قيام بعض الصحفيين الأجانب بتوجيه أسئلة الى الناطق الرسمى حول حارة الزعفرانى بادر رئيس هيئة الاعلام إلى اصدار تصريح رسمى فيما يلى نصه .

« . . دأبت بعض الصحف الأجنبية خلال الفترة الأخيرة إلى ترويج أخبار مغرضة زعمت بوقوع أحداث معينة في حارة الزعفرانى الواقعة بالحى القديم من عاصمة البلاد . وتتضمن هذه الأخبار خرافات لا يصدقها عقل متحضر في

الربع الأخير من قرننا العشرين . . إننا ننفى بشدة هذه الأخبار ، ونبادر إلى القول بأن أهالى الزعفرانى يعيشون حياة عادية شأن كل أهالى العاصمة وغير العاصمة . ولا نستطيع إزاء هذه المزاعم إلا السخرية من صانعيها مضللى الرأى العام العالمى . . »

* * *

الخوف من ضياع الشك .

. . في البداية أخفى عاطف حذراً وريبة . منذ عام وأكثر لم يتعرف إلى صديق جديد . أصحابه القدامى أعاد النظر فيهم ، انتهى إلى انقطاع عنهم . لا يسعى للقاء فريد أو وجدى إلا إذا غمرته الوحدة تماماً حتى يوشك على الهلاك بمفرده . أو يحن إلى معايشة جو أسرى لمدة عابرة . بالرغم من هذا تأخذه حسرة بعد انقضاء لحظات على تواجده عند فريد وامرأته . يرقب مرحهما . إسراعها إلى المطبخ . احضارها الجيلى الذى أعدته بنفسها . أو تجهيزها بعض العصير في الخلاط الذى اشتراه فريد من السوق الحرة بالمطار بعد عودته من إيطاليا في العام الماضى . شقة صاحبه صغيرة . أنيقة . يعرف قصة كل قطعة أثاث بها ، الحياة الزوجية الرائقة تثير في نفسه مشاعر رهيفة . ليس حسداً . ليس حقداً . لكنه يشعر بجراحه الرخوة ، يرى نفسه في موضع فريد ، رحمة مكان صفاء . يرى نفسه جالساً إلى رحمة ، يتحدثان في أمور تخصهما وأشياء يجب شراؤها ، وزيارة لابد من القيام بها . وفيلم جديد جدير بالمشاهدة . إنه يرى رحمة الآن في مدينة أخرى . ترمق بنفس النظرات التى خصته بها أحد الذين كانوا من أقرب الناس إليه . سيفاجأ نبيل برحمة تعرف عنه أشياء كثيرة . أدق شئونه ، تعرف عدد قمصانه . عنوان الترزى الذى يفصل عنده جاكتاته . الأفلام التى يعجب بها . الأغانى التى يطرب لها . لن تقول له إنها عرفته من خلال عاطف ، أثناء

خروجهما يحدثها عن نبيل صاحبه ، يحكى لها آخر مغامراته ، أفكاره ، يقول إنه اليوم فى المكان الفلانى يفعل كذا أو كذا . قبل أن يعرفها به حدثها عنه . عندما قدمها إليه أول مرة ملأته سعادة . جلست رحمة خجلة ، شجعها على الانطلاق فى الكلام ، أوشك أن يدمع تأثراً . صديقه الأول وحبيبة قلبه ، قام أكثر من مرة ليتصل تليفونياً ، وليدعهما بمفردهما ، أثناء عودته رآهما . رحمة تدير كوباً بيدها ، تبادل نبيل النظر ، تأثر للغاية ، فى نهاية اللقاء أعلن عن سعادته لبدء علاقة صداقة بين حبيبته وشقيق عمره وتوأم روحه ، وقال إنه حدث كل منهما عن الآخر بما فيه الكفاية ، أى أن لعلاقتهما جذوراً غير مرئية ، أمسك بيدها و بيد نبيل ، يذكر اللقاء الأول بكل تفاصيله كما يعى المواقف التى رصد خلالها تطور الخيانة ، سؤالها عن نبيل بلهجة خاصة . قولها بعد فترة إنها التقت به وتحدثت إليه . وقوع الجفوة ، عاطف لا يثق بأحد منذ شهور . ربما هذا ما بدل انطلاقه صمتاً دائماً ، لكنه يفكر كثيراً فى حمدى الصحفى ، طريقة الترحيب ا ى أبداها أعادت إليه بأسى أسلوبه عند التعرف إلى الآخرين . انفتاحه الذى صدأ . كان يعتبر الأصدقاء امتدادات مكملة له . لكنه لاحظ أو خيل له أن ثمة افتعالاً فى حمدى هذا ، ربما لاشتغاله بالصحافة والتى يقتضى إبداء الود حتى يحصل على ما يريد وإن أكد الدافع الشخصى لمجيئه إلى الحارة ، أصغى عاطف وتمنى حظاً سعيداً له ثم أصر على المشى . فى طريقه إلى البيت فكر فى شيوع أمر ما يجرى ووصوله إلى الصحافة ، إن رعباً يدركه كلما تخيل استدعاءه من قبل أحد رؤسائه وسؤاله عن الطلسم . هل يستطيع تجاهلهم عندئذ ؟ أحس بشيوع أمر الطلسم فى البلد كله . فى البداية حاول كل رجل زعفرانى إخفاء الأمر عن الآخر . لكن كل شىء افتضح . الأيام تمر ولا أحد يدرى متى الفرج ؟ يبدو أن الأجهزة الرسمية تتابع الظواهر باهتمام . جاء رجال كثيرون غامضون ، جمعوا معلومات ، وتساءلوا ، وعلم من روض أن هذا بتأثير نفوذ سيد التكرلى ، أما على الكوجى فأوقفه أكثر من مرة مؤكداً اهتمام الهند بالموضوع ، ودعوتها لعدد من الأهالى

الزعفرانيين لإجراء فحوص هندية عليهم وشفائهم ، يخفى عاطف ضيقاً من طول المدة المنقضية على بدء الطلسم . يزيد ضيقه عن إشاعات الحارة بقرب فك الطلسم ، يثور التخمين ، ترشح أسماء ، روض تأتى إليه فى أوقات منتظمة ، لم يعد يخشى حضور هذا ، بالطبع لاحظت الست بثينة التى نحلت وضعف بدنها دخول روض بيت أم محمد حيث يسكن عاطف الأعزب . رصدت العلاقة الوليدة ، ظنته الذكر الوحيد الباقى على حاله . ذهبت إليه . عرضت عليه أن تغسل له ثيابه ، أن تعد طعامه ، قابلها بصد ، لم تستطع الزعيق إذ كفت عنه بعد تعاليم الشيخ ، راحت تتنقل بين النساء وتتحدث عن العلاقة المحرمة بين روض وعاطف ، قابلوها بعدم اهتمام ، لم يعد أحد يصغى إليها ، ربما لانكفاء كل زعفرانى عند ما جرى له ، أو لما أصابها من هوس ، ومغادرتها بيتها ونومها فى الحارة ، تخشى لو نامت داخل الشقة أن يدركها الموت . قابلها طاحون أفندى تجرى فى ميدان بيت القاضى ، بدت مرعوبة ، أمسكت بثيابه ، هدأها ، انتفضت كحمامة مبلولة ، قالت إنها تجرى هرباً من الموت ، لو جلست فى مكان واحد سيدركها الموت ، لم تهتم الزعفرانى بذهاب روض إلى عاطف ، وقوفهما فى الشرفة معاً ، فقط لاحظ عاطف عصبية نبيلة المدرسة ، وإغلاقها مصراعى الشرفة عند ظهوره ، قالت روض إن الغيرة تنهش نبيلة ، أولاً لأنها مدرسة ، تعمل منذ ست سنوات ، يقال إنها أدخرت حتى الآن مائتى جنيه ، ثانياً لدراستها الجامعية ، ثم لا تلقى استجابة من الوحيد اللائق بها ، لم تفقد الأمل حتى رأت بعينيها روض وعاطف فى الشرفة فأبدت تعجباً من الأفندى الذى يتجاهل الجامعية ويجرى وراء الجاهلة المطلقة ، قالت أكثر من مرة بعد ذلك إن ما جرى للزعفرانى عدل و يستحق رجالها أكثر من ذلك ، أصغى عاطف وضم روض إليه . استكان الجسد البض إلى ذراعيه ، شم رائحة شعرها ، ورأى منبت نهديها البرائحين ، عندما تجىء إليه تنهى أخبار الحارة ، تفتش الدولاب ، تخرج ثيابه المتسخة ، تنظف الشقة . تمسح البلاط ، يرقب انحناءها و بروز مقدمة ركبتيها ،

انحسار ثوبها عن بضاضة فخذيها ، يتبع الحناءات الجسم الرائق ، تتعمد إطالة بقائها أمامه . تكثر من حركتها ، ما يخفيه الثوب من جسدها أشد ظهورا من عريها . تتأمل قيامه فجأة ، يطرحها أرضا فتهتف بنشوة وشوق ملتاع « ضمني ضمني قوى » ثم تعطيه ما منحته اياها الأنوثة . تحتويه داخلها . بعد حين يعض شفته . الرغبة أدركها الطلسم . ضاع تأجج الشهوة وازدهارها ثم ذبولها . في البداية أوشك أن يطردها لرغبته الهروب من عجزه . لكنه عندما أبطل خروجه اليومي بدأ يألفها . يعتاد ما تبديه من همة ونشاط عاليين ، حتى فوجىء بقلق غامض بسبب غيابها ذات ليلة . اعتادها . إنها تقبل عليه كتيار يهدأ حينا ويهدر حينا آخر ، يتصورها معه منذ ثلاث سنوات ، بروض يتفادى الخيانة ، عذابات الفراق الكاوية ، يرى رحمة في الطريق كأى فتاة ، حاول تذكر كم من المرات التقيا صدفة خلال علاقتها ؟ مرة واحدة في الطريق الرئيسي . تهلل حتى أوشك أن يحتضنها ، ضمت شفتيها محذرة . لوجاءت روض قبل موعدها بثلاث سنوات لما عرفت رحمة لسبيل . تبدلت المصائر ، أثناء إحدى جولاته توقف أمام المتجر ذاته ، اشترى نفس العطر ، أعطاه لروض ، ارتعشت أطراف شفتيها ، رآها طفلة وأنثى وفرحة . قالت « ربنا يخليك . . عمرى لم يحضر لى أحد أى حاجة » ، تتابعت هداياه ، جلباب ، قمصان داخلية ، قميص وبنطلون لصغيرها ، بكت ، يوم أن اشتراها تقول بهمس مرتعش إنها لا تريد إلا قربه ، يرى صدقها ، يلقى العزاء في أن ما حل به يعم رجال الزعفراني ، أحياناً تتقى نظراتها ، وماذا بعد ؟ ، لا تترك اللحظة تتجمد ، تسارع إلى تقبيله . يستسلم لها على أمل حدوث المعجزة ، لكن عبثا ، تأمل أن تجد فيه الرجل الوحيد الباقي . لكنه يشك في وجود مثل هذا الرجل . أين هو؟ أهو متزوج أم أعزب ، أم طفل مازال يرضع ؟ يشك أيضاً فيا نقله الصول سلام . عندما استدعاه مع طاحون ورأس الفجلة أضمر غماً وسخرية ، أمثل هذا الشخص الذى ينسى وجها رآه منذ ساعة يصبح النذر الأول . لحظ جدية حديثه ، إيقاع لهجته ، تقرر لا تخطئوه عين ، قال لهم إن الشيخ

يود أن يفضى إليهم باسم الشفاعة والكوثر ، إنه يحب الأهالى حبا لو أبداه لفاض وزاحم مياه البحر في مآويها ، يحبهم و يشفق عليهم ، حب مادته باقية ، سداه ولحمته انشغاله بشئونهم قبل مجيئهم إلى الدنيا ، يعلم أن الجميع يخفون كراهية لما حل بهم ، سيحين الوقت الذى يدرك كل منهم جم الفوائد والرجاء الأعظم ، إن حب الشيخ رحب ، واسع ، يتجاوز الإنسان إلى الزهور والحجارة والحيوان والصخر المتوحد عند أطراف الشواطىء . امتداده كتباعد النجوم عن بعضها . وشفافيته كظل ماء البحر ، ما يريده الشيخ أن يفتح كل إنسان جبه المكنون ، أسمال عاطف فكره فيا نقلة الصول ، ترسب معنى غامض في أعماقه أنه يشهد حدثا كبيراً سيغير مجرى الزمان ، يقول الشيخ إن عجز الرجال الخطوة الأولى في طريق محبته . كيف ستظهر بقية الخطوات ؟ في نهاية حديثه . قال الصول إن ما وصلهم ليس سرا والعالم بدأ يعرف . بدأ يفيق . كلام الشيخ واجد طريقه بين مختلف السحن وفي لغتى بحور الجنسيات ، في اليوم نفسه أطال عاطف النظر إلى روض ، أطرقت خجلة ، يعيش تورد وجنتيها وتكسر النظرات في حدقتيها ، تبدو بكراً لم تمس ، قال إن الشيخ فعل ما فعل لأنه يحب الأهالى . أوشكت على السخرية . لكن طالما يتعلق الحديث بالشيخ فيجب التزام الحذر . سألت متى سيرفع طلسمه إذن ؟ عبث بزرار جاكتته . راوده احساس بالأسر . بالسجن ، مط شفتيه ، رفعت عينيها ، الله قادر على جعل الفرج قريبا ، بدا رجاؤها حارا ، خجل ، قال إنه سيخرج قليلا ، لم تبد معارضة خوفا من اغضابه ، أو عدم ثقتها في قدرتها على اقناعه . أثناء عبوره الزعفراني تذكر سطورا قرأها يوماً عن عزل مدينة أصيبت بالطاعون في آسيا . الداخة لا يخرجون . الغرباء انقطعوا إذا ضل إحدهم طريقه ، أو شك على دخولها . يحذره العشرات من أهالى الحى الذين يتجمعون الآن دائماً على مسافة من مدخل الزعفراني ، قصوفهم شرد . أم محمد لا تجلس أمام الباب كعادتها ، تغلق باب المندرة عليها . لا تجد من تتأملهم ، لم يرها ، يشعر بحجب مصدره روض . لابد من إضافة شىء إلى شخصه

حتى يروق كرجل في عينيها ، ما هو؟ لحظة مروره أمام المقهى يرى الداطوري جالساً فوق الكرسي ، يعقد يديه أمام بطنة يطرق برأسه ، يلمح حمدى الصحفى ، فرر تجاهله لكنه سمع نداء يقول حمدى إنه سيسعد جدا لو جلس عاطف إليه . يتردد قليلا ، يقول إنه لو يطيل البقاء .. يجيء الداطوري ، يبتسم بهدوء وعندما يصيح حمدى مناديا محمد العجوز ، يقول هذا لا يصح . يضحك حمدى ، إنه يعتبر نفسه من أهالي الحي ، يوشك عاطف أن يقول له ، لكنك لست من الزعفراني ، يقول حمدى إنه منذ اللقاء الأول وهو مشدود إليه . وهو انطباع ليس من السهل أن يحدثه إنسان في آخر ، سيتكلم بصراحة ، لقد شعر بعداء عاطف له ، طلب أن يسمح له بندائه « عاطف » كما رجاه أن يناديه حمدى ، لكن يشعر أن هذا الوجه الجامد يخفى روحا بالغة الرقة ، يبتسم عاطف ، يومىء شاكرا ، يعلو صوت حمدى ، انه يقصد ما يقول فعلا ، يود التحدث إلى عاطف كانسان ، ما يحدث في الزعفراني تناقلته وكالات الأنباء ، لكن الرقابة تمنع الحديث لاعتبارات عليا ، يهتم عاطف ، هل عرف الموضوع ، أين ، في الخارج ، لكنه لا يريد للحديث أن يتصل ، يسأل حمدى ، هل يسكن عاطف الزعفراني منذ فترة ؟ ، يضيق عاطف عينيه ، منذ خمس سنوات ، يمسك حمدى يد عاطف اليسرى ثم اليمنى ، « أنت أعزب ؟ » يقول حمدى ، إنه أعزب أيضا لكن بفارق بسيط ، لقد مارس الزواج أربعة شهور فقط ، لأول مرة يبدو عاطف مهتما ، هل جمع حمدى عنه معلومات ؟ لكن لا يوجد في الحارة من يعرف أي تفاصيل عن علاقته برحمة ، فما بعد لم يدر متى بدأ يشعر بالاقتراب من حمدى ؟ هل سيعاود سيرته ؟ يتحمس للتأمل منذ اللقاء الأول ، تنقضى أعوام وهو أسير الانطباع الأول ، يتغاضى عن كل ما يتناقض معه ، يتجاهل الأخطاء ، يعامل قيما وأوصافا داخله هو ، حتى تقع المصائب فتجيء الكوارث ، يلوم نفسه دائما على نسيانه أقوالا بسيطة سمعها بداية حياته ثم نسيها ، ألم يدرس قصة قابيل وهابيل ؟ ألم يوقن باستحالة انفتاح إنسان على آخر إلا بعد أن لدغته الأفعى ، أدرك أن الآدمى حصن مغلق : مهما بلغت

المحبة وجسد الوهم ضخامة في القلوب ، تبقى دائما أبواب سحرية مغلقة لا يدرى أحد ما تخفيه ، تذكر قصة من ألف ليلة وليلة ، يصل البطل إلى قصر فاخر به كل أنواع النعيم يحوى سبعة أبواب ، يقول صاحبه للبطل ، افتح ما شاء لك من أبواب واستمتع بكل ما تجده لكن احذر الباب السابع ، دائما يوجد باب سابع في كل علاقة ، عندما يفتح يذوب النعيم كله ، عاطف آثر الا يدخل القصر ذاته حتى لا يغالب ضعفه أمام الباب السابع ، ما يشده إلى روض أن العلاقة بينهما مهما نمت سيظل لكل منهما عالمه ، جلوسه إلى حمدى مرات لن يزيل ما أحاط نفسه به ، القدرة على البوح أمر لا يقدر عليه من أصيب بجراح نافذة ، صحيح البدن يجرى ، يعوم ، يغطس ، أما العليل فمن أين له هذه المقدرة ؟ إذن ليطمئن ، ستظل الحواجز مقامة ، روض الآن في البيت ، قبل نزوله قالت « ربما نمت الليلة عندك » تذكر حلم المراهقة البعيد ، أن يقضى الليل بجوار امرأة يناها وقتما شاء ، تفاجئه فكرة مزعجة ، ربما تعرف رحمة ما جرى له ، تظهر سخرية ، تتبادل عنه حديثا موجعا مع نبيل ، يتمنيان له شفاء عاجلا ، تبعد عنه تماما كامرأة حمدى ، لكن الخبر معروف في الصحف الأجنبية ، كيف يواجه رحمة لو التقى بها بعد لحظات ، منذ هذه الليلة الربيعية ، الاثر يلية لم يرها ، ربما تغيرت ملامحها ، بعد هذه الليلة اليتيمة ، استمر فترة مقتنعا أنهما لو التقيا صدفة سيزول الحلم البغيض ، ستتسم تنتفض لحظاتها الحلوة ، يدب النماء ، يفرد الخصب ، لم يدر الا فيما بعد أن ضوء حجرتها الذى رآه من الشارع وقتئذ أضاءه لها حقائبها ، ساعدها على ترتيب ملابسها التي لمسها وشم رائحتها مرارا ، الفستان الأصفر المنقوش بورود حمراء ، الفستان الأخضر الذى تتناثر فوقه أوراق نبات صفراء ، طاقم السهرة الأسود ، جوارب النايلون القميص الداخلي المائل إلى اخضرار المحفوف الطرف بالدانتيل ، كل هذا أعد لرجل آخر وجه الضربة فأصابت مقتلا ، انفسحت ثغرة وقوضت بناء ، لو قابلته رحمة فجأة ، إذا لمحت هيئته غريبة عنها ستنسى عجز الحارة ، والطلسم ، ستبتسم ، تحاول التفتيش عن تأثير اللقاء المفاجىء ، تخلق

سحابات ندم فى سماء روحها . تتفحصه ، تلاحظ انعدام مرحه . توارى عينيه كأنها تراجعتا إلى الوراء قليلا . تسأله عما به فيقول إنه مشغول بأمور هامة ، يضيق وقته للغاية لهذا لن يستطيع البقاء معها . تنظر إلى قميصه ، إلى جيوبه الأمامية التى تبرز منها أوراق ملونة ، وبطاقات . تتوقف عند الحزام الجلدى العريض المحيط بخصره ، تشهق فزعة إذ تلحظ الجراب الجلدى البنى المتدلى من الحزام « عاطف .. ما هذا ؟ » لن يقول لها إنها غدارة حديثة جدا ، محشوة بالرصاص ، اثنتى عشرة طلقة يمكنه اطلاقها بضغطة من الزناد . ما يخيفها منظره الذى تضفى عليه الغدارة رهبة وغموضا ، تدليها من الحزام الجلدى أبرز رشاقة جسمه . لا يعلق كثيرا على دهشتها وتساؤلاتها . ربما ناقشت الأمر مع نبيل ، يدب الذعر إليه . ربما يطلق عليه عاطف الرصاصات . عاطف يمشى متمهلا ، يلتقى بحمدى الصحفى ، يجيب على أسئلته بخصوص الغدارة ، يحدثه عن ندرتها ، وقدرتها ، ودقتها ، مهارته فى التسديد . يثير ذعر الداهورى الذى يرجوه بصوت عال أن يدسها فى جرابها الجلدى ، ترهبه الحارة . فى البيت ترمقه روض باعجاب يفوق أعجابها الأول ، إنه يتوقف الآن أمام فترينة متجر سلاح وادوات صيد . بنادق ضخمة بفوهتين . حراب ، أحذية غطس ، نظارات الرؤية تحت الماء احزمة مليئة بالخراطيش ، طيور محنطة ، فى الخلفية صورة ملونة لرجل أجنبى يصوب مسدسا فى اتجاه شىء فوق جبال مكسوة بالجليد ، إن عاطف يمر بعينيه متمهلا على صف طويل من الغدارات . أحجام متنوعة وأشكال مختلفة . الخشب البنى ، الفوهات السوداء . لبعض الغدارات ملامح أنثوية . يشمئز ، يتناقض مظهرها مع جوفها المهلك . المسدس لفظ مذكر حتى لو أطلق عليه غدارة ، تتسمر عيناه إلى غدارة محددة الملامح . صريحة الفوهة . مستطيلة المقبض . ترقد فى صندوق خشبى مبطن بقطيفة حمراء ، يطيل التأمل ، يرفع رأسه ليقرأ اسم المتجر ، ينظر فى الساعة ، السابعة ، أمامه نصف ساعة يكفى للعودة . ونصف آخر يتأهب خلاله

للنوم ، غدا يعود ليرقب الجسم المعدنى المحدد . الراقد كلهم يراه المارة فى اليوم الواحد عشرات المرات ، لكنهم لا يعون ..

* * *

من تقرير سريع لرئيس هيئة الأعلام عن تطور الأحوال الزعفرانية عالميا :

تفيد تقارير الملحقين الاعلاميين فى سفارات البلاد وتقارير وكالات الأنباء ان الأحوال الزعفرانية بدأت تحتل موقعا كبيرا من اهتمامات الرأى العام العالمى . وما يلفت النظر ان تتحدث صحيفة صغيرة تصدر بالفرنسية فى « لاباز » عاصمة كولومبيا عن الشيخ عطية ، تصفه بقديس العصر الذى سيغير العالم وفقا لأسلوب جديد ، مثل هذا النشر يعنى ذيوع أمره الى بلاد بعيدة ، أما كبرى الصحف الأوربية فلا تخلو من نشرة أخبار يومية مفصلة عن الشيخ فى صفحاتها الأولى ، حتى خصصت « اللوموند » عموداً صغيرا ثابتا فى الزاوية اليمنى لصفحتها الأولى ، يتكون من خمسة وعشرين سطرا تطبع بحروف بارزة ، وفى عددها الأسبوعى الأخير نشر مقال بقلم البروفيسور كورتو المتخصص فى الفلسفة الاجتماعية تحدث فيه عما أسماه فكر الشيخ عطية ، وموقعه بالنسبة للمفكرين العالميين الذين أحدثوا ثورات ضخمة فى تاريخ الإنسانية . وفضل عليهم الشيخ عطية لامتلاكه الوسيلة العملية التى تمكنه من تحقيق أفكاره ، ورد على بعض العلماء الذين تشككوا فى قدرة الشيخ على إخصاء الرجال ، تحدث عن إمكانية تأثير الوهم فى حالة وجود شخصية قوية تعمل فى ظروف معينة ، وقال إن الخوف والاحترام لدى الجماهير تجاه زعمائهم مما يدخل فى تركيب الوهم بدرجة عظمى . كما نشرت الصحف اليونانية ، والإيطالية والأسبانية والكندية مازعموا أنه فكر الشيخ ، وسمى كل جزء بالمنظور ، وبلغ عدد المناظير

المنشورة حتى الآن أربعة ، يتناول الأول القدرة على الحب الشامل ، والثاني حول الحروب والأوبئة والمجاعات واستمرارها منذ بداية خلق العالم وعدم جدوى كل الجهود التي بذلت لانهائها . وضعف الذاكرة الإنسانية الجماعية . والمنظور الثالث يتحدث عن الحقيقة المخفاة ، ويتناول بعض الحقائق الواضحة . الساطعة كالشمس ، والتي يمكن للأنظمة السياسية تمويهها واقناع الناس بعدم جدوى ما هو في مصلحتهم . وضرب أمثلة بالغنى والفقر ، وكيف يتقبل ملايين الخلق حكم أقلية من الناس ، أو الخضوع لحاكم مضلل سنوات عديدة تأكل أعماراً كاملة . والرابع بعنوان « الوهم الجميل » ويدور حول الأوهام التي تفقد الخلق عن رؤية الحقيقة أو المطالبة بحقوقهم . ترجمت هذه المناظير الى لغات عديدة ، طبعت في طبعات مختلفة ، خاصة في الهند وأفغانستان ، حيث ظهرت جماعات تعلن ولاءها للشيخ . وخلال الأسبوع الأخير تقدم السفير الدائم لدولة « مالاانديا » باحتجاج يتضمن استنكار حكومته لما سماه بتدخل أجنبي في شئون شعبه الداخلية ، أشار إلى وجود تجمع ضخم ظهر إلى الوجود فجأة يتلقى تعليماته من الشيخ عطية ، عقد هذا التجمع عدة اجتماعات موسعة خطب فيها عدد من زعمائهم ومعظمهم كبار السن . أعلنوا ميلاد قوة لا تقهر سوف تحسم كافة أشكال الصراع والحروب بين الإنسان والإنسان ، بين الإنسان وذاته . من ناحية أخرى وقعت اضطرابات واسعة بين البوليس والمتظاهرين في مدن الهند الرئيسية ، ودولة مالاجاشيا ، عندما تجمع الآلاف في الميادين الرئيسية وهتفوا داعين الشيخ عطية مد نفوذه إلى كافة أرجاء الدنيا . وأن يغير ويبدل فقد طال إنتظار البشرية . واكب هذه الدعوات أعمال عنف شرسة هوجمت خلالها مؤسسات ومراكز أعمال ، وقام بعض البحارة في المحيط الهندي بالاستيلاء على ناقلة البترول « أوانشا » التابعة لاحدى الشركات الهولندية . أعلنوا انتهاء الوهم الطويل وأنهم لن يسمحوا بمص دمائهم . أبرزت وكالات الأنباء الأجنبية هذه الأنباء ، كما بدأت الإذاعات العالمية تتعرض للشيخ عطية ، وأول إذاعة تحدثت

عنه في برنامج أخباري « مونت كافرى » وأول إذاعة أعدت عنه برنامجاً خاصاً « أنقرة » ، كما تولت محطة « روكسانا » الموجهة إلى البلاد العربية . وإذاعة « رصانيا » الموجهة بالعربية إلى المشرق ترديد أخبار عنه ، وتشير تقارير الآراء العامة المرفوعة في المدة من ٦ — ٧ إلى ١٢ — ٧ من قبل « جماعات الأمن الملتزم » و « هيئات الاتحاد الأمني » و « مكاتب مكافحة السخرية والنكت » إلى اهتمام الرأى العام بالشيخ ، ولهذا نقترح ، أولاً ، أن تنشر صحفنا أخباراً عن ظهور رجل يدعي أموراً معينة ، وستقوم أجهزة اعلامنا بتدبير حملة قوية ، الغرض منها إظهار الشيخ على هيئة مشعوذ مجنون ، في نفس الوقت توازيها حملة أخرى عن حدث عارض ، محلي ، تسلط عليه الضوء بشدة ، كحالة قتل معينة ، أو مجنون هارب في المدينة يهدد الأبرياء بالخنق والذبح ، وستتولى كتابنا وصحفيونا السخرية من الصحف الأجنبية والتنظيمات الموالية للشيخ ودور النشر التي تطبع أعماله . إن إذاعة أخباره ونشرها ستؤدى إلى امتصاص قدر كبير من اللغط الدائر » .

نص تأشيرة على ملخص لتقارير عدة عن الأحوال الزعفرانية :

تشكل لجنة عليا تختص بالأحوال الزعفرانية ، وتضم كلاً من :

* المسئول الأعلى عن المواطنين .
* رئيس هيئة الفكر العليا .
* رئيس هيئة الصحة العليا .
* منسق الشئون الأمنية .

* * *

علا صوت التكرلي بعد انقطاع . أثناء وقوف الأهالي لتسلم وجبة إفطارهم بدأ زعيقة عندما رآهم يلتفون إليه . ورأى نبيلة تخرج من الشرفة ، خديجة الصعيدية تطل من نافذتها حتى أم محمد حجبت الضوء عن عينيها ، تطلعت إليه . صاح واصفاً الأهالي كلهم بالجبن ، طالما قبلوا السكوت فسوف يحل بهم ما هو أفظع . يسارع طاحون بمقاطعته قبل أي أحد حتى يسجل سبق الدفاع عن الشيخ ، يطلب صمت التكرلي ، يجب ألا ينسى أنه من الزعفراني ، بأعلى صوت يقول التكرلي إنه سيعزل في نفس اليوم . تأخر على أمل اشتراك بعض الرجال معه ومقاومة فساد الشيخ ، لكنه لم يجد رجلا لماذا ؟ خلو الزعفراني من الذكور حتى قبل الطلسمة ، من الطابور يعلو صوت رأس الفجلة ذو الخفة البسيطة . يقول إن الحارة تعرف حقيقة التكرلي بفضل الشيخ ، لو صح خلو الحارة من الرجال فلأنهم سمحوا له بالإقامة بينهم حتى اللحظة ، يصيح التكرلي هائجا ، لم يبق إلا رأس الفجلة « أبو ريالة » ليرد عليه ، يعرف أمورا عن امرأته لو حكاها لشل مكانه ، يزعق رأس الفجلة « اسكت يا قواد » يتردد صوت نسائي « عقبى لنا » ، يتعرف طاحون إلى صوت امرأته . يخرج من الطابور ، يلتفت إلى نافذة بيته حيث تطل امرأته في قميص نوم أحمر ، « إدخلي .. إدخلي » ، تلوح بيدها كأنها تقول « اسكت يا أخي بلاهم » ، يتزايد إنزعاج طاحون الصامت . لا تفوت فرصة إلا وتقوم امرأته بزيارة الجيران أو الحديث إلى الرجال من النافذة ، لا تعبأ به ، نظراتها تعيره بما جرى له ، عندما حدثها عن مشروعه الخاص بتحقيق العدالة عن طريق الانفاق أملا منه كسب احترامها لتفكيره في أمور جليلة ، سخرت منه وقالت إن من يكشف دماغه سيجد شبكة مجاري ، إن التكرلي يختم صياحه بصقة قوية فوق الحارة كلها ، أثار خبر عزاله مناقشات تنوعت واختلفت . بعد تناول الإفطار تساءل كل رجل وامرأة تقريبا ، هل

سيتعرض عويس للتكرلي في نداءاته ؟ ، ترقبوه لكنه لم يلمح بأي إشارة إلى التكرلي ، وتضمن النداء ردا قصيراً عن بعض الاستفسارات الموجهة إلى الشيخ والتي تتضمن حيرة الأهالي حول شعائر دينهم ، هل يصومون رمضان خاصة أنه على الأبواب ؟ رد الشيخ بأن ما سيجريه من تعديلات على الإنسان والعالم لن يمس جوهر الأديان والعقائد والملل . تعاليمه تمس أموراً جوهرية غير متعارضة مع الحقائق العلوية ، وعندما يتفهم العالم ما جاء و يستجيب سيتكشف الخفي و يظهر كل أمر واضح جلي ، حوالي التاسعة تساءلت أم سهير في حديثها إلى أم نبيلة عن الكيفية التي سينقل بها التكرلي أثاث بيته ، من سيجازف برجوله و يدخل الحارة لنقل العفش ؟ والحقيقة أن هذه المشكلة تجسدت وعرة قطيعة أمام التكرلي .

أثناء تناول الزعفراني إفطارها خرج ، اتجه إلى شارع البيدق حيث تكثر شركات النقل ، فوجيء برفض قاطع ، واستفسارات موجهة إليه ، ونظرات سخرية ، طلسمت الحارة معروفة لدى كل أصحاب العربات ، اضطر إلى الانصراف بسرعة خاصة بعد تجمع عدد كبير من السائقين والحمالين والمارة حوله وتفحصهم الوقح له وتردد صيحات عديدة « الحقوا .. هنا زعفراني .. » ، ذهب إلى ميدان السيدة زينب محاولا استئجار عربة كارو ، لكنه لم ينجح أيضاً ، مضى إلى الدراسة ، إلى العباسية ، كوبري القبة ، حوصر في كل مكان برفض وتطلع شره ، قال أحد العربجية إنه ليس مستعدا أن يصبح مثله ، أخيراً نجح في اقتياد صاحب عربة كارو ، عجوز ، أصم ، يقف بميدان الظاهرية ، لم يناقشه في السعر الذي عرضه عليه . سلك به طريقاً طويلا خلفياً حتى لا يراه أحد أهالي الحارة مصادفة فيفسد كل شيء ، استغرق بحثه المضني سبع ساعات بحيث لم يقترب من الحارة إلا حوالي الرابعة . في هذا الوقت الذي يتسحب فيه الضوء سمعت امرأته قرقعة عجلات فوق بلاط الحارة ، عندما أطلت رأت الأهالي كلهم

ينظرون من النوافذ والشرفات . يشير التكرلي إلى أعلى . العرجي يهز رأسه .
صاح بعض الاهالي لكن العرجي لم يلتفت حوله . التكرلي يدفعه إلى أعلى بينما
يستدير إلى الوراء ملوحاً بقبضته مهدداً . اكرام امرأته تتألم الآن . انتقالها بسبب
هذا ضيقها . فترة طويلة أقامتها هنا . صحيح أنها لا تعترض على كل ما يقوم به .
حتى لو غادرها أياما بدون طعام في ثلاجته ثم ستنظر إليه بنفس الخجل . عادة
لا يبقى معها نقوداً . كل ما تحتاجه يحضره هو . لا تطلب منه الخروج . أو
الذهاب إلى السينما إلا إذا دعاها هو . لكنه عندما أخبرها بنيته في مغادرة
الزعفراني سألته عن السبب ؟ أبدى إنزعاجاً شديداً لأنه نادراً ما يسمعها تعترض
عليه . ولأنها تجهل ما حولها . أما تساؤلها فيتضمن إهانة له قالت أيضاً إن تحذير
الشيخ ينص على سريان الطلسم داخل الحارة أو خارجها . أبدى غضباً . هل
ستصدق هي أيضاً هذا الشيخ المجنون ؟ اقترب منها . أحاطها بذراعيه . قال
هامساً إنه يتوق إلى استئناف سهره معها وحكاياته لها . عضت شفتيها . تخشى أن
تكشف تعابير وجهها عما تعلمه ؟ إذ حدث منذ أيام أن خرجت معرضة نفسها
لانتظار الزعفراني . لاحتمال لقائها المفاجيء بزوجها . ان ذهابها إلى نبيل في
أقصى المدينة من أشد المغامرات التي خاضتها خطورة . التقت به . احتضنته .
قبلته . نظفت الحجرة . رتبت الكتب . أصرت على قيامها بغسل ثيابه ولكنه
رجاها أن تجلس إليه . أستدارت اليه بوجه يختنق رغبة . ناغته . لكن حينا .
ابتعدت عنه . بكت . لم يتكلم نبيل لكنه قال عند انصرافها . يجب احترام ما
يقوله الشيخ . قالت إنها خافت عليه لكنها لم تستطع بعدا عنه . تمنت لو كتب
إليها خطاباً وردت عليه . يتجمع لديها مجموعة من خطابات الغرام . تقرأها كل
يوم بعد خروج التكرلي . لم يلفظ نبيل الكلمات التي ترغب سماعها . التي لم
تصغ إلى مثلها من التكرلي أو الرجال الذين احتووها . في البداية ترى شفتيهم
وخدورهم . لحظة إفراغهم لشهوتهم يرغب كل منهم في الفرار. بعضهم لا يتبادل
معها كلمة . أما نبيل فبدا متمهلاً برغم صغر سنه . آخر ما يرغب فيه جسدها .

عندما علا صوت التكرلي ينعجنه قبل يدها . لأول مرة رجل يقبل أناملها . ثم
انصرف . طلبت منه أن يأتي نهاراً ليقضيا أطول وقت ممكن منفردين . ما أزعجها
اثناء زيارتها الأخيرة له شعورها بنفوره منها . ربما يرى فيها تهديدا لرجولته . هذا
رجته بحرارة أن يكتب إليها . لكن لم يصلها بريد . تعزي نفسها بامتناع سعاة
البريد عن الدخول إلى الحارة بعد إصابة أحدهم بالطلسم في الأيام الأولى ،
تماماً كمحصلي الكهرباء . والباعة الجائلين . وممرضات الصحة اللواتي يجئن
لرش البودرة المهلكة للحشرات . و بعض خلسة أمنيات منها المراهقات . قررت
القيام بزيارة أخرى خفية إلى نبيل بعد انتقالها إلى مسكنها الجديد . لو علم
التكرلي ربما قتلها . إنها تودع الآن جزءاً من عمرها . في حجرة النوم الداخلية
الطلية بالزيت ابتسم أمامها لأول مرة . همس حلو الكلام في أذنها . فكرت في
طفولتها كثيرا . قضت سنين عمرها في الصالة اثناء غياب التكرلي . ان خوفا
يعتزوها على مهل . ماذا ينتظرها في المسكن الجديد ؟ الجيران . الرجال الجدد .
شكلهم . حيرتهم . سحنتهم . ربما يفقد الأمل منها فسعى للاقتران بأخرى
و يلفظها هي . أمنية خفية ستفارقها لو ذهب إلى الشيخ . تقضي عليه شهوداً
غامضة . لا تزال تتذكر إشارته إليها على لسان عرسي . أنها سيدة طيبة ولن
يحكي ما يسيء إليها . برغم كل ما جرى فإنها تفارق مكاناً عزيزاً . كل قطعة
أثاث تفك و ينقلها العرجي الاصم كأنها تنتزع من لحمها . تنظر بأسى إلى
زوجها . يتحرك بنشاط . يحمل حقائب الثياب . وأطباق الصيني . والأواني
الزجاجية . يتعجل الرحيل . انها تودع الأمن والاستقرار وعودة التكرلي اليومية
إما بمفرده أو مصطحباً أحد الرجال . كل مقعد ينقل يبدو مكانه فارغاً . يصبح
البلاط أكثر رطوبة . والبيت كالفم الخرب الذي خلعت أسنانه . الأهالي يرقبون
رص المتاع فوق العربة كعادتهم كلما رحل جار أو جاء ساكن جديد . يحاولون
التعرف الى مستواه الاجتماعي من قيمة الأثاث وما يضمه . الآن يتخيل
بعضهم ما جرى فوق السرير الذي يرقد مفككاً فوق العربة . بينا يرقب آخرون

العرجى الأصم . يتخيلون ما سيجرى له الليلة لو اقترب من المرأة تنتظره فى مكان ما . ان رأس الفجلة يروح ويجيء الى الشرفة قلقا ، فريدة خرجت منذ ساعة مبكرة مع ابنتها نشوة منذ الصباح ، لم ترجعا ومنذ ساعة جاءته أمه التى لا تنزل من فوق السطح كثيرا . . قالت بصوتها المرتجف « خذ بالك من بيتك » . عادت تصعد السلم مرتعشة الخطى ، مهيبة كالنذير . قرر أن يخوض الليلة معركة معها ، سيمنع دروس الإنجليزية التى تجعلها يذهبان إلى بيت رجل غريب . إنه قلق أيضاً لرغبته فى التحدث خلسة إلى التكرلى . يرجوه بحرارة الاتصال به لو رفع عنه أثر الطلسم بعد فراق الزعفرانى . عندئذ يبذل المستحيل للانتقال إلى مسكن آخر مهما ارتفع المبلغ الذى سيدفعه كخلو أو مقدم لن يبالى بالإيجار الشهرى ، المهم إنقاذ نفسه وبيته من الزعفرانى وطلاسمها حتى لو أنفق مبلغاً يوجعه . إنه لا يفارق الشرفة . عندما قاربت العربة على الامتلاء بدأ يستعد للنزول حتى يتحدث إلى التكرلى . الست بثينة أيضاً ترقب الجيران الذين يتأهبون للانتقال . ازدادت نحولا . الطعام لا يقرب معدتها إلا على فترات متباعدة ، تظلل عينيها ، تضيقهما . لا تنام إلا وقتاً محدوداً خاطفاً ، تخاف الموت إذ يغلبها التعب . طول اليقظة . يتردد فى أذنيها وقع خطى غامضة ، أنفاس تلمس جلدها . تبدأ فى السقوط عبر منحدر حلزونى لا نهائى . توثقها قيود غير مرئية . تستيقظ لاهثة ، هجرت شقتها ، تخشى موتها وحيدة ، تجلس فى الحارة تقاوم النوم ، يضطرب ذهنها بصور عديدة ، ترى البيوت بعينى ما بعد الموت . سيبقى كل شيء ، وستستمع آلاف النساء بلحظات المتعة بعد أن تمضى هى لن تدع للموت فرصة الانفراد بها أبداً فى الشقة . ماذا يعنى عزال التكرلى ؟ لابد أنه السليم العافى الذى لم يلحقه الطلسم ، يريد النجاة بنفسه . تتعلق بأوهى الخيوط . يرى الأهالى فى هذه اللحظات ، الست بثينة منفوشة الشعر ، تتجه حافية القدمين إلى بيت التكرلى ، تلتقى به فوق السلم ، بابتسامة طرية تتناقض مع ملامحها الحادة واضطراب عينيها ، تتوجه إليه بالحديث « تسمح كلمة » ينظر

إليها بدهشة . حذر يوشك أن يبلغ الخوف يبدو فى عينيه . يقفز السلم مبتعداً . « نعم ياست انت » . تقترب منه متمهلة « لو سمحت عندى خمس دقائق » . يعلو صوت التكرلى . تقول خديجة الصعيدية إن بثينة ربما أقرضت التكرلى نقوداً وتسعى لاستردادها ، أم سهير تؤكد وجود أمر غامض . تقول زنوبة أنها تسمع صراخ بثينة ليلا لكن أم يوسف اقتربت من الحقيقة عندما قالت إنها تريد جس أحوال التكرلى قبل إفلاته من الحارة . يراها الأهالى الآن تخرج مندفعة فى أثر العرجى الذى يحمل فوق كتفه حشايا ، تتوسط الحارة ، تدفع أشخاصاً مجهولين عنها ، تشب فوق قدم أثر أخرى كأنها ترقص رقصة غامضة غريبة ، تبرق عيناها ، تجز على شفتها بأسنانها . يزعق التكرلى « حارة مجانين . . » عندما ربط العرجى البغل إلى العربة وبدأت فى التحرك أسرعت بثينة . تعلقت بها كما يفعل الأطفال . التفت العرجى خلفه ، رفع عصاه ، مال جسمه ، هوى بها فوق رأسها ثم يديها ، سقطت . صاح بعض الأطفال مستهزئين . لكن الأمهات نهرنهم ، إن تمزق ثياب بثينة وجريها وانتفاخ وجهها أحدث رعباً خفياً ، حزناً فى الزعفرانى ، أم سهير لم تستطع منع دموع ذرفتها على أحسن الستات . التى لم ترتد إلا أفخر أنواع الثياب ، لطالما أغرق عطرها الزعفرانى كلها أثناء خروجها ، حتى أم يوسف راحت ترقبها بهدوء وخوف . لا يذكر أحد من قال إن ما جرى لها تستحقه تماماً لأنها بدأت بإثارة الشغب فى الحارة . لأنها سبت الشيخ علناً أكثر من مرة عند خروجها لتشترى الخضار أو السمك من السوق القريب فى بداية الطلسمة ظنت أن ما تقوله لن يبلغه ، لكنه يرى كل شيء من مكمنه ، يسمع الهمسة ، يعرف حقيقة الآهة ونوعيتها ، إخفاء الفكرة عنه عبث ، يدرك كل شيء ، يفهم اللغات واللهجات ، يعرف القلم الغريب ، يمكنه إقامة الجسور والصلات مع سائر أنواع الجماد والحيوانات ، هذا ما تناقله الأهالى فى الليلة نفسها ، تنبأوا للتكرلى بالمصير الأسود ، ظلت بثينة ملقاة حتى ميعاد النوم الإجبارى ، همدت فوق أرض الحارة ، لكنها فى الحقيقة لم تنم الليل فى الزعفرانى ، لا أحد يحميها من

الموت سنين في الطرقات والميادين ، تهرب منه ، من مدينة إلى مدينة ومن بلد إلى آخر .

بعد تحرك العربة الكارو . ظهر التكرلي متأبطاً ذراع امرأته . يمشي متمهلاً . يحمل حقيبة صغيرة . يرتفع رأسه في تحد واضح . لم يحي أحداً ولم يلق السلام . تطرق امرأته إلى الأرض بخجل . تحتمي بشبة المددة . في هذه اللحظات بدأ رحيل النهار واضحاً ، النساء ينسحبن إلى داخل بيوتهن . يغسلن ما تبقى من أوعية . يتأهبن لاستلام وجبة العشاء . تردد لفترة قصيرة صوت بسيوني الهجرسي يزعق لامرأة ابنه تولي . « ابتعدي عني . . ابتعدي عني يافاجرة أنا في مقام والدك » . تبع ذلك خروجها باكية وجلوسها قليلا أمام البيت ، دخلت من جديد ، حسن أنور لم يفارق الشرفة ، يستمر في ضرب المنضدة الصغيرة التي يضع فوقها خرائطه بقبضة يده ، لقد خسر جزءاً هاماً من قواته . انهارت جبهة من أخطر جبهاته . ان الخراب يجتاح المناطق التي أحتلتها قواته منذ قليل . استدعى روميل وعنفه ، يقدم القائد الألماني الكبير حججا تبدو مقنعة . نقص الإمدادات والوقود . لكن متى خففت الأدلة والبراهين مرارة الهزيمة ؟ . استدعى بعده رئيس الأركان العامة . جمع قادة الجيوش الميدانية . عمر مدير المخابرات . جورنج قائد الطيران . جوكوف قائد الفيلق الأوسط . دوق ولنجتون . نابليون . فون مولتكه مستشار الجبهة الوسطى . اللورد اللنبي . مونتوجمري . إيزنهاور . روكوفسكي . دونيتز . زعق في وجوههم ملوحا بعصاه . لابد أن يعرف سبب الهزيمة ، كيف عرف لفظ الهزيمة طريقه إلى مصطلحاته ولغته ؟ .

تطورات .

بعد تشكيل اللجنة العليا للأحوال الزعفرانية طرح الموضوع على أكثر من جهة . ناقشه أكثر من مسئول مع مرؤسيه . أبدت الأجهزة المختلفة اهتماما كبيرا بهذا الأمر البالغ الأهمية .

بالنسبة لجهات الأمن العليا فقد انشغلت بعدة أمور هامة . منها تدبير وسيلة لمراقبة تصرفات الأسطى رمانة الهجرسي ، أصر قسم مكافحة الأفكار الهدامة على مسئولية الأول ، وقدم قسم مكافحة التعصب العديد من الخطابات التي جاءت تصف نشاط الدعولولي . على أعلى المستويات تقرر رصد تحركات الإثنين . في البداية شكلت لجنة عليا من المختصين بهيئة الأمن الأعلى . مثل فيها عن كل قسم ضابط برتبة العميد ، نشأ نزاع بين قسم مكافحة الأفكار الهدامة وقسم مكافحة التعصب عندما تقرر الاستعانة بالخبير الوحيد في البلاد الحاصل على دكتوراه علمية في طرق اكتشاف الآثار المنسية ، أصر كل قسم على الاستعانه به ، قدم كل منها حججاً قوية ، أوشك الأمر أن يصل إلى نزاع لا تحمد عقباه . لكن رئيس الأمن الأعلى حسم الموضوع عندما قرر عمل الخبير بشكل أساسي تبعاً لقسم مكافحة الأفكار الهدامة نظراً لخطورة رمانة ، وإمكانية اتصالة بجهات أجنبية ، مع انتدابه الخبير يومياً لمدة ساعة يقدم خلالها النصح والمشورة إلى مكافحي التعصب . اقترحت اللجنة بعد اجتماع دام ست ساعات كاملة تشكيل لجنة فرعية لبحث ما يمكن للأسطى رمانة القيام به في الزعفراني . ثم تلا ذلك سلسلة اجتماعات ، ورجوع إلى الملفات وتقارير مأموري السجون المعتقلات التي ضمته مددا مختلفة . وملاحظات الحراس ، والجواسيس من السجناء ، والاستعانة بمراجع علمية متخصصة ، تم شراء مرجع من إيطاليا خصيصا بالطائرة . أمكن الوصول إلى تصور لما يمكن أن يقوم به من أعمال هدامة ، تتلخص في محاولته نشر معتقداته على الحارة ، وأكدت اللجنة هذا الافتراض بما ورد في التقرير السرى المرفوع إلى المشرف على الأمن المستتب ، واستند إلى مصادر أمكن تجنيدها من الزعفرانيين ، و يفيد التقرير أن أحد سكان الحارة ، وهو طالب يتردد بانتظام على الأسطى رمانة ، وان خلواتهما تتزايد ، و يدل هذا على نية رمانة العمل في الأوساط الطلابية ، أما الأمر الثاني الذي استخلصته اللجنه فهو توافر الامكانيات لإيواء مطبعة سرية ، أما الافتراض

الثالث فهو تجميع أسلحة تمكنه من تنفيذ أعمال تخريبية فى حالة انتقاله إلى مرحلة الكفاح المسلح . رأت اللجنة الفرعية ضرورة بذل الجهود عليه عند خروجه من الحارة وعزله فى معتقل بعيد . فى نفس الوقت بحثت اللجنة موقف لولى الهجرسى . وتم تجميع معلومات كافية عن نشاطه . وحياته ، كما أمكن مراقبته بانتظام بسبب ذهابه اليومى إلى المصنع ، ورصدت التقارير ظاهرة محيرة ، هى عدم أدائه فرائض الصلاة ، مما دعا رئيس اللجنة إلى الشك فى الخطابات المرسلة ، لكن مسئول القسم أكد أن والد المدعو أحد كتبة هذه الخطابات . وبالتأكيد دفعه إخلاصه إلى وطنه وإلى مهنته القديمة كمخبر للتغلب على عواطف الأبوة . وبناء عليه تقرر استمرار مراقبته .

هذا ما تم فى دوائر الأمن . فى نفس الوقت صدرت توجيهات عليا بضم ممثلين عن كافة المصالح الحكومية والهيئات والمؤسسات إلى اللجان الفرعية المنبثقة عن اللجنة العليا لمتابعة الأحوال الزعفرانية ، قدم اقتراح من أحد أعضاء المجلس المنتخب باعلان حقيقة ما يجرى فى حارة الزعفرانى واعتبر هذا مانعا للمضاعفات والهمسات التى تتحول إلى صرخات غير معترف بها . لكن المندوب الاعلامى رفض هذا ، سيعد نشر ما يجرى اعترافا رسميا بما سبق تكذيبه . لقد نشر الأمر فى أكثر من صحيفة عالمية قبل أن تعلم به الجهات المسئولة فى البلاد ، ولا يدرى أحد كيف تسرب الخبر ، لكن عالم اليوم لايخبأ فيه أمر وأيضاً تختفى فيه كل الأشياء . أبدى أعضاء اللجنة تعجبهم وطالبوا بإيضاح هذه النقطة الأخيرة . قال المندوب الاعلامى إن ما جرى فى الزعفرانى تلقفته الجهات الأجنبية . واستغلته الجهات المعادية لتشويه سمعة البلاد . وضرب حركة السياحة ، هكذا قفز اسم هذه الحارة الصغيرة إلى صدر الصفحات العالميه ، تضمنته العناوين المثيرة ، لكن يمكن رفض هذا كله . ثم قدم اقتراحا بإصدار اعلان رسمى يوزع على سفاراتنا بالخارج يتضمن نفيا لوجود حارة الزعفرانى

بالبلاد ، يوازى هذا تنفيذ خطة سريعه ترصد لها اعتمادات فورية بمقتضاها يتم انذار جميع أهالى الحارة لاخلاء منازلهم ثم يتم نقلهم إلى مساكن الدولة فى جهات متباعدة بحيث لا تسكن عائلتان على مقربة من بعضهما . ويعاد تخطيط منطقة الزعفرانى بحيث يراعى فى المبانى الجديدة الطراز القديم ، وستغطى هيئة الأعلام العليا المشروع بخطة محكمة تظهره على إنه أحد مظاهر الاهتمام بتجميل الأحياء القديمة والحفاظ عليها . وهكذا تتحقق عدة أهداف داخلية وخارجية ، قوبل الاقتراح بعدم ارتياح ، وقام مندوب الهيئة العليا للمبانى المنشأه من الطوب الأحمر بالرد علميا وموضوعيا فقال إن ما يطلبه الزميل ينطلق من ظروف الحركة الإعلامية فقط بدون مراعاة الظروف الأخرى . هناك استحالة هدم وتخطيط وبناء المنطقة خلال أيام ، ثم إن اختيار حارة واحدة سيثير الدهشة والريبة أكثر مما يبعث على الاقناع ، ومن الناحية العملية يستحيل اتمام المشروع فى مدة لا تقل عن ستة شهور ، أولا ، لا بد من تشكيل لجنة فنية معمارية لوضع التخطيط الجديد . ثم قيام اللجنة بمعاينة على الطبيعة . وهذه مستحيلة لطلسمة الزعفرانى ، ثم تحدث مندوب الهيئة العليا للمحافظة على الآثار فهاجم بشدة اقتراح المندوب الإعلامى ، وصفه بقصر النظر لتضحيته بتراث البلاد من أجل السمعة البراقة الكاذبة ، هدم الزعفرانى جريمة حضارية لاحتوائها على بقايا بيت يرجع تاريخه إلى العصر المملوكى الأول . هنا اعترض المندوب الاعلامى ، وقال إن هيئة الآثار تهمل فى المحافظة على آثار البلاد وتتركها عرضة للتلف ثم يهيج المندوب المحترم عندما يصبح الأمر متعلقا بهدم جدار يتوقف عليه سمعة الوطن ، رد عليه المندوب الآثارى بقلة الاعتمادات المخصصة للهيئة ، برغم ذلك فالهيئة تبذل جهودا كبيرة من أجل الحفاظ على تراث البلاد . ثم تلا قائمة بالأعمال التى نفذتها الهيئة خلال العام المالى الأخير ، طالب بنشر القائمة واتهم المندوب الاعلامى بتجاهل جهود هيئة الآثار العليا ، انتهى الاجتماع الأول بدون وصول اللجنه إلى قرارات محددة . فى نفس الوقت تضمنت تقارير الاستماع التى تقوم

بإعدادها المصلحة العليا للتصنت والمكلفة بمتابعة الأحوال الزعفرانيه فى جميع الإذاعات العالمية تطورات جديدة. ورد فى أخبار «محطة ألبيبى زدينو جراس» إن جماعة من الرجال أطلقوا على أنفسهم «اتباع الشيخ عطية» أعلنوا إيمانهم بفكره، نيتهم فى إرسال وفد إلى المدينة التى تتشرف بإيوائه. كذلك أذاعت إحدى المحطات التى تبث إرسالها باللغه الهند وآسيوية انتظام أعداد كبيرة من المواطنين فى ولايه هيا كوالا فى صفوف طويلة وسيرهم تحت المطر ساعات، وتجمعهم فى الميدان الرئيسى بعاصمه البلاد وهناك وقف رجل خطيباً فيهم، قال إن الأمر هان. والميعاد حان، والبعيد اقترب والخفى ظهر، كل شىء سيعود إلى حاله، سترجع الأمور إلى بساطتها، ستلتئم الشقوق، ستتجاور الوديان، والسحب والأرض ستتعانقان، ستشمل العالم رحمة و ينتهى اللامعقول من دنيا الإنسان سيعاد تنظيم ما أعوج من نظام اختل واضطرب، ونقلت إذاعات مقدليانو، وكوبنشو، وهالوران، فقرات مطولة من خطاب الشيخ المسن، وقد وجهت المصلحة العليا للاستماع تقريراً سريا بما تضمنته هذه الأنباء إلى المشرف الإعلامى، ورئيس الهيئة العامة للمحافظة على سمعة البلاد ثم انعقدت اللجنة الفلسفية الفرعية. ضمت أساتذة الفلسفة فى الجامعات الأربع بالبلاد وذلك لدراسة أهداف الشيخ، فى الجلسة الأولى انضم ضابط برتبة لواء من الأمن المخصوص اعتذر عن عدم ذكر اسمه، ثم بدأ فى قراءة تقرير يتضمن الخطوط العريضة لأهداف الشيخ، وتلخص ما قاله الضابط فى حب الشيخ للعالم، ثم موجز للمنظور الثانى الذى يعلن فيه شفقته على العالم، ثم المنظور الثالث الذى يستعرض فيه بعض صنوف الشقاء التى يعانيها الإنسان، أما المنظور الرابع فيتضمن خطواته فى سبيل تصحيح مسار البشر، وسبيله إلى ذلك سلب الانسان أعز ما لديه إلى حين إيجاد وضع يجمع الأحوال المتضاربة المتنافرة فى حال واحد، أصغى الأساتذة بعمق، قام أكبرهم سنا، شكر اللواء على تجشمه مشاق

الحضور، وأكد اهتمام اللجنة بما تلاه. لكن هناك أموراً يجب مناقشتها فى حرية تامة قبل استعراض أفكار الشيخ منها مثلا تحديد من هو الشيخ؟

أهو حقيقة أم وهم؟ أهو وسيلة أو غاية؟ أهو علة أم معلول؟ و بعد الاتفاق على الخطوط الأساسية يتم الانتقال إلى مناقشة الأفكار، ومحاولة تقريبها إلى مدرسة فلسفية معينة، أو اطلاق تعريف محدد. وتلك أمور تحتاج إلى وقت لانتماء كل من الاساتذة إلى مذهب فلسفى مخالف للباقين، ثم طلب فى صيغة مهذبة من اللواء التفضل بمغادرة الاجتماع حتى لا يمثل وجوده تهديدا لحرية الفكر، امتثل اللواء، لكن هيئة الأمن الأعلى اوحت بضرورة بذل جهود مكثفة لتجنيد أحد الأساتذة لمعرفة ما يدور، ورفض رئيس الهيئة اقتراحا بتركيب أجهزة تسجيل سرية، وقال إن تجنيد أحدهم أكثر فائدة، ربما تمت الاستعانه به لتوجيه المناقشات إلى وجهات معينة، من ناحية أخرى استمر تدفق الشرطة السريين إلى منطقة الحى القديم، كما نشطت الهيئة العليا لتجميع النكت والأشاعات فى رصد كافة ما تنطقه الألسنة، نتج عن هذا ازدحام مقاهى الحى القديم بالغرباء، ظهر بعض مهندسى المساحة فجأة فى الشوارع القريبة من الزعفرانى، يقيمون آلاتهم على الحوامل الخشبية فى الطرقات، ينظرون من خلالها. استمر أحدهم يقيس الشارع الرئيسى لمدة أربع ساعات. ترددت إشاعة قوية عن نية الحكومة فى ازالة مجموعة ضخمة من المبانى والشوارع تمهيداً لسير الأوتوبيس، و برغم عدم ظهور أى دلائل عملية تؤكد أو تكذب هذه الإشاعة فإنها لم تخمد مما أقلق سكان البيوت القديمة، ذات الأيجارات المنخفضة.

* * *

بعض الوقائع

حدث أثناء خروج طاحون غريب اليومي أن لمح ورقة مطوية بعناية، ملقاة فوق الارض. ولأن كل تصرف يقدم عليه الآن يفكر فيه مرتين خوفا من خطأ غير مقصود ربما أغضب الشيخ، لذلك تردد قليلا قبل أن يميل و يلتقطها، عندما قرأ السطور القليلة المكتوبة بخط معوج وحبر لونه أخضر انتابه ارتباك، فكر، هل يبلغ عويس بما قرأه؟ يتلفت حوله، لا يقف أحد بالقرب منه، لم تره امرأة أو طفل، هل يعود إلى البيت و يبدأ تنفيذ ما جاء بالورقة؟ إذا علمت امرأته ستساعده. لن تبخل بأى جهد يحوى بصيصا من أمل في سبيل عودة رجولته لكن لو رجع سيبدو هذا مريبا، يمض إلى العمل، إلى غمزات زملائه. ونظرات الزميلات الموظفات المشفقة، إذ ترفع أحداهن عينيها عن دفتر تدون به بعض الأرقام أو السطور، يقرأ فيها اداراكها الحالة، كأنها تقول، أعان الله امرأتك، ربما يوجد عشرات الرجال في المصلحة لا حول لهم ولا قوة، أحوالهم مستترة، لكنه يمشي وكأن لافتة معلقة فوق رأسه.

شيء فظيع، عند باب الحارة قابله الأسطى على المكوجي، استوقفه، سأله عن صحته، عن احواله. قال إن الزبائن طفشوا من عنده، لا يكوى إلا ثياب أهالي الزعفراني فقط وتلك لا تكفي ثمن الجاز الذي يشعل به موقده، لولا الوجبات المجانية التي توزع لمات أولاده جوعا، رفع يديه دعا الله أن يمد عمر الشيخ، مال هامسا على طاحون، هل يعرف طاحون طريق أى شخص يقرضه نقودا؟ هز طاحون رأسه. ودلو نطق بسرعة، لكن على المكوجي لم يبد رغبة في الانصراف، قال إنه يفكر في جمع مقدار من المال، يكفيه كي يقطع تذكره سفر إلى الهند، هناك سيجد الطلسم المضاد لطلسم الشيخ، الطلاسم الهندية تجب ما عداها. كل المشاكل ستحل من الهند. قال فجأة متخليا عن اللهجة الخاملة التي

سادت صوته، لو أقنع طاحون الأهالي تجمع أجرة سفره إلى الهند، سيعود بالفرج، بسط طاحون يديه وكأنه يقول، من أين له القدرة على اقناع الأهالي؟ في نفس الوقت تفحص ملامح المكوجي، سمع من امرأته أن المكوجي يعود كل ليلة إلى الحارة سكران. يمضي إلى خمارة قديمة في نهاية شارع الموسكي يتجرع كئوس السبرتو، وقبل نوم الحارة الاجبارى يظهر متمايلا، يوقف كل من يقابله يؤكد وصول الفرج من الهند قريباً، لم تعرف الزعفراني سكارى من سكانها إلا والد نبيلة المدرسة، قبل موته أكثر من شرب الخمر، رآه الأهالي مرات راجعا يتمايل و يسقط أحيانا فوق الأرض، في أحدى الليالي طارده عدد من الصبية، بين الحين والحين يستدير ليواجههم، يحاول حفظ توازنه، يرفع يده خاطبا فيهم يزعق «اغبياء .. أنتم لا تعرفون ما أكنه في قلبي ..» تصادف عودة طاحون، نهر الصبية، صحب الرجل معه، راح يلتفت إليه متهما إياه أيضاً بأنه لا يفهم ما في قلبه. أم نبيلة تستقبله ببكاء وحزن، إن ادمان شخص للخمر يعتبر من الكوارث في الزعفراني، وكثيرا ما سمعت الحارة زعيق أم نبيلة إذ تحاول منع زوجها المدرس القديم من الخروج إلى الشرفة ومخاطبة الحارة، كثيرا ما تناقشت أم سهير مع زوجها، هل سيدخل مثله الجنة؟ هل تجوز الصلاة عليه؟ وقيل إن موظفا محترما جاء يخطب نبيلة لكنه تراجع عندما علم بسيرة والدها وأعراض الأدمان التي ظهرت عليه خلال السنوات الثلاث الأخيرة من عمره. قال المكوجي إن الفرج آت لا ريب فيه والهند لن تسكت، خيل لطاحون أنه شم رائحة خمر، ضاق، استأذن في الانصرف، لابد أن يلحق بالعمل، أسرع ممسكا بالورقة، لمح مقهى الداطورى مفتوحا، الجرسون يرش الأرضية الداخلية، يجلس هذا الشاب الذى يقولون عنه إنه يعمل بالصحافة، لم يتضمن أى نداء أذاعه عويس تحذيرا بالبعد عن هذا الصحفي، اعتاد الأهالي رؤيته جالسا إلى عاطف الجامعي، رآهما البعض يمشيان معا عند نهاية شارع الأزهر. طاحون يعتبر نفسه محصنا ضد أمثال هذا الصحفي. يعجب للسهولة التي استدرج بها عاطف.

أيضاً قرقر الموسيقار ، قال الداطورى إن مجىء مثل هذا الشاب (كلمة الشاب هنا تعنى الفحولة) لا يحمل إلا معنى واحدا ، هوطمعه فى نساء الحارة ، يتستر تحت عمله الصحفى الذى يحميه من المساءلة القانونية ، يلتقى هدفه بأهداف القوادين الذين تعرضوا لامرأة التكرلى ، إنه أخطر منهم لوجود من يحميه . لم يرد الداطورى ، استمر الصحفى فى التردد اليومى المنتظم ، ما يحيره الآن مجيئه المبكر فى هذا الوقت ، ربما اتفق مع امرأة ما من نساء الحارة على اللقاء بعد خروج زوجها ، يختلى بها ساعات النهار ، تعود قبل الثانية ، ترى من هى ؟ أم يوسف امرأته مثلا ؟ إن شبقها يطل من عينيها شرسا خلال الأيام الأخيرة . يحاول الهرب منه ، البعد عن مرمى عينيها . يتمهل فى خطواته ، يرى زوجته بعينى عقله تحكم الملاءة اللف حول جسدها . تتعمد الوقوف أمام المقهى ، تفردها ثم تلفها حتى تتيح للصحفى رؤية بعض من مفاتن جسدها . يقوم وراءها ، يلحقها فى حارة الوطاويط ، أو تحت بيت القاضى ، من ميدان الحسين يركبان عربة تاكسى تمضى بهما إلى بيته ، تتعجل الانفراد به ، يراها فى حجرة النوم ، طاحون يتخيل أوضاعا فاجرة تتخذها امرأته بالإضافة إلى أن الصحفى شاب مازال فى مقتبل العمر ، وهذا سيكشف أمام عينيها القوة الحقيقية لزوجها ، لا يدرى طاحون لماذا يوقن أن قواه أقل من قوى هذا الصحفى ؟ حتى لوزال الطلسم فلن تنسى الأفندى بسهولة . تضطرب خطى طاحون ، تغزوه حسرة هائلة ، يتحسس الورقة ، ربما يجىء الفرج بعد تنفيذ ما جاء بها حرفيا ، لم يبق طويلا فى المصلحة ، استأذن رئيسه فى الانصراف ، عاد يقطع الطريق إلى الحارة ، أبدى ارتياحا عندما لمح الصحفى جالسا بالمقهى ، عندما اقترب من مسجد سيدى مرزوق صاح بعض الصبية الذين تجمعوا فجأة « آه يانى .. آه يانى يازعفرانى » ، جفل ، برغم إسراع الصبية بالاختفاء إلا أنه جرى باتجاه الزعفرانى ، عندما تجاوز مدخل الحارة شعر بأمان ، بعد الحد الأمامى للمدخل لا يمكن لإنسان أن يتعقبه ، لا يمكن لرئيسه أن ينظر إليه بريبة بعد إعفائه مؤقتا من قيادة القاطرات وإسناد

عمل مكتبى إليه فى ورشة الآلات . أيضاً لا يمكن للصحفى الدخول . الزعفرانى هادئة تماما . اضطر الآباء إلى منع أولادهم من الخروج للعب مع أولاد الحارات الأخرى بعد تعدد المشاجرات . بقاء الأطفال فى البيوت يسبب مضايقات لاحد لها خاصة خلال عطلة مدرسية كهذه ، البيوت ضيقة ولا تحتمل الضجيج ، لكن الآن لا يغادرون الحارة أو البيوت ، صاحب هذا هدوء غريب أدرك الأولاد ، لم يعد يسمع زعيق أحدهم ، لم ير بعضهم يخوضون مباراة حامية فى لعب الكرة أو قذف الطوب ، معظمهم الآن يمضون أوقاتهم نائمين ، هدوء غريب لم يعتده طاحون حتى خطر له إنها ليست الزعفرانى ، ربما لعدم عودته من قبل فى مثل هذا الوقت المبكر حيث الشمس تفرش جزاء كبيرا من الزعفرانى ، والحركة الخافتة تتسرب من البيوت ، غسيل الحلل ، مسح البلاط . يطرق الباب ، لحظات ثم يسمع الشبشب يأط فوق الأرض ، لم يصغ إلى أى صوت ، يطرق الباب مرة أخرى . مرات ، يد خشنة تقبض قلبه ، أين ذهبت ؟ .. لكن الصحفى بالمقهى . هل يجلس عامدا كى يضلله ثم يقوم ليلحق بها فى مكان اتفقا عليه مسبقا ، ربما عاد فعلا من لقاء تم بينهما ، تأخرت هى قليلا حتى لا تثير شكا فى صدور رواد المقهى والجالسين أمام الدكاكين ، طاحون لا يحمل مفتاحا ، هى تفتح الباب دائماً ، يعود إلى خارج الحارة ، أى شبشب سمع ، أهووهم ؟ الصور تتعاقب على ذهنه الملتهب ، إنه يدخل إلى المسجد . يتوضأ ، يبدأ تنفيذ ما جاء بالورقة ، فى صغره لم يفته فرض واحد ، مع مرور السنوات أصبح لا يصلى إلا الجمعة فقط ، يمضى إلى الحسين كل أسبوع ، ثم يتجه إلى مقهى قديم أزيل الآن ضمن ما أزيل من مبان قديمة ، فى العامين الأخيرين تخلف عن صلاة الجمعة مرارا ، لكنه واظب على أداء صلاة العيدين ، اعتاد أهالى الزعفرانى التجمع فى ساعة مبكرة ، يهنئون بعضهم ، يتصافحون ، حتى لو تصادف وقوع خصومة بين البعض فإن كل شىء يصفو مع نسمات الهواء الباردة النقية التى تلفح وجوههم إذ يخرجون من الزعفرانى إلى الطريق . كل هذا .. انتهى الآن ، يخجل الزعفرانى

من مواجهة جاره ، هل يخرج من المسجد ؟ المكان الوحيد الذى يمكنه الجلوس فيه منفردا بدون مضايقة ، مقهى الداطورى ، لو ذهب إلى أى مقهى آخر لن يجد راحته ، ربما اعترضه الجرسون ، طلب منه مغادرة المكان ، يخاف الزبائن الاتصال به ، أو الشرب من كوب رشف منه شايا أو حلبة ، الزعفرانيون معروفون فى الحى كله ، قبل الطعام الجماعى منع البعض حريمهم من الخروج لشراء الخضار أو اللحمة ، عدد من الباعة أظهروا طمعا فى النساء ، تماما كالأشقياء المرابطين أمام السجون فى أيام الزيارات ، ينصبون فخاخهم للزوجات اللواتى يفتقدن ، رجالهن خلف الأسوار. لكن امرأته لم تراع هذا كله وخرجت . طاحون يشعر بوقوعه ضحية لمؤامرة عاتية ، هو الرجل الطيب المسكين الذى لم يؤذ أحداً ولم يتآمر علي مخلوق ، ولم يدس على زميل له ، تآمر عليه السمسار الذى أوصله إلى الشقة ، تآمر عليه رأس الفجلة عندما قبل تأجير المسكن له ، الداطورى الذى اختار لمقهاه موقعاً قريباً من الحارة . الرجال المتطلعون إلى أرداف امرأته الثقيلة كلهم شركاه فى المؤامرة ، لو تضامنوا معه فى تحقيق مشروعه الضخم الذى يضج به رأسه ، تلك الشبكة من الأنفاق المتلاقية المتفرقة التى يتجمع فيها كل الجياع ، فى لحظة معينة يهبون ، يخرجون إلى الضوء ، يجتثون كل ما أمامهم . يعدلون الأوضاع .

بعد قليل وقع من الحوادث فى الزعفرانى ما جعل حمدى الصحفى يقطع تأملاته وسكونه الذى لفت نظر الداطورى ، وما جعل طاحون يقاوم إغراء قوياً بالانقطاع عن كتابة البسملة والالتفات إلى ما جرى ، قبل انتصاف النهار ، تندفع امرأة شابة تحمل حقيبة ثياب ضخمة بنية اللون تتبعها فتاة فى حوالى السابعة عشرة إنهما مضطربتان ، يتدفق الدم إلى وجنتيهما ، تسند المرأة حقيبتها إلى الأرض ، قرب مدخل المسجد تميل الفتاة بحقيبتها إلى جوار الحقيبة الأولى ، تعود بسرعة إلى الزعفرانى ، تقف المرأة ، تتلفت حولها ، تفوح رائحة عطر خفيفة

من ثيابها ، تتشابك أصابعها ثم تنفرج لتتشابك من جديد ، لن يستطيع إنسان مقاومتها أو ثنيها عما قررت ، ها هى ذى ابنتها تظهر حاملة حقيبة بنية صغيرة ، منظرها عادى حتى هذه اللحظة ، لكن لم تمض ثوان الا تندفع امرأة عجوز ينحنى ظهرها انحناء شديداً ، وعندما رآها بعض المارة قدروا تجاوزها المائة عام ، مشيتها المتعثرة وصوتها النائح لفت انتباه حمدى الصحفى ، يستدير الداطورى على مهل حتى يواجه تماماً كل ما يجرى ، تصيح العجوز ، ياعاهرة ، ياخائنة ، تطلب من المارة أن يتقدموا ، أن يمنعوها ، كلما أحست باتساع المسافة بينها و بين المرأة والفتاة يزداد نواحها ، بالفعل تقدم أحد المارة منها محاولا استفسار الأمر أو استيضاحه ، لكن تنطلق صيحتان فى وقت واحد ، الأولى من المرأة نفسها ، والثانية من أحد الواقفين بالطريق ، « إحذر . . زعفرانية » ، يسأل حمدى الصحفى عن شخصية المرأة ؟ بعد لحظات يجيب الداطورى قائلا إنها فريدة امرأة رأس الفجلة ومعها نشوة ابنتها ، يعود الداطورى إلى صمته ، تتوقف العجوز ، تهيل التراب فوق رأسها ، تطلق ألفاظاً لا معنى لها ، تبدو كطفلة شائهة فقد منها شيء ثمين تخشى العودة بدونه ، يوقف الصراخ طاحون .

لم يستطع الاستمرار ، للحظة خشى وقوع مصيبة فى بيته . قام بدون أن يعى . يخرج ممسكاً بالقلم العارى من الغطاء ، يتقدم من أم رأس الفجلة ، يزداد عويلها . تطالبه باللحاق بها ، أن يردها إلى بيتها ، يسأل طاحون بفزع ، بخوف ، من . . من هى ؟ تقول العجوز ، الخائنة ، ابنه الحرام ، يدرك طاحون أن المقصودة امرأة ابنها ، تغمره راحة . بل تدركه سخرية عابرة وهو ينظر إلى العجوز التى وقعت تماما فوق الأرض ، لكن هذه السخرية تطايرت عندما رأى نفسه فى لحظة آتية يصرخ مثل هذه المرأة ، كما تذكر انقطاعه عن كتابة البسمله . تتملكه حيرة ، هل يبدأ من جديد . هل يستأنف ما كتبه ؟ وإذا عاد إلى الكتابة هل يتوضأ ؟ من يفتى له فى الأمر؟ لا يدرى ، لا يعلم من كتب الورقة ؟ هل يرجو

من عويس أو من الصول سلام الذى أصبح المنذر الأول أن يبلغا الشيخ حيرته ؟ ربما أبدى سخطاً عليه ، يضايقه موضوع الورقة منذ البداية ، يعود ليتأمل ما كتب ، نسى عدد المرات ، يسب رأس الفجلة و يلعن أمه ، يلقى اللوم عليه وليس على فريدة ، لا الطلسم نفسه . كيف يمكن لسنيورة مثلها أن تعيش مع صاحب هذه الخلقة ؟ يحاول تجاهل أفكاره ، ينظر إلى الورقة ، استند بمرفقيه إلى المنضدة — تتزايد حيرته — تزحف أم رأس الفجلة إلى مدخل الزعفراني ، فوق نتوء بارز تنوح ولا تكف عن الكلام ، تلعن الخائنة ابنة الحرام ، تسب أصلها وعائلتها ، وتؤكد أن أهم شيء عند اختيار الزوجة هو الأصل ، لكن ابنها لم يهتم بالأصل ، جذبه لون جسدها الأبيض ، أكلت عقله بحركتين فى الفراش ، تاه المسكين . ثم يحبها ولم يعرف امرأة أخرى طول عمره ، الفرص أمامه كثيرة والعديدات يرغبنه ، لكن قليلة الأصل بعثرت النعمة . خربت بيتها بيديها ، إنها قذرة لا تنظف منزلها إلا كل شهر مرة — رائحة طبيخها تسد النفس ، عرق إبطيها يزكم الأنوف ، لم تنتف شعرها أبداً . أخذت ابنتها معها ، هذا الشاب الذى أغواها سيستدير إلى ابنتها بعد قضاء وطره منها ، من يتزوج طفلة عليه تحمل العواقب ، دلالها وتمنعها ، رجوعه كل يوم فلا يجد لقمته معدة ، والصحون القذرة تملأ المطبخ . عليه أن يغسلها ، أن يقشر البصل و يفصص الثوم ، عند مشيها معه تغمز للشبان والمسكين لا يلاحظ شيئاً ، لم تحترم أمها ، لم تتذكر موتاها ، لم تذهب إلى القرافة مرة واحدة ، فى الأعياد لم تتصدق عليهم بقرش ، ولا كعكة حتى . كل ما شغلها البحث عن أحضان الرجال ، المتعة الحقيقية لأمثال هذه الفاجرة لا تأتيها إلا بين أحضان الغرباء ، إذا تأوهت بين ذراعى زوجها ، فهى تهدف إلى الحصول على قدر من المال ، أو نفقة المصيف ، الله وحده يعلم ما يجرى عندما يتعرى جسمها أمام مئات الشبان ، كل شىء أصبح مقلوباً فى هذا الزمن الأسود الذى تكتمل فيه أنوثة المرأة عندما تتعرى لغير زوجها ، ثم تجرؤ فى صباها وشيخوختها على

التطلع إلى رجل غريب ، قبل مصافحة أى رجل تلف يدها طرحتها خوفاً من نقض وضوئك ثم يلف الزمن لتخرب امرأة بيتها بيدها .

إن رأس الفجلة يهز كتفى أمه محاولاً إسكاتها ، عيناه جاحظتان ، خيط نحيل من لعاب يتدفق من جانب فمه الأيسر ، خوف يغرقه شيئاً فشيئاً ، خوف لم يألفه من قبل ، يستدير حوله ، عاطف الجامعى يرقبه ، يبدو أنه عائد من عمله ، إنه صامت ، يتقدم على المكوجى من رأس الفجلة ، يقول له إنه رأى امرأته تخرج مع ابنتها ومعها ثلاث حقائب ، فكر فى اعتراضها لكنه لم يستطع . بأى حجة يتدخل فى شئون الناس ؟ ستعود إليه عندما يجىء الفرج من الهند . ينظر رأس الفجلة بجمود إلى المكوجى ، يلحظ الفتحة المثلثة التى تكشف جزءاً كبيراً من صدره ، جزء من الصديرى الحريرى الذى يرتديه ، يتذكر اقاويل عن رجوعه سكران كل ليلة ، يتذكر منظراً من أحد الأفلام ، البطل يقول للبطلة ، تشربى ويسكى ؟ امرأته تتأمل كأساً فى يد الغريب ، تهمس بدلال ، لا . انا أخاف ، يلحظ الآن تشققاً فى الجدار المواجه له ، يتذكر لسرة أقامت فى نفس البناء ، رجل صالح اسمه الحاج بيومى يمتلك دكاناً للبياض عند حارة الرشيدى . امرأته الست نعيمة من أحب السيدات إلى قلوب الزعفرانى . رآها دائماً تطل من النافذة الضيقة ، تغطى رأسها بطرحة بيضاء . ابنها فاضل لم ير إلا حاملاً نتيه ، فى السنوات الأخيرة أضيف إلى ما يحمله مسطرة خشبية كبيرة . بمجرد تخرجه من كلية الهندسة منذ عامين أصر على الانتقال مع والديه إلى مسكن آخر . اليوم صباحاً التقى رأس الفجلة بالحاج بيومى . كبر الرجل وتقدم فى العمر . رآه نظيفاً ، خالياً من الأصباغ وبقع الجير ، تفوح من ثيابه البيضاء رائحة عطرة . قال إن فاضل أصر على أن يأخذ حذ من الراحة ، باع الدكان وهو الآن من البيت إلى الحسين ومن الحسين إلى البيت . أما فاضل فيعمل فى السعودية وسيرسل إليها دعوة للحج العام القادم .

يسأل رأس الفجلة عن الاتجاه الذى مشينا فيه ؟ يشير على المكوجى إلى الطريق المؤدى إلى الميدان ، يخفى المكوجى دهشة من الجدية الشديدة التى سأل بها رأس الفجلة وكأن معرفته الاتجاه سيعيدها إليه ، فجأة ، ينطلق إلى داخل الزعفرانى ، تتعثر خطواته ، يتصرف فى هذه اللحظات وكأن شخصا خفيا يحرك خطواته ، يفتح باب شقته ، يتجه إلى الخزانة الرئيسية ، يتحسس مقبضها ، كل شىء فى موضعه عدا دولاب الملابس . جميع ضلفه مفتوحة ، زجاجات العطر اختفت من فوق التسريحة ، يتذكر زجاجة على هيئة امرأة ترفع يدها ممسكة باقة ورود بألوانها الطبيعية رغم دقة حجمها ، العطر يخرج من قلب هذه الباقة ، الجزء الخاص بثيابه مفتوح ، خال تماماً . ادراج المكتب الصغير المطعم بالصدف كلها مفتوحة . الدرج الرئيسى مكسور . يتحسسه . يضغط بيده لسان القفل . سيحتاج إلى تصليح يكلفه جنيها . ومشوار قصير إلى خان الخليلى ، مثل هذا النوع من الاقفال يحتاج إلى صانع ماهر . يطوف بالشقة ، فيما عدا هذا كل شىء فى مكانه . يتساءل متعجبا ، لماذا أخذت ثيابه ؟ ثمة أفكار تلح عليه ، من سيعد له الطعام ؟ من يغسل ثيابه ؟ من يأتمنها على دخول بيته ؟ رفض زمنا طويلا مجىء خادمة ، أمه عجوز لا تستطيع قضاء حاجاته الخاصة ، صحيح أنها تستيقظ يوميا فى الفجر ، تستحم تحت الدش البارد فى أيام الشتاء القارسة . تغسل ثيابها . تطهى طعامها ، تعى دائما ما يدور حولها ، تقضى معظم نهارها فى تصفيف شعرها ، الاشراف على تربية الكتاكيت وصغار البط لتبيع كل ما تربيه بعد ذلك إلى امرأة تجلس فى سوق أم الغلام .

إن الوقت يمر بطيئاً ، والضوء يشحب ، ولا بد أن فريدة تستقر الآن فى البيت الذى قصدته وثمة نداءان اذيعا ، لم يهتم بمضمونها ، تدق الساعة الكبيرة فى الصالة الباردة ست دقات ، ميعاد العشاء الجماعى للزعفرانى حان . لم يتحرك ، إن وجهه هادىء تماما ، لولا خيط اللعاب لبدا عاديا ، ينفذ هسيس من

هواء عبر النافذة ، يتذكر حفيف ثيابها إذ تمر بالقرب منه ، سخريتها منه ، قفزها احيانا للجلوس على ركبته ، تعضه فى رقبته ، فى بداية زواجها توقظه،إذا ذهبت إلى دورة المياه ، تطلب منه أن يقف لها بالصالة ، الغريب أنه لم يفكر فى نشوة ، عندما رأى صورتها ولى وجهه بسرعة ، لا يريد أن يراها ، لولاها لما ذهبت فريدة . هى التى عرفت الطريق إلى مدرس اللغة الأنجليزية ، منذ أيام زعقت فريدة فى وجهه ، قالت إنها ضاقت به وستهرب منه إلى المدرس الحلو الشاب ، لم يهتم ، ظنها تغيظه ، بندول الساعة يروح ويجىء فى زمن خاو ، ينحنى على طرف المكتب المطعم بالصدف ، يتخذ أوضاعا شديدة الانحناء ثم يعتدل ، سيبحث عن المدرس ، يتعرف إليه ، يهديه صفيحة مليئة بالنقود الفضية فئة القرشين المسدسة الحجم ، سيقول له : قيمة المبلغ لا تقاس بعدد القطع إنما بقيمة الفضة التى تحويها . عملة انقرضت من زمن والصياغ يجمعونها لصهرها وتشكيلها فى حلى ، سيهديه أيضاً تحفة نادرة من المخزن ، السيف الاثرى الذى امتلكه يوما أحد سلاطين الهنود المسلمين ، مقبضه وغمده مطعمان بالزمرد وفصوص الياقوت والفيروز ، سيهديه أيضاً حلة مصارع الثيران الاسبانى المنسوجة فى القرن السادس عشر ، سيشرح له قيمتها ، سيقول له إن كثيرا من تجار التحف عرضوا عليه التخلى عنها مقابل مبالغ طائلة ، لكنه رفض ، يكفى جلوسه أمامها وتخيل السلطان والمصارع ، كيف جاهد كل منهما ، كيف صارع . كل منهما خصومه . هل سيرفض هذه الهدايا ، سيتخلى عن فريدة ، ال طمأنينة من نوع آخر تراوده على مهل ، منذ زواجه بفريدة يتوقع ما حدث ، يثق أنها ستخونه يوما . أو تعشق غيره ثم تمضى ، حاول تأجيل ما جرى إلى اطول زمن ممكن ، اغرقها بالنقود ، اشبعها جنسيا ، حتى جاء الطلسم ، لكن ما ذنبه ؟ فرت فريدة ، القلق المؤجل ولى ، انتهى انتظاره لما سيحدث ، بدأ زمن افتقادها الذى تخيله طويلا ، لكثرة ما عاشه لا يستعجب الآن ، كأنه عاش اللحظات من قبل ، يرى يوما تموت فيه فريدة . تحمل فى نعش يكسوه قماش ملون جميل . سيصلى عليها ، سيبكى ، لكنه ستغمره راحة نهائية .

من تقرير مرفوع الى اللجنة العليا لأحوال الزعفرانى

و بالفعل تم استدعاء رجل صالح تقى معروف بكراماته و يقيم بقفط من أعمال محافظة قنا، وقام باعداد طلسم الغرض منه حماية العاملين باجهزة الاعلام، خاصة الأذاعة والتلفزيون حتى لا يهددهم الشيخ، و يستغل اجهزة الدولة لنشر مبادئه الزعفرانية. من ناحية أخرى ثبت مسئولية عدد من الأهالى عما جرى وهم:

• رمانة الشيوعى، المختفى داخل الزعفرانى من الرقابة البوليسية المقررة عليه.

• لولى المعروف بتعصبه الدينى والذى ابلغ عنه والده نفسه.

• جنرال غامض تضاربت حوله الاقاويل، ومن الممكن انتماؤه إلى بلد أجنبى يعتنق الأفكار الهدامة، ونزل إلى داخل الزعفرانى بوسيلة ما.

• عميل للهند، يتخفى فى ثياب مكوجى.

«و ينسق أغراض هؤلاء كلهم الشيخ الذى يثير كل هذه الضجة، وجار اتخاذ الوسائل».

° ° °

الخيلاء

يقف الصول سلام فترات بشرفة مسكنه، إن حيوية مفاجئة سرت إليه، لم يعد يزعق لامرأته أو يثير المشاكل فيا يتعلق باحواله الجديدة. على

العكس لوحدث تذمر من جانب أحد الأهالى أو أبدى أحدهم مخالفة فهو أول من يبادر إلى التحذير، فى أحسن الأحوال ينصح ويهدىء. يعرفه الزعفرانيون الآن بلقبه الجديد «المندوب الأول» قال الشيخ إنه سيختار سبعة منذرين من كافة البشر، قال للصول سلام إن ما جرى فى الزعفرانى ليس إلا البداية. حرف الألف، الفاتحة الشهيق الأول الصرخة الأولى، فى المستقبل القريب جداً ربما كلف منذره الأول، بأعمال تتجاوز نطاق البلاد كلها، كل أمر وله حين، كل حدث وله أوان، بعد حين عندما ترتوى غصونه بماء المعرفة والحكمة سينطلق، أشياء كثيرة تغيرت فيه بعد لقائه بالشيخ، سنوات طويلة لا يختلط بالأهالى ولا يسمح لامرأته بزيارة جاراتها، إذا خرجت لتشترى خضارا أو تزور الحسين يحدد لها وقتا لابد أن ترجع بعد انقضائه، إذ تخرج تثقله وحدة. يروح ويجىء. يتعجل رجوعها، ينظر من الشرفة عله يلمحها بمجرد وصولها، يكتسى وجهه جهامة، يعنفها، يتهمها بالتلكؤ، يتحدث عن نساء عجائز ينظرن بعيون زائغة إلى شبان فى أعمار أبنائهن، منذ طلسمة الحارة لم تخرج امرأته، بعد عودته من لقاء الشيخ ذكرها بالحلم الذى رآه ثلاث مرات، كيف جاءه ولى العهد، أمسك يده، تأبط ذراعه، مشى معه فى الحديقة. قال «اشتقنا إلى طعامك ياسلام» عندما روى الحلم أضمرت تكذيبا صامتا، أكدت امرأته أنها لم تكذبه أبدا. لكنه أغمض عينيه، قال إنه يثق من تكذيبها وعموما ها هى ذى الأيام تثبت صحة ما رواه، الشيخ يستدعيه، يجلس معه سبع ساعات كاملة، لن يحدثها عما قاله، لابد أن تعيد ترتيب البيت لتستقبل من حين إلى آخر عددا من الحارة. عند حضورهم ما عليها إلا اغلاق الباب وتركهم معه. لا تزعجهم بدخولها، سينقل إليهم بعضا من زاد القول وثمين الحكمة،امهمة لا يمكن مقارنتها بما يقوم به الولد عويس. عويس مجرد مناد. علو صوته وقوة حنجرته هما ما أهلاه للقيام بهذه الوظيفة. مجرد المقارنة تهين الصول سلام، قطب عينيه، سأل هل تقصد اهانته، أكدت امرأته أنها لم تقصد، تفكر فى هذا و برغم تصريحه مرارا

نيته في عدم قص أى تفاصيل عن لقائه بالشيخ فإنه في نفس الليلة وقبل استغراقه في النوم حكى لامرأته عن حجرة الشيخ ، عن رائحة البخور التى تملؤها بدون أن يرى أى موقد تتوهج فيه جمرات ، صوته ، يأتى من وراء حجاب بنى ، يصدر من فوق ومن أعلى ، من كل ركن بالحجرة ، هذا يدخل الرهبة إلى القلوب ، لكنه اعتاد مجالسة الكبار وعظماء القوم ، هذا جعله أكثر مقدرة وتحملا للرهبة . بعد أيام ثلاثة أعلن عويس أنه يجب على طاحون والبنان وعاطف والداطورى التوجه إلى المنذر الأول . حذر من التأخير وقت النداء . التفت سلام إلى امرأته ، قال إن الوقت الذى تدرك فية الحارة قيمته قد حان . لم يذكر عويس نفسه بين المدعوين لأنه المنادى ، والحقيقة أن أى شخص لا يهمه مجيء عويس أو عدمه الآن ، عويس لم يهتم كثيراً بتواجده مع عاطف الجامعى أو طاحون في اجتماع واحد ، طاحون لا يدرى أحد حقيقة وظيفته ، تقول امرأته إنه سائق قطار فاخر ، لكن النساء في المشاجرات يعايرن امرأته بزوجها العطشجى في السكة الحديد . عويس لا يهتم ، لا يعنيه شيء الآن ، كثيراً ما يلتقى بأحد سكان الحارة بعد الأنتهاء من نداءاته فلا يتوقف لتبادل الحديث . يكتفى بإلقاء التحية الزعفرانية « هذا زمن الفرار .. » ، لا يعنيه تبادل الحديث مع مأمور القسم نفسه ، تقلصت المدينة الضخمة التى بهرته في البداية ، ما يراه منها تلك المسافة المحصورة بين حجرة الشيخ ومأواه ، غير مسموح له هو بالذات بمغادرة الزعفرانى ، يستسلم لحالة غريبة . أنه يمضى إلى الشيخ ، يقطع الحارة متمهلا ، مناديا ، يستوعب الآن ما يملى عليه بسرعة ، يأوى إلى حجرته ، يتناول طعامه الجماعى ، يتأمل البيوت . الوجوه ، الضوء المختفى في غرفته ، يستعيد صورا قريبة وبعيدة من حياته ، كأن هذا كله لا علاقة له به ، كأن من ينادى أو يمشى أو يمضى إلى لقاء الشيخ آخر ، بل إنه ينظر إلى حركة ذراعيه وساقيه أو أصابعه إذ تمسكان بطبق الطعام ، يخيل إليه أن هذه الأعضاء تنتمى إلى شخص مختلف ، كثيراً ما يستيقظ أثناء نومه النهارى المتعب المتقطع ، ينظر إلى جسده فكأنه يرى نفسه في

حلم ، يرى عينيه ورأسه وقفاه ، عندما يقوم من النوم لا يشعر بأى ترحيب للقاء يوم جديد ، أما الطعام فمذاق أصنافه واحد ، لا يأكل ليستمتع إنما ليسد فراغا يجب أن يمتلىء ، إنه يذكر أياماً بعيدة تنتمى إلى إنسان يجهله . أيامه الزعفرانية يوم واحد متكرر بلا ملامح ، لا مجال فيه للحلم أو الأمل ، لو عاد إلى البلدة سينكره كل من يراه . « عاصمته المدينة » ، أخذت منه كل شيء ولم تمنحه مرقدا آمنا ولا لقمة هنية . حتى الأسى لا ينتابه إذ يذكر تخيله عن حلمه بامتلاك عربة يد ، عربة بيضاء فوقها رسوم ورود ، وجوه أناث مبتسمات ، صور نساء يرتدين الملاءات اللف ، وبلبل واسم الله على مقدمتها ، في البداية ظن أن الشيخ خير مساعد له على تحقيق حلمه ، لكنه شيئاً فشيئاً راح ينأى عن حلمه ذاته بامتلاكها . يتذكر بأسى جلوسه بمحطة القطار في البندر إذ يمضى إليه أيام الأسواق طفلا ، يرقب بلهفة مروق القطار السريع ، تبدو عرباته الرمادية خطا واحدا . ترج عجلاته الأرض ، بعد مرور آخر عربة ينتهى الصخب كأنه لم يحدث أبدا ، يحاول استرجاع أيامه السابقة على مجيئه إلى الزعفرانى ، مقهى أبو العيط ، أسئلة المعلم عن شوارع البلدة ، عن نخيلها . عن كل طوبة فيها . ملامحها تغيب عن ذهنه لكنه لم يضيع حلمه بعودته إليها يوما ، يبحث عن أبنة الحلال التى ستعود معه لتصحبه في المدينة ، يسأل ، يختار ، ينتقى ، ما أسعد العروس ، صاحباتها ينظرن إليها بحسد ، ستعيش في مصر ، ستزور أهالى البيت كلهم والمشايخ والاولياء ، وستعود كل سنة مرة أو مرتين ترتدى الملاءة كنساء مصر ، تضع البرقع واليشمك على وجهها ، ربما سمح لها عويس أن تصبغ شفتيها بالأحمر والأصفر ، انهن يزينها و يفصلن ثيابها و يسعين هنا وهناك يشترين لها الحاجات ، يجهزن الحناء ، في أعماقهن حسد برغم ما يبدينه من فرحة ، يجلس عويس مرتديا جلبابه الأبيض وعمامة بيضاء . يدخن السجائر و يتحدث عن المبانى العالية والكبارى والترموايات ونساء مصر وخلاعتهن . وكيف إنه لو ترك

نفسه هل لضاع ، هذا أثر لم نفسه والمجيء إلى بلدته بتقى منها أبنه الحلال التى تشاركه حياته وعمره « تسوى له الهدمة واللقمة » .

إن حزنا نحيلا قاسيا يفرى قلبه الآن ، لم يطمع فى امتلاك دكان أو مقهى أو مركب في النيل أو التجارة أو العمل ساعيا فى الحكومة ، الستر كل ما سعى إليه ، أن يضمن خبزه وغداءه ، ماذا اعاقه ؟ من حفر له كل هذه الظروف ؟ أى كراهية يضمرها لمن يجهله ، لا يدرى من ؟ من ؟ مع مضى الأيام لم يعد يعنيه الا لم ذاته . ماذا يهم وكل لحظة تشبه الأخرى . الأيام لا تأتى بجديد ، يقين قوى داخله يؤكد له أن كل شيء سيبقى على حاله ، لن يحدث تغيير ، لن يرى بلدته ولن يمتلك غربة يد .

ينظر طاحون إلى جيرانه صامتا . لا يدرى ما يعنيه لقب « المنذر الأول » ، الصول سلام لم يبدأ الحديث بعد ، لم يسبق لأحد بين الحاضرين دخول بيته إلا ليهدئه إذ يهدد باطلاق النار على نفسه ، يود طاحون لو تمكن من نقل ضيقه مما حل به إلى الشيخ ، معظم وقته يقضيه الآن خارج البيت ، المصلحة ، يود لو توارى عن الجميع ، يشيع أمر الزعفرانى فى طول البلاد وعرضها ، قال أحد زملائه إن بلادنا غريبة لأن الكثير من الأمور يشيع و يعرفه الكبير والصغير لكن الصحافة تتجاهله ، ارتجف طاحون ، ود لو اختفى عن عينى زميله ، رغبة الاختفاء تتزايد به ، منذ يومين تمنى أن يسقط فى بالوعة عندما سمع أثنين فى الطريق يتزحان . يصيح أولها مداعبا الثانى « يازعفرانى يا . . » أحد السعاة . . فى المصلحة زعق العامل البوفيه . وصفه بأنه يمشى متراخيا وكأنه زعفرانى ، بعد أن طلب طاحون تحويله أكثر من مرة إلى طبيب المصلحة للحصول على إجازة ، والطبيب يأمر بعودته إلى عمله كل مرة ، تزايد الهمس حوله ، قال بعضهم إنه يرجو شفاءه لكن محال ، بل أن بعضهم اقتحم عليه مكانه عدة مرات بدون مناسبة مصطحبا بعض الأغراب ليروا الرجل الزعفرانى ، وحدث أن جاء زائر

يوما إلى أحد زملائه فدعاه إلى رؤية طاحون الزعفرانى ، وقف الضيف أمامه وراح يبدى أسفا ، و يقول بصوت مرتفع « لا حول ولا قوة إلا بالله . . إن لحيته نابتة » ، إن طاحون ساخط أكثر بعد تكرار فشله كتابة البسلمة ألف مرة ، لم يتشاجر مع امرأته عند عودتها ، ناقشها ، لم تسخر منه إنما رجته ألا يرهقها لأنه يشعل جوفها ثم يتركها ؟ ابتسم ابتسامة ظنت أن وراءها ما وراءها ، أحاط ذراعيها ، ضغط صدرها . لكن شيئاً لم يحى الأرض الموات . انقلب على ظهره بينما خرجت انفاسها كالفحيح وهمست بحشرجة أوجعت قلبه ، « هدئنى . . ارحنى » ، قضى الليل بعيداً عنها ، يتمنى الآن لو طلب من المنذر سلام إبلاغ الشيخ بسخطه وتساؤله ، إلى متى يدوم الحال ؟

إن المنذر الأول يرحب بضيوفه ، يقول إن ما سيحدثهم فيه أمور جليلة ، لم يعرفه الحاضرون على حقيقته برغم بقائه أعواماً طويلة بجوارهم ، لكن أمثاله ممن اعتادوا القيام بأعمال صعبة لا يقدر عليها إلا الصفوة ، يختفى أمرهم عن العيون حتى تحين لحظة معينه ، إن قليلا من الأهالى يعلمون أنه قضى عشرات السنين يعد الطعام للملوك والأمراء ، الزمن الذى لا يبقى على حال غير وأبدل حتى أتى به إلى الزعفرانى ، ولأنه لا يقوم إلا بالكبير من الأعمال فها هو ذا الشيخ يختاره و يصطفيه كى يبلغهم ما يريد ، إن الشيخ يريد الخير للبشر ، و يكن الحب للعالم كله ، كل زعفرانى يظن أن ما ألحقه الشيخ به أمرضار ، لكنهم لو تعمقوا فكره ، ورأوا ما يكشف عنه بصره القوى لعرفوا أن ما يبدو مصيبة هو فى جوهره خير هائل وطيب وصلاح ، سيتميز الزعفرانيون إلى الأبد لأنهم أول من اتبعوا تعاليم الشيخ ، لقد درس الشيخ أحوال الخلفاء وتواريخ الأمم وسير الشخصيات العظيمة وأخبار الأوائل وما خلفوه من تراث ومن كتب ، تعمق فى الديانات ، فى العقائد ، تشرب كل الملل والنحل ، استقصى أسباب الحروب ، والمجاعات والكوارث وعلل النفس الإنسانية ، يقول الشيخ للزعفرانيين ، لينظر

كل منكم إلى نفسه ، عندما يولد فإن خياله الطفل يحوى الرغبات والأحلام ، يزدحم بالرؤى ، أى إنسان ، تطلع يوماً إلى أن يصبح إنساناً عظيماً ، يغير ، يبدل ، بعضهم وثق أنه سيصبح ملكاً أو طبيباً مشهوراً ، مع تقدم العمر تتناقص الأمنيات ، تتواضع الرغبات ، تتقلص الأحلام ، بل إن الإنسان صاحب الرغبة نفسه يجيء عند حد معين من عمره و يسأل نفسه متعجباً ، هل تطلعت يوماً لأن أصبح زعيماً أو قائداً أو مهندساً أو طياراً ، ما أخيبني ..

إن المنذر الأول يتوقف لحظات عن الحديث ، بعينيه الضيقتين ينظر إليهم ، ربما ليستطلع تأثير ما يقوله أو ليتذكر حديث الشيخ إليه ، عاطف يتأمل صورة قديمة للصول ، معلقة فوق الجدار المقابل داخل أطار خشبي على الطراز العربي ، مطعم بعاج وصدف ، شبه قليل يربط بين الصورة والعجوز الجالس أمامهم ، ملامح الإنسان ذاتها يدركها التغيير ، الملامح المادية فكيف لا يدرك التغيير ما هو غير ملموس ، ما لا يمكن إمساكه بأيد ، أو رؤيته بعيون ، يتساءل عاطف ، هل يعيش أربعين سنة أخرى ؟ كيف ستصبح ملامحه عندئذ ؟ هل سيقرأ نعى « رحمة » فى المستقبل البعيد مصادفة فى الصحف فلا يحرك الموت فيه مشاعر ولا يستثيره حزن ؟ ربما التقى بها فى مستقبل قريب بعد خمس أو ست سنوات ، تدفع أمامها عربة صغيرة يرقد فيها طفل مليح ، لن يختلج له جفن ، لن ترتجف روحه ، أربعون سنة ، ثلاثون ، عشر سنوات ، لكم يبدو هذا كله وهماً ، هل فكر منذ عشر سنوات فيما يجرى للزعفرانى الآن ؟

فى اللحظة المقابلة لتلك اللحظة التى يمر بها الآن ، منذ عشر سنوات ، هل جال بفكره أنه سيجلس إلى أمثال هؤلاء ، كل منهم يعرف علة الآخر ، يجمعهم العجز ورجل لا يدرى أحد درجة وعيه بما حوله هو الذى ينقل التعاليم إليهم ، يتحدث باستعلاء شديد ، لا يدرى أحد متى سينتهى ما يجرى ؟ كلام هذا العجوز مقدد القوام يعنى امتداد الأمور الزعفرانية لتشمل مناطق أخرى ، إذن هل

سيستمر الحال ، أم سينزاح الكابوس من هنا و ينتقل إلى مكان آخر ، لا أحد يدرى ، عاطف يذكر حمدى الصحفى ، ينتظره الآن على مقهى الداطورى ، عاطف يميل إليه الآن ، لكنه ليس الميل القديم إلى الأصحاب ، سنوات ولت لم ينقطع خلالها عن رؤيتهم يومياً ، نبيل ، عبد الرحمن ، فريد ، يسهرون معاً ، يجوبون شوارع المدينة الليلية ، يستشيرهم فى أدق شئونه ، لم يخف شيئاً عن نبيل ، فرحة اللقاء الأول برحمة نقلها إليه ، يوم أن قالت له « أحبك » تفجرت منه سعادة قصوى ، اشترى زجاجة براندى ، قرعا الأكواب ، تحدث طويلا ، رغب وقتئذ فى قص كل ما فى ذهنه وقلبه على صاحبه ، حكى عن طفولته ، عن زملاء الابتدائى والإعدادى والجامعة ، عن فتاة رقيقة تهمس عندما تتحدث ، كأنها تنظر إلى بعيد ، زاملته فى الجامعة ، رفع كأسه ، طلب من نبيل أن يشربا فى صحة ابتسامتها التى حيرته زمناً ، أرسل إليها تحية حارة حيث تقيم الآن فى لاهاى بهولندة ، لم ير المدينة لكنه يخيل له أنها عاصمة رقيقة كالفتاة ، شوارعها هامسة تتلامس سقوف مبانيها ، حكى عن أمه ، عن خجلها الأنثوى الذى ظل ملازماً لها حتى وفاتها فى السبعين ، لم يكتف بانفتاح القلب إنما رغب أن يرى نبيل كل ما يتعلق به ، أخرج حافظة نقوده ، راح يطلعه على ما تحويه ، نتيجة جيب صغيرة ، تذكرة قطار ، ورقة بها أرقام تليفونات ، صورة لرحمة كتب عليها « إلى حبيبى الوحيد فى العالم ، وإلى الأبد .. عاطف » ، يوشك الآن على الابتسام ، لم يدم هذا الأبد إلا شهوراً ، فى تلك الليلة لم يكف عن الحديث حتى الصباح ، أصغى صاحبه إليه ، حدثه عن رحمة عن عاداتها ، عن إيقاع مخارج ألفاظها ، فى تلك الليلة الراحلة ..ت صداقتها أبدية ، باقية ، فى اليوم التالى ككل سهرة أو لقاء يحدثها عن أصحابه ، عن سهرهم فى المقهى ، أغانيهم الجماعية ، نكاتهم ، ما يقصه كل منهم بعد بلوغه نشوة الشراب ، تبرق عيناها ، تعكس رغبتها فى مشاركتهم الانطلاق ، رؤيتها لحظات ميلاد الرغبات الفاضحة ، وعدها أن يخصها يوما كل أسبوع للسهر مع أصدقائه ، عاشت أحوال

الآخرين من خلاله أكثر مما عاشته هو، عرفت عاداتهم وامزجتهم أكثر مما عرفت عاداته وأمزجته هو، فى لقاءاتها يحدثها عن الآخرين ، تسأله ، كيف أحوال فريد ؟ هل استلم نبيل ثيابه من الترزى ؟ هل دفع قسط التليفون المتأخر ؟ هل استلم الثلاجة الجديدة ؟ سعى إلى أن يعرفها بأقرب الخلق إليه ، نبيل ، قال لنفسه عندما تعرفه جيداً ستطلع على جانب من شخصيته هو، الأصحاب وقتئذ امتدادات طبيعية لذاته ، لا يدرى متى التقى برحمة وأخبرته عن اتصال نبيل بها واستفساره عن أحوالها ، قالت إنه بدا رقيقا ، لحظتها أبدى حماسا ، فى نفس اليوم اتصل به ، رجاه الاتصال بها دوما ، عندما يكلمها كأنه هو الذى يحدثها ، لا يذكر الآن متى بدأ يقلق ؟ لا يدرى متى تساءل ، هل اتصل نبيل برحمة أم هى التى خابرته ؟ لا يدرى متى اكتشف إنها لا تعرف عنه قدرما تعلمه عن الآخرين ؟ عن نبيل بالذات ، حتى علاقاته العاطفية تعرف كل تفاصيلها ، صنع من نفسه جسرا بدون أن يقصد ، هل أحب مخلوق مثله ؟ لقد أحب الجدران والشوارع والأشجار والمتاجر والبيوت التى يتحرك بينها معارفه وأحبابه ، ثم جرى ما جرى ، وها هو ذا الشيخ يتحدث عن حب شامل آسر ، أى حب هذا ؟ يضيق **بالجلوس هنا ، لكن ثمة ما يجبره على الالتزام بكل تعاليم الشيخ ، روض لا تطلب** منه شيئاً ، لا تجهر برغبتها التى تضج بين ضلوعها كأنثى ، ما تتمناه أن تبقى إلى جواره . اعتاد صحبتها لكنه يضيق بالتصاق جسدها به ، إذ يشم رائحته ، يشعر بليونته ، بالحياة داخله فإنه يقدم على المحاولة ، لعل معجزة تتحقق ، أو استثناء يحدث ، ربما غفل عنه الطلسم ليلة واحدة أو ساعة ، تتوهج فىلاته ، كثيراً ما يلتصق بها ، فى لحظة معينة يدرك إنه لا فائدة ، يهمد ولا تهدأ هى ، ثم تفيق إلى حقيقة ما تعيشه الحارة ، يصفو صوتها من اختناقات الرغبة ، تهمس انها تريد القرب منه فقط ، ينزل صمت بينها فى مثل هذه اللحظات ، يرى عاطف نفسه واقفا أمامها . عارياً تماماً إلا من حزام جلدى يتدلى منه هذا المسدس أسود اللون ، ذو المقبض الحاد الحواف ، الدائرة الصغيرة الحمراء تتوسط كلا جانبيه .

والحديدة هرمية الشكل التى تعلو فوهته ، سيضفى هذا على هيئته غموضا ، الرجال حاملو الغدارات قليلون .

المنذر الأول ينهى حديثه ، يوحى بحفظ كل منظور يذيعه الشيخ ، لا يزال فى الوقت متسع حتى ميعاد النوم الاجبارى ، ليست لديه الرغبة فى العودة ، روض تغسل الآن الثياب ، تجلس متفجرة الركبتين ، بضاضتها توجعه ، أمام البيت يقف البناء ، يضيق عاطف بالحديث إلى الآخرين الآن ، غير إنه يرق للعجوز الذى أخرج خطابا ورجا عاطف أن يقرأه له ، وصله الخطاب صباح اليوم ولم يجد بعد من يفك له كلماته المستعصية عليه ، إذا خرج إلى الطريق ، سيهرب منه الكبير أو الصغير بحجة إنه زعفرانى ممسوس .

يتأمل عاطف المظروف المستطيل ملون الحواف ، أربعة طوابع ، ثلاثة يتشابهون ، كل منهم عليه رأس امرأة جميلة العنق ، تنظر بوقار ، الطابع الرابع عليه باقة ورود ترفعها يد لم يستطع تحديدها ، أهى يد رجل أو امرأة ؟ الحروف غامضة ، ليست انجليزية ، ليست فرنسية ، الأرقام التى تعلن سعر الطوابع واضحة ، ربما تنتمى الطوابع إلى بلدة تتحرك فيها رحمة الآن ، ربما أرسلت إلى أسرتها خطابا الصقت به مثل هذه الطوابع بعد أن تبلل الورق الصغير بلسانها ، بالتأكيدأنت. مثل هذه الحركة . ينقبض قلبه . مرض قديم تحركه أوجاع طارئة ، بدأ يقرأ الخطاب المكتوب فوق ورق خفيف شفاف ، الابن يكتب من ميناء لم يذكر اسمه ، لكنه فى الطرف الآخر من الدنيا ، الليل يبدأ هناك عندما يستيقظ الزعفرانيون ، إنه بخير، يعمل فوق مركب يونانية ، منذ شهور أرسل إليهما عشرين جنيها استرلينيا وقطعة قماش ومعطفا و بلحا محشوا باللوز ، يرجوهما ألا يقلقا عليه ، كما يمكنهما الكتابة إليه على المقر الرئيسى للشركة فى أثينا التى سيصلها بعد أربعة شهور من تاريخ كتابة الخطاب . يتوقف عاطف عن القراءة . يقول : هذا !

يعني وصوله إلى اثينا بعد شهرين من اليوم. يقول إن الخطاب تأخر، يقول البنان إن قلبه أكله على الولد في الأسابيع الأخيرة خاصة بعد ما حدث لزعفراني، وانقطاع ساعي البريد قرر الذهاب إلى المقر الرئيسي للبوستة في شارع الأزهر. هناك وجد بوستة الزعفراني كلها مكدسة في جانب، وبعد أن طلب منه رئيس المكتب الوقوف على بعد من الحاجز الذي يفصل الموظفين عن الجمهور. ألقى إليه الخطاب كما يلقى كرة في مرمى، يبدو الرجل متأثرا وهو يسأل عاطف، هل يعرف موظفا في مصلحة البريد حتى يساعده في البحث عن هذا الطرد الذي لم يصل؟ يفكر عاطف لحظات، إنه لا يعرف لكنه سيبذل محاولة ربما وفق، يقول البنان إنه كلما سمع بزيارة ابنه لبلدة ما فكأنه ذهب إليها ورآها بعينيه، بدا الأمر غامضا لعاطف، عندما لعب الابن في هذه الحارة وشارك والديه النوم في غرفتها الفقيرة، هل جال بذهنهما إنه سيجوب العالم بحارا. هؤلاء الأغراب الذين يرونه في كل ميناء، الفتيات اللواتي يضاجعهن، رواد الحانات التي يلجأ إليها فوق اليابسة، كل هؤلاء، هل يرجعه أحدهم إلى الزعفراني؟ هل يفكر مخلوق في العالم بوجود إنسانة مثل روض، كل ما تطلبه القرب منه، أقصى امانيها الخروج معه والجلوس فوق الخضرة تحت ضوء الشمس، كم مشيلاتها في الدنيا؟ يمد يده مصافحا العجوز، يثق أن البنان سيوقف شخصا آخر ويطلب منه قراءة الخطاب، يتمنى الا يصل أبنه حتى تنفرج الكروب، منذ سنوات يتمنى رؤية أبنه لكنه الآن بنفس اللسان والقلب يرجو ألا يحضر، يحار كيف يخبره بما يجرى، هل سيصيبه الخطاب الذي يرسله إليه بتسلق، لن يكتب، ربما ظن أبنه لحاق السوء بوالديه فيهرع إليهما، يطأ الزعفراني فتقع الكارثة.

يقترب عاطف من مقهى الداطوري. يخطو ناحية حمدى الصحفي، يفكر أن له معارف في هيئة البريد، تواتيه رغبة لمد جسوره إلى حمدى. المسافة

بينهما أقل، لكن لا يزال الحذر يكبل أقدامه. بعد انقضاء عشر دقائق على بداية حديثهما تهاجمه رغبة في الانصراف والعودة إلى الانفراد بنفسه، وسط الجموع يسخر من زحام الخلق، حوله بالآلاف لكنهم لا يستطيعون النفاذ إليه، يتأملهم من صندوق زجاجي مغلق، جدرانه لا ترى. بعد تعدد اللقاءات بينهما أيقن أن اهتمامه بالأحوال الزعفرانية ليس نابعا من مهنته كصحفي، لم يلمح فيه تلك اللامبالاة التي تجعل الصحفي يعالج كل الموضوعات بروح واحدة ولا مبالاة. يقول إن المنذر الأول عقد إجتماعا بعدد من أهالي الزعفراني، ألقى خلاله بعضا من أفكار الشيخ، يقول حمدى إنه مهتم بمعرفة هذه الأفكار إلا إذا حظر الشيخ نقلها، ينظر عاطف إلى عقارب الساعة، الزمن نفسه مقيد الآن، مطلسم، أمامه ثلاث ساعات ونصف حتى ميعاد النوم، يمكنه بعد ساعة المضى إلى هذا المتجر يتأمل المسدس، يقول إنما ما ادركه هو رغبة الشيخ في خلق السلام والمساواة، يبدى حمدى إهتماما، يتذكر عاطف اندفاعاته تجاه أصحابه كأنه يرى نفسه في صورة باهتة، كصورة المنذر الأول سلام أسيرة الاطار الخشبي المطعم بالصدف، يقول عاطف إن الشيخ يرى طموح البشر إلى المساواة، إلى انتهاء الحروب، أن يعلو الجميع فوق المصالح، أن يصبح الأول كالآخر، لكن هذا لم يتحقق برغم تعاقب الأجيال، وادعاء كل زعيم أو مفكر رغبة صادقة لتحقيق ذلك، كل جيل يقول، ستصبح الأمور أفضل في السنوات القادمة، لكن لا شيء يسير إلى الأحسن، صحيح أن ثمة تغييرا وبعض تحول، لكنه تغيير الصورة وليس الخطوة، ضرب أمثلة بالحروب ونعود المجاعات واستمرار الفقر، تحدث عن النفس واوجاعها، كم من الأمور لم تحسم، كم من الشهوات لم ترو، وكم من الرغبات لم تتحقق، تحدث عن مخطوط عنوانه «دليل الحيران إلى معرفة الإنسان». في وقت معين سيوزعه على الخلق، يقول عاطف إن الشيخ قضى سنوات طويلة بعد طلسمه، ما جرى في الزعفراني ليس إلا البداية. سيطلسم العالم عندئذ يحقق ما لم يتقدر عليه التاريخ، يبدى حمدى إهتماما، يقول، على الصحافة دق ناقوس

الخطر، ماذا يجرى إذاعات الشيخ قبل فك الطلسم ، ما رأى العلم فى مثل هذه الظاهرة ؟ هل يعتمد الشيخ على قوى خفية أو ظاهرة فى تنفيذ أهدافه . أم يعتمد على الايحاء وما يحدثه من تأثير ؟ يبدى عاطف شكه فى الاحتمال الأخير لظهور حالات العجز قبل سريان أى خبر عن الطلسم ، يقول إن الشيخ سيصدر تقويما جديدا بحيث يوجد فى المستقبل البعيد بين مختلف التقاويم فى البلاد .

سيبدأ هذا التقويم من اليوم الأول لطلسمة الزعفرانى ، سيقسم الأيام والشهور والسنين فيه طبقا لما سيتم من خطوات فى سبيل تحقيق كل ما حلم به البشر، يضحك حمدى ، إذن سيجدون أنفسهم فى عالم مطلسم . يقول عاطف ، تقصد عالما عاجزاً ، من خلال هذا العجز سيعيد الشيخ تعديل الاوضاع . يسأل حمدى هل رأى عاطف الشيخ ؟ يقول إنه لم يره أبدا لاحتجابه ، لم يذهب بنفسه فى المرة الأولى ليشكو ما حل به . عندما ذهب سمع صوتا قويا ولم يره لأن الستارة التى تقسم الغرفة جعلته بمنأى عن النظر .

* * *

من مقعد مقابل ينظر إليهما الداطورى . يعقد يديه أمام بطنه ، بعض المارة يتوقفون ليشيروا إليه وإلى عاطف ، عاطف لا يعبأ ، يوقن أنه سيرى كل هؤلاء مزعفرين عندما تنفذ مشيئة الشيخ ، يسأله حمدى عن أحواله ؟ هل يحدثه عن المسدس الذى قرر شراءه ، هل يحدثه عن اشواقه لرحمة ، هل يحدثه عن صورة المنفر الأول سلام القديمة الباهتة ؟ لكنه يقول « أخبارى عادية » ، يقول حمدى بدون مقدمات إن بطاقة وصلته من زوجته السابقة ، يبدى عاطف إهتماما ، كيف ، ماذا كتبت ؟ يتوقف فجأة عن تدفق الأسئلة كما بدأها فجأة ، يقول حمدى إن البطاقة جميلة جداً ، من ورق فاخر لم ير له مثيلا هنا ، ولونها يميل إلى زرقة سماوية ، ثمة فروع نخيلة خضراء مرسومة ، يتخلل كل فرع خط أبيض

نحيل ، كتبت سطراً ، تذكره بالخير وأن البطاقة اعجبتها فارسلتها إليه ، لم تترك عنوانا ، ربما رغبة منها فى إقامة حوار من طرف واحد ، ربما ليس حواراً على الاطلاق ، إنما رعشة ذكرى عابرة حركتها لأرسال هذه البطاقة . يقول إن هذه البطاقة كدقات المسحراتى فى الليل لكنه لا يضفى عليها أكثر من قيمتها ، يعرف أنها لن تعود إليه ، وحتى لو طرقت الباب يوما ، هل سيجدها نفس الإنسانة ، هل ستجده نفس الإنسان ؟ يبتسم عاطف ، مسحراتى الزعفرانى يعيش مأساة ، أحبت امرأته مدرس ابنها وذهبت إليه ، ويبدو أنها الزعفرانية الوحيدة التى لم ترجع خائبة وثمة أقوال تتردد عن سعادتها . رأس الفجلة يقف يوميا فى الشرفة ينظر إلى مدخل الزعفرانى كأنه ينتظر عودتها ، وقف أكثر من مرة فى ثيابه الداخلية غير مبال بنساء الزعفرانى ، سمعه البعض يكلم نفسه بصوت عال ، وقيل إنه يتجرد تماما من ملابسه فى الشقة ، وينظر إلى جسده النحيل وساقيه الرفيعتين ، وضلوعه البارزة ، يدركه حزن غامر على نفسه ، يقبل جسده و يعلو صوته فى البكاء كالأطفال ، ينوح « لا ترعل يا رأس الفجلة . . لا تحزن يا رأس الفجلة » إنه يخاطب نفسه باللقب الذى رفض سماعه سنينا ، يقول حمدى ، إنه سكت بعد سفرها ، لم يبذل محاولة واحدة حتى ترجع عن قرارها فيما عدا دخوله عليها تلك الليلة عندما بدأ كل منهما ينام فى حجرة ، بدا سفر امرأة حمدى غريبا لعاطف ، يلعب السفر دورا غامضا فى حياة المحبين ، يورث حزنا فى أى الأحوال ، الشوط النهائى للفراق ، هل سيأتى يوم يعشق امرأة ، يهجرها ثم تعانى هى من أجله ؟ ، يسأل ، الا ترغب فى السفر ؟ يقول حمدى مستفسراً ، إليها ؟ يهز عاطف رأسه نفيا ، يقصد السفر من أجل السفر، إنه يحن إلى الرحيل ، يرى نفسه متوقفا فى الموانىء والمطارات ينظر إلى المسافرين بدهشة وإعجاب إلى المسدس الذى يتمنطق به ، لن يدعه بعيداً عنه ، لن يضعه فى حقيبته . إنما سيتمنطق به ، حتى فى لحظات نومه بالفنادق الجميلة ، أو ذهابه إلى مطعم فاخر أنيق ، يقول حمدى إن ما يرغبه سيثير دهشة عاطف . يود لو قابل الشيخ ،

يصغى إليه . أحيانا يخيل له إن هذا الشيخ لا وجود له على الاطلاق ، وان أهالى الزعفرانى وقعوا ضحية أمور غامضة . يمط عاطف شفتيه ، لم يرد ، تدركه رغبة فى الابتعاد ، يمسك حمدى ورقة وقلما ، ربما يكتب بعضا مما قاله عاطف عن التعاليم ، أو يدون ملاحظات معينة .

* * *

الداطورى يرقب عاطف . لابد أن الأفندى الجامعى فهم تعاليم الشيخ أكثر مما أدركها هو ، ما سمعه يبدو كنذير مصيبة ، ما معنى طلسمة العالم ؟ قلب نظام الكون ، بالأمس تنبه الداطورى إلى أمر أزعجه كثيراً ، لم يقلق لندرة رواد المقهى ، لاعراض أصحاب الدكاكين والورش عن طلب المشروبات منه ، لديه مدخر يكفيه لمواجهة الأيام الصعبة ، مطالبة محدودة ، ولم يرتبط طوال عمره بكيف معين برغم ملازمته المقاهى طوال عمره ، ما أدمى روحه ، اكتشافه مرور أربعة أيام بدون أدنى تفكير فى مشروع العمارة ، ليس لقلة الرواد من المقهى ، أو لكف السماسرة عن التردد عليه فأكثر الأوقات تفكيرا فى العمارة أثناء انفراده بنفسه ، و برغم ازدياد خلواته فى الأيام الزعفرانية ، فإنه لم يفكر فى البناء ، لم يحص كميات مواد البناء المطلوبة ، لم يجر العديد من العمليات الحسابية فى ذهنه ليتبين أسعار الحديد والأسمنت ، لم يتخيل ما سيجرى بينه و بين لجان تقدير الإيجارات ، الادهى من ذلك نسيانه أسماء بعض الذين قرر اسكانهم فى العمارة ، منذ فترة ناقش نفسه ، هل سيقبل الناس سكنى عمارة صاحبها زعفرانى ؟ ألن يخافوا عدوى الطلسم ؟ الا يهابون فقدان القدرة ؟ أقنع نفسه بأن أزمة السكن ستجعلهم يرضخون ، ثم ان الطلسم لم ينص صراحة على انتقال عدواه فى مثل هذه الظروف ، يرتجف قلبه الآن ، هل نسى ملامح البناء أيضا ؟ لقد استقر رأيه بعد العديد من المشاورات ان يجعل المدخل رحبا ، فسيحا ، ان يبلط الأرض والجدران بالرخام الوردى الملون . أن يثبت فى زوايا السلم مقاعد

رخامية ليستريح عليها المسنون والمتعبون أثناء صعودهم ، نسى لون الطلاء الخارجى ، صحيح أنها مرحلة نهائية ، بل يحدث كثيراً فى هذه الأيام أن يأتى السكان و يقيمون بينما البناء لا يزال طوبا أحمر أو سقالات البياض لم تفك بعد ، لكنه قرر ألا يدخل واحداً من السكان إلا بعد إتمام كل شىء ، ما يحزنه الآن ، نسيان لون الطلاء ، أيضاً لون الأفاريز ضاع نهائياً من عقله ، يدير أصابعه حول بعضها محاولا التذكر لكن عبثا ، يود لو جلس أحدهم إليه ، لو جاءه أحد الناس الذين قضوا زمنا يرجونه حجز شقة ، يبادلهم الحديث ، بل يتساءل الآن لأول مرة ، هل سيبنى العمارة حقا ؟ هل يكفى المبلغ الذى أدخره أو ينوى إدخاره ، حتى لو باع المقهى ، هل سيتغلب على أسعار البناء التى ارتفعت ارتفاعا فاحشا ، الداطورى لا يدرى ماذا حل به ؟ هل يقدم على خطوة عملية فيشترى الأرض غدا ؟ جولة بسيطة مع السماسرة و ينتقى ويختار ؟ لا شرط له إلا وقوع الأرض فى الحى القديم ، لا بأس من هدم المقهى و بيعها فى مقابل اعداده مكانا فسيحا لمقهى حديث تحت العمارة ، يحوى مناضد كثيرة وجهاز تليفزيون ليرى الزبائن مباريات الكرة وأفلام ليلة الخميس ، وركنا خاصا لهواة الشطرنج ، وسيوصى أحد المسافرين إلى لبنان ليشترى جهاز تسجيل يذيع عليه تسجيلات أم كلثوم ، لكن هدم المقهى الآن و بيعه سيخسره كثيرا ، سيقل سعر المتر لأنه زعفرانى ، لن يعدم مشتريا ، فالبعض سيرى فى ظروفه فرصة ، يشترى الآن المقهى بثمن بخس ، و بعد زوال الأحوال الزعفرانية سيرتفع ثمنها ، لكن ... لون الطلاء ، هل نسيه بسهولة هكذا ؟ الداطورى يلمح البنان يمشى متمهلا ، يحمل مظروفا ، طلب إلى العديدين قراءته ، يرق الداطورى فجأة حتى ليوشك على البكاء إذ يتخيل ابن البنان مبحرا عبر العالم ، أبوه يعرف أخباره من خطابات أو خطا بين فى السنة ، ثمة فجوة فى نفس الداطورى ، لو تزوج وأنجب لصار ابنه الآن مهندسا ، لصار أفضل مستشاريه فى أمور البناء ، لأشرف بنفسه على التصحيحات ، يصحب الداطورى ، طوال حياته لم يشعر بحاجته إلى أن يصبح أبا ، إنه يحب

الأطفال ، يلاعبهم يوزع عليهم القروش فى الأعياد ، شبان الزعفرانى يذكرون عبدية الداطورى فى طفولتهم ، لم يتصور نفسه أبا فى يوم ما ، عاش بروح قريبة إلى الطفولة ، يوشك على التخلى عن وقاره واللعب مع بعض الأولاد لا يمرون أمام المقهى يتصايحون ، يتبادلون الكرة والشتائم ، يتابعهم راضيا ، تبقى انفعالاته مختبئة ، مخفاة تحت ملامح وجهه الطيب ، لأول مرة يشعر الآن بحاجته إلى طفل ، إن خوفا غامضا يدركه وحزنا سخيا يجعله موشكا على البكاء ، صباح اليوم قابل الأسطى عبده زوج الست بثينة ، عاد إلى الزعفرانى بعد غيبة ، بعد اختفاء امرأته ، سأله عنها .

قال إنها تجرى فى الشوارع هربا من الموت ، تخاف النوم حتى لا يدركها الموت ، تقابلت، عديدين ، قالت إنها ستهرب من الموت فى الجيزة ، إذا شعرت به مازال يطاردها ستختفى فى المنيا فى قنا ، فى أسوان ، إذا يئست من الهرب فى مصر ، ستختفى فى السودان ، فى الحجاز، لكنها لن تموت ، لن تسمح له بأن يكتم أنفاسها ، قال الأسطى عبده إنها تجرى ناظرة إلى الخلف كل دقيقة ، حاول إقناعها بالعودة إلى الزعفرانى لكنها افلتت منه . يتضاعف حزن الداطورى ، يذكر سهرات بثينة ، دعوتها أصحابها كل خميس ، ارتفاع التصفيق وعزف العود والقانون من مسكنها ، وصوت غنائها ، يحزن على المقهى الذى هجره زبائنه الأصليون ، يحزن على البنان الحائر برسالة ولده ، يحزن على الجرسون العجوز الذى ربط نفسه إلى مصير المعلم والمقهى ، لا أسرة له ولا مأوى ، يتمدد فوق الدكة آخر الليل . وفى الصباح يقوم قبل السادسة ليشعل الركوة و يرش الأرض ، على رأس الفجلة الذى هجرته امرأته بعد عمر طويل ، على عاطف الذى غادر المقهى منذ لحظات تاركا هذا الصحفى الفضولى ، على الصحفى ذاته وما تتضمنه مهنته من متاعب وأخطار . على الخيلاء الكاذبة التى نزلت على المنذر الأول سلام ، على حسن أنور الطيب ، ابن الأصول ، الذى لا يفارق شرفته

الآن مرتديا الذى العسكرى باستمرار ، على إبنه سمير الذى طفش ، لا يدرى أحد مقره ومثواه — يحزن على سنوات عمره الضائعة ، لم يتزوج ، لم يعرف الكيف ، لم يجن اللذات ، لم يمارس البهجة ، لم يصحب دياب تاجر الورق والزنهورى و باعيسى فى نزهاتهم الليلية ، يغنون ، يطربون ، يدخنون الحشيش ، أن دموعا صامتة تسيل على وجنتيه الآن ، بينما يقترب منه على المكوجى مترنحا ، مخمورا ، يرفع يديه زاعقا ، سيجىء الفرج من الهند ، سيجىء الفرج من الهند » .

تقرير عاجل مرفوع الى اللجنة العليا للاحوال الزعفرانية

« اسفرت الجهود الشاقة التى بذلها رجال الأمن ، جميع الفروع عن تجنيد شخص زعفرانى ، مقابل وعد بالشفاء العاجل ، وهكذا يمكن القول أن الزعفرانى لم تعد منطقة مغلقة بعد أن ظلت كذلك طوال الفترة الماضية ، لقد واجهتنا صعوبات عديدة لاعتقاد الأهالى القوى أن الشيخ يعلم كل تصرفاتهم ، ومن ثم قد يلحق بهم أضرارا ، لكن استطعنا تجنيد هذا الزعفرانى بعد جهود مكثفة ، من ناحية أخرى يتيح لنا هذا فعلا إمكانية دراسة حالته العضوية عن طريق عرضه على أكثر من طبيب اخصائى لتحديد نوعية العجز وإمكانية مقاومته ، وقد رفعنا تقارير الأطباء الذين قاموا بفحوص دقيقة على هذا الزعفرانى إلى المشرف الأعلى على الشئون الصحية ، وقد ثبت فعلا وجود حالة فريدة تتلخص فيما يلى : —

١ — العجز عن الانتصاب .
٢ — اختفاء الحيوانات المنوية اختفاء تاما .
٣ — سلامة الجهاز التناسلى ، وعدم وجود أى التهابات به أو أمراض .

ونظرا لتفرد الحالة ، أطلق عليها الأطباء « اللعنة الزعفرانية » ، وحاليا

تقوم هيئة طبية كاملة بدراستها ، وقد أفاد هذا الساكن الزعفراني بمعلومات قيمة ، نوجزها فيما يلي :

١ ــ الشيخ يقوم بطرح أفكار معينة ، لا يهدف من ورائها إلى تقويض نظامنا الاجتماعي فقط ، إنما إلى هدم النظم الإنسانية .

٢ ــ يدعي الشيخ إن العقل البشري لا يزال في مرحلته البدائية و برغم إنجازات العلم فإنه لا يزال متخلفا . والأمور الهامة التي تحكم مصير البشر غير معقولة ، وغير مفهومة ، وضرب مثلا بالحرب ، وقال إن الإنسان يحلم بإنهاء كل الحروب لكن الذاكرة الإنسانية ضعيفة ، لهذا تنشب الحروب من جديد ، وقال إن قابيل وهابيل مازال يعيشان .

٣ ــ ضرب مثلا بالعدالة ، قال إن فكرة العدالة نسبية ، تتلون طبقا للنظم وما هي إلا مخدر يحلم به الإنسان منذ فجر وجوده . لكن هل تحققت ؟ إن الناظر إلى الأوضاع البشرية الحالية يجد تحققها عبثا ، لا فائدة في أي مفكر أو مدع بوجود نظرية تقول بالعدالة وهذه من الأمور التي تدل على عقم العقل وقصر النظر ، يولد الناس متساوون . ثم تبدأ الفروق . يحدد لكل مولود مساره الناتج عن ظروف لا علاقة له بها ، يقتنع البشر بالظروف لدرجة أنهم يتقبلون أكثر الأمور شذوذا على إنها أوضاع طبيعية ، فيموت الالاف جوعا ، ويموت العشرات تخمة ، تشهق الأبنية العالية وتتواضع أكواخ الصفيح ، العدالة أمر لا يمكن تحقيقة إلا بعمل خارق ، عمل بمثابة اللطمة على وعي الإنسانية ، يضعها في مواجهة الخطر ، يهدد الوجود والأبدية ، من خلال هذا الوضع يمكن تحقيق ما يصبو إليه .

تلك بعض الأفكار العامة التي استقيناها من الزعفراني ، ونظراً لخطورة الموضوع رأينا معالجة الأمور بسرية تامة ، وقد نما إلى معلوماتنا أن أحد الأعضاء

بمجلس المنتخبين الشرعيين ، قرر توجيه سؤال في المجلس الى المسئول الأعلى عن الثروة البشرية ، بخصوص ما يجري في الزعفراني والإشاعات المغرضة التي تطلق في الداخل والخارج ، ونما الى علمنا أن هذا العضو ــ هو منتخب عن الحي القديم ــ ينوي في حالة عدم وضوح الإجابة المطالبة بتشكيل لجنة لتقصي حقيقة ما يجري من أحوال زعفرانية ...

نص تأشيرات دونت على التقرير السابق :

١ ــ تدعم قوة الشرطة السرية المنتشرة حول الحارة .

٢ ــ يتم التركيز على متابعة المسجون السياسي السابق رمانة ، والمشتبه فيه « لولي » والتأكد من عدم وجود أي صلات بين أحدهما وأي دولة أجنبية .

٣ ــ يتم الاتصال بالرئيس الأعلى لمجلس المنتخبين الشرعيين ، ومنع مناقشة أي موضوع يتعلق بالزعفراني في المجلس .

محاولة انقاذ الموقف :

« كتب المحرر العسكري »

أبدى الزعيم حسن أنور إهتماما شديداً بما يجري على الجبهة الوسطى ، على أثر قيام الشيخ بحشد فرق الهجوم وتوجيه ضربة رئيسية ، وذلك بإنذاره أهالي الزعفراني عن طريق مستشاره الأول لشئون الفكر ، المارشال سلام ، وتضمن الانذار استمرار الأحوال إلى أجل غير مسمى لكنه قريب ، أيضاً قام سيد أبو العاطي بتوجيه الانذار الثالث إلى الزعيم والقائد و يقضي بفصله نهائيا من المصلحة ، هذا ، وقد انتقل الزعيم بنفسه ، صباح اليوم إلى موقع القيادة الميداني بالجبهة الوسطى حيث تدور سلسة معارك رهيبة ، طاحنة .

برقية صحفية :

تفيد الأخبار أن أكثر من محاولة بذلت لاغتيال الزعيم ، تمت أبرز هذه المحاولات أثناء انتقاله من مركز القيادة الرئيسي بالشرفة المطلة على أرض المعركة بالزعفراني ، إلى النافذة الصغيرة بالحجرة المجاورة للصالة . والتي تضم موقع القيادة الميداني الحصين . على أثر هذا بادر المارشال حسان رئيس الأركان بتعقب فرق الاغتيال .

أمر سرى .

تدفع كتائب الهجمات الصاعقة التابعة لفيلد مارشال اتيلا إلى أعماق العدو .

بداية الهزائم :

لم توفق جهود حسان ، ومساعي والدته في منع الصبية من التحرش بحسن أنور ، وقفته اليومية تغريهم بمناوشته ، خاصة عندما يعلو زعيقه مخاطبا القادة الذين أبدوا إهمالا . بالأمس ، راقبه بعض الأولاد من فوق السطح المقابل قذفه أحدهم بحجر أصابه في كتفه . علا صراخه «أين هتلر . . أين هتلر؟ إنه لا يخشى محاولات الاغتيال . . يجب أن يظل قدوة للرجال ، أقل هزة تبدو عليه ستنعكس بشكل مباشر على جميع المحاربين في كافة ميادين الحرب ، الصور الملتقطة له التي تتناقلها وكالات الأنباء والصحف يجب أن تعبر عن التماسك والثبات مهما اشتدت الظروف ، أضطر حسان إلى الذهاب بنفسه إلى أسر الأطفال ، لم يأت هذا بنتيجة ، يبدو أن الصغار وجدوا في معاكسة حسن أنور سلوى تعوضهم عن فقدان مجالات اللهو واللعب ، بعد تعذر ذهابهم إلى الحارات

الأخرى . أو الخروج في رحلات استكشافية إلى الخلاء أو المساجد القديمة ، يضاف إلى هذا أن أولياء أمورهم منعوهم من الذهاب إلى المدارس الملتحقين بها نظراً لما واجهوه من مضايقات وصلت في أحد المواقف إلى أن بعض التلاميذ طرحوا يوسف بن طاحون ، وخلعوا ثيابه كلها بغرض الكشف عليه ، ومحاولة معرفة ، هل يشبههم أم إنه يختلف نتيجة للطلسم ، أستدع حسن أنور أبنه ، طلب منه الوقوف إلى جانبه طوال اليوم ، أبدى حسان ضيقا ، لن يستطيع ملازمته ، دهش حسن أنور ، قال إن هذا أمر يجب الامتثال له ، إن حسان قادر على مناقشة والده لفترات طويلة ، احياناً يشترك في استعراض أدق التفاصيل الخاصة بسير المعارك ، ينفعل و يبدى إهتماما ، لكنه لم يفكر في ملازمة والده باستمرار ، لن يتمكن من متابعة دروسه ، البحث عن شقيقه واستقصاء احواله ، لن يستطيع الذهاب إلى رمانة ، مضى عمره باسرع مما يتصور ، عندما مر بعمر حسان بدا له سن الثلاثين نائيا ، استغرقه العمل ، الهرب من البوليس ، سنوات الاعتقال الطويلة ، كل هذا حال دون دخوله علاقة متكاملة ، إنه لا يندم على هذا ، ولكن ذلك أحد الأسباب القوية التي حرمته الحق في الأختيار ثم الاستقرار ، كلما تقدم الإنسان في العمر قلت الفرص المتاحة له ، ليس في الزواج فقط إنما في كل شيء ، احياناً في لحظات ضيقة يظن ضياع كل ما سجن من أجله . عندما دخل السجن لأول مرة جاء إليه أحد زملائه . همس محذراً من الأفراط في الحديث أو الأدلاء بأى معلومات لأن بعض الزملاء على أتصال بالادارة ، ينقلون ما يدور في العنبر مما يساعد على تطوير التحقيق وكشف بعض الجوانب ، أخفى رمانة دهشته ، كيف يوجد بين الزملاء من يعمل لمصلحة الادارة؟ أرقه التفكير ، لكن فيما بعد عرف كيف يتحول الإنسان من النقيض إلى النقيض . من السهل القول بتغير إنسان ، لكن البشع متابعة ذلك التغير والسقوط ، سكت رمانة ، قال إنه لا حدود لامكانية تغير الإنسان ، كثيرا ما يصبح هذا موجعا ، رأى الكثيرين يتخلون عن القضية ، وعندما رفض حل

الحزب أبلغوا عنه ، لكن تعرفه إلى حسان . فيه عزاء وأى عزاء ، إن لقاءات حسان برمانة أصبحت شيئاً أساسيا ، أيضاً الفترات التى يخرج فيها إلى الخلاء القريب ، يجلس فوق حجر . أو مقهى صغير لا يأتيه إلا سائقو عربات النقل ، حسان يضيق بأحوال والده ، يحرص على اختيار الصيغ التى يرفض بها طلبات والده ، خلال الأيام الأخيرة يشعر الزعيم بخواء ، قواته الضخمة ، كبار قادة التاريخ ، أشجع الرجال . كل هؤلاء لم يستطيعوا الحاق خسائر موجعة بالجانب المعادى . لا يزال أبو المعاطى يشن الهجمة تلو الهجمة ، يرسل الخطاب بعد الخطاب ، بضربة بارعة قطع الامداد الرئيسى ، أوقف الراتب الشهرى ، أما الشيخ فيحكم قبضته ، لكن الأدهى تعاون إبنه سمير مع الأعداء ، لا يثق إلا بابنه حسان . لهذا استدعاه ، طلب منه ملازمته ، قال إنه لم يهتز بسبب المواقف الأخيرة ، سيشن هجمات مركزة ضد جبهة عبد العظيم أفندى الجواهرى ، وصاحب البيت المقابل ومدير المستخدمين ، يجب على حسان فقط تحمل مسئولياته ، قال حسان إنه مخلص لوالده وزعيمه . لكن هذا المطلب الأخير لن يلتزم به نظراً للعديد من الأمور التى يجب انجازها ، قام حسن أنور واقفاً ، صاح بصوت مرتعش « هذا أمر » ، إن حسان مع مرور الأيام تنتابه حالات ضيق ، فى البداية ظن ما جرى لوالده عارضا ينتهى بعد يومين أو ثلاثة ، لكنه أوغل فى طريق لا رجعة منه . تذكر بالأمس قبل نومه ، بكى تأثرا ، لم يتوقع يوما رؤيته أبيه هكذا ، من السهل أن يسمع بجنون فلان ، ولكن مالا يستطيع احتماله ، رؤيته فى أقرب الخلق إليه . ناء باهم . وقف ، خرج فجأة ، لو بقى لحظة واحدة ربما أنهار باكيا ، لا يدرى إلى أين يذهب ؟ هل يجلس قليلا بمقهى الدالطورى ، هل يذهب إلى الخلاء ، لكن ميعاد النوم الزعفرانى أقرب ، صعد السلم إلى حجرة رمانة ، فى البيت أسرعت أمه إلى الحجرة عندما سمعة صوتا متحشرجا ، رأت وجه زوجها متصلباً ، شفتاه ترتعشان ، تصدر عنه أصوات مكتومة تحار الأذن فى تصنيفها ، ونسبتها إلى الإنسان أو الحيوان ؟ روحه مصابة بجرح

عميق ، صيحات عديدة تطالبه بالاستسلام ، ها هوذا رئيس أركانه ، إبنه الأكبر يتخلى عنه فى أوجع اللحظات ، ستردد ذلك الاذاعات المعادية ، ستنهار معنويات رجاله ، قادته يهربون ، روميل ينتحر بالسم بعد فشل الهجمات الصحراوية ، جنكيز خان يقع أسيرا ، طائرات جورنج تتهاوى كالذباب ، روحه تتنفض ، هل يقدم على ما يفعله القادة الكبار فى مثل هذه الظروف ، يصوب الطلقة الأخيرة إلى رأسه ، لكن يجب أن يسقط واقفا ، الانتحار هروب ، ليتمسك بشجاعة الاستسلام ، يهز امرأته ، لتكف عن البكاء ، ولتواجه معه مصير قائد عظيم » .

* * *

« ملف خاص : الثورة ... »

خلال الأيام الأخيرة نقل عويس الفران عدة تعاليم مباشرة صادرة من الشيخ إلى الزعفرانيين بدا بعضها غامضا . والآخر مزعجا برغم اعتيادهم على صدور عدد من الإجراءات التي تغير حياتهم تدريجيا ، بالأمس أعلن عويس أن الشيخ ينوى إعادة تنظيم الأمور في الزعفراني بحيث يجب على كل ساكن الاستعداد لمغادرة بيته إلى شقة أخرى ، في اليوم نفسه عقد سلام المنذر الأول اجتماعا ، دعا إليه عددا محدودا من الزعفرانيين ، عاطف ، حسان ، الداطورى ، أحمد النجار ، البنان ، قال إنه عن قريب سينهى إليهم البشرى ، بعد حين قصير لن يتجاوز ساعات سيجدون أنفسهم جزءاً من كل ، سيحتل الزعفرانيون مكان الصدارة في قلب العالم ، لم يدعهم ليقول لهم هذا فقط لكن ليبلغهم بعض الأفكار الجليلة . تحدث طويلا عن القنوات والمسارات التي تتخذها حياة البشر ، كيف يحيد بعضها عما اشتهاه الإنسان ، ما يريده الشيخ هو إتاحة حرية الاختيار بالنسبة للإنسان . ثم ذكر نصوصا وتلا سطورا تدور حول حق إعادة الاختيار ، قبل إنتهاء الاجتماع طلب من عاطف إبلاغ حسن أفندى أنور سخط الشيخ لتخلفه عن حضور ثلاثة اجتماعات دعى إليها ، نزل عاطف متوجها إلى بيت حسن أفندى ، إنه يعلم بعض أحواله من الزعفراني ، يراه واقفا في الشرفة مرتديا حلة عسكرية قديمة ، عاطف يدرك مشاركته لما يجرى من أحداث زعفرانية غريبة ، قطع شوطا غامضا ولا يدرى ما ينتظره . هذا ما يجعله كابيا ، فتحت امرأة حسن أفندى الباب ، عيناها منتفختان بتأثير بكاء ، كتفاها منحنيتان وكأن ثقلا ضغطهما إلى أسفل ، خيل له انه لمح بريقا في عينيها عندما رأته ، طلبت منه الانتظار لحظات حتى تخبر زوجها . ليس عنده مانع في مقابلته ، أبدت تهللا وبشرا ، همست ، إنه لأول مرة يوافق على استقبال ضيف ، ساءت حالته خلال الأيام الثلاثة الأخيرة ، لكنها تأمل أن تخفف عنه هذه الزيارة ، دخل الغرفة جلس حسن أفندى ، انقبضت روح عاطف ، يمكنه أن يلمح نهاية شيء ما في الرجل ، حسن أفندى مستند إلى حافة مقعد ، حلته العسكرية

مفتوحة الأزرار ، رباط الحذاء مفكوك ، بسط أصابع يديه فوق منضدة من الصاج ، لحيته طويلة ، الأرضية مغطاه بأوراق وخرائط وأقلام رصاص . وأقلام ملونة ، قام على مهل ، نظر إلى عاطف مستسلما حتى بدا أن حركة واحدة من أصبعه كفيلة بتوجيهه إلى أى اتجاه ، قال بصوت خافت ، إنه يقبل كل شيء ، لكن ما يرجوه من المندوب المهذب ضمان معاملة تليق به ، حار عاطف ، منظر جاره يثير في أعماقه أشد الأحزان . أن حياة مضت منتظمة سنينا طويلة تنهار وتخرج عن تطورها الطبيعي ، تسلك دروبا وعرة الاكتشاف . بدت رحمة له عندئذ نائية ، بعيدة ، جهد في استرجاع ملامحها . روض تطل عليه بوجهها الطيب ورغباتها المتواضعة واستسلامها الخنوف ، لا يدرى لماذا تذكر مشيه ذات ليلة قرب كشك أخضر الطلاء ، شابان يندفعان فجأة ، ينحنيان فوق الأرض بجوار الكشك ، تعلو ضحكاتهما ، تجلجل عبثهما ، مدا أيديهما إلى رجل نائم فوق بطانية ، تبينه عاطف بصعوبة ، في صيحاته شقاء ، شعر برثاء غامر تجاهه ، بدت الحياة له غريبة . مستعصية على الفهم ، ما جرى له أو ما جرى لحسن أفندى الذى ضرب به المثل في الاتزان والعقل ، قال إن كثيرين يحملون السلام إلى الرجل الطيب ، انتفض حسن أفندى ، قال إنه لن يقبل رثاء ، وانه لم يقبل الاستماع إلى شروط الاستسلام إلا ليحمى أرواح جنوده المخلصين . ليعلم هذا الشيخ وسيد أبو المعاطى . هنا سمع عاطف بكاء خافتا ، تهمس المرأة « ياخراب بيتنا » ، يسأل عن حسان ، قالت إنه لا يجيء إلا في ميعاد النوم الإجبارى ، طوال اليوم لا يترك رمانة السياسى ، رجت عاطف أن يطلب من رمانة ترك ابنها الذى لم يعد لها إلا هو ، قال عاطف إنه لن يقصر لكنه يرجو حضور حسن أفندى الاجتماعات التي يدعو اليها الشيخ ، مرة أخرى صاح حسن أفندى معلنا أنه ينهزم واقفا ولن يركع ، نزل عاطف متمهلا ، خرج من الزعفراني ، لم يفكر في الوقت المتبقى على ميعاد النوم . قطع الشوارع المزدحمة الى متجر السلاح ، تردد عليه كثيراً خلال الأيام الماضية . توقف أمام المسدس الصغير في يوم واحد سبع

مرات ، في صغره اذ يتمدد فوق السرير يرقب الجدران والمصباح والمقاعد ، يتخيل الأشياء تسمع وترى . يتبادل حديثا صامتا مع المناضد ، والجدران . يثق أن المسدس يعرفه ، يهيب به أن يحسم تردده . ان يتمنطق به ثم يزهو مختالا ، بالأمس تمددت روض إلى جواره ، تميل عليه ، تقبله ، تمرر يدها على شعره ، اذ تشعر بقلقه ، تحيطه بذراعيها ، ترجوه ضمها بكلتا يديه التي تمنعه من محاولة تفشل و يعقبها ضيق . تهمس بأخبارها اليه ، شقيقتها لم تعد تهددها أو تضايقها ، ليس بسبب الطلسم ، انما لعلاقتها بعاطف ، لوجود رجل يدور حوله اهتماماتها ، يشغلها ، قالت إنها أثناء نشر الغسيل وقعت فوطة وجه قديمة على جارتهم خديجة الصعيدية ، لو حدث هذا في أيام عادية لصاحت وقلبت الدنيا ، انها تهوى الخناق والفرجة على المشاجرات ، حتى انها تكافىء أي صبي بتعريفة أو قطعة حلوى لو أخبرها عن وقوع مشاجرة خارج الزعفراني ، عندئذ تلتف بملاءتها ، تترك طبيخها فوق الموقد وتمضي لتحتل موقعا مناسبا وتتابع المشاجرة ، زعمت أم سهير أن خديجة الصعيدية تمرض لو انقضت أيام بدون أن تشهد خناقة ، قالت روض إن مشاجرات خديجة تلفت النظر بلهجتها وعدم استخدامها السباب أو الألفاظ القبيحة ، إنما تصيح بصوت عال ، متوجهة بالحديث إلى شخصها ذاته ، تسب نفسها وحظها المائل الذى جعلها تتعامل مع أمثال فلانة أو علانة ، أو تسكن تحت هذه ، أو تشترى من تلك ، قالت روض إنها تبدو مزعجة بحديثها الذى لا يمكن إيقافها إلا بجملة واحدة ، أن يصفها أحد بمجيئها إلى الزعفراني من وراء الجاموسة ، عندئذ تبكى وتصرخ ، طول خناقتها الغريبة تلك يتيح الفرصة لتاجرة المكرونه . تساءل عاطف بدهشة .. من هذه ؟ ، ضيقت روض عينيها كأنها تقول . ألا تعرفها حقا ؟ نفى ، قالت إنها نبيلة المدرسة ابنة « الخمورجى » ، إنها تطبخ يوميا حلة مكرونة ، تحشوبها الأرغفة ، تبيعها لتلاميذ مدرستها غصبا ، أم سهير كشفت سرها عندما خيل لها أن نبيلة تقف في الشرفة طويلا لحظة وقوف زوجها فى الشرفة المقابلة . تحت بصوت عال وخلال توجيهها الحديث لإحدى

المرات إلى صبي في الحارة ، وصفت أمه بتاجرة المكرونة ، دخلت نبيلة بسرعة خوفا من لسان أم سهير ، عادة تنتهز نبيلة زعيق خديجة الصعيدية وتطلب منها الكف عن الصياح حتى تستكمل محاضراتها الجامعية ، هدأ صوت روض عندما قالت إنها كثيرا ما لاحظت وقوف نبيلة في مواجهة عاطف . أو صياحها منادية شقيقتها تطلب منها شراء كشاكيل لتنقل محاضرات الجامعة ، أو تهربائها يصيح على بضاعة عندما كان البائعون يدخلون الزعفراني ، تأمره بخفض صوته لأنها لا تستطيع استذكار دروسها الجامعية . قالت روض إنها لحظت نظراتها ، حتى ودت لو مدت يدها لتدفعه إلى داخل شقته ، تبعده عنها ، أصغى عاطف بدهشة ، لا يتصور نفسه موضع غيرة . لكثرة ما لاقى من صد لم يظن نفسه هدفا تحوم حوله غيرة أنثى ، لكم اقتربت منه روض في هذه اللحظة ، لكم بدت له جميلة ، طيبة ، وديعة . تفتحت مسام نفسه لها ، وجهها يطرق خجلا أمام نظراته . هل تدرك ما يجرى بخاطره في هذه اللحظة ؟ قرر أن يقول لها . هيا بنا نتزوج ، يرجوها أن تقاسمه عمره ، أن تحتل موقعها في حياته ، لكن الألفاظ بقيت معقودة داخله ، هل ستظل رغبته في امتلاك المسدس كامنة ؟

يتأمل الجسم المعدنى ، يخطو إلى داخل المتجر ، رجل قصير يميل إلى امتلاء ، يتحدث إلي سيدة عجوز ، يبدو أنه أحد الأرمن أو اليونانيين الذين يستوطنون البلاد ، عاطف يتأمل نظارات الغطس ، خراطيش الصيد ، موتور يوضع في مؤخرة القوارب الخفيفة ، صورة رجل أنيق يرتدى ملابس الصيد وقبعة كبيرة . يغمض عينا و يفتح الأخرى ، يصوب سلاحه في اتجاه هدف ما ، لايبدو في اللوحة . « نعم يا أستاذ » يباغت عاطف ، يبتسم ابتسامة سريعة ، يقول انه يرغب الاستفسار عن سعر المسدس الصغير ، يتساءل الرجل « البراونج ؟ » ، يتجه عاطف الى الفترينة ، يشير اليه من الخارج ، يزيح الرجل الغطاء الخشبى الخلفى ، يهز رأسه ، يعود عاطف الى داخل المتجر ، ينظر الى المسدس من خلال

الفوهة الضيقة ، يد الرجل السمين ، يوشك عاطف أن يجفل ، تأخذه رهبة ، يتمنى ابتعاد الجسم المعدني عنه ، يبتلع لعابه ، الجسم المعدني يملأ اليد ، وزنه أثقل مما تصور ، صوبه ، يعيد المسدس بسرعة إلى الرجل ، يتساءل عن الثمن ؟ يتساءل الرجل ، متى تنوى ؟ يقول البائع بلهجة حادة بعد أن اتضح له أن الزبون يسأل فقط ولن يشترى فورا « أربعون جنيهاً » يخرج مسرعا ، ستنقص مدخراته أربعين جنيها ، أى ما يقارب الخمس ، بعد رحيل رحمة صار ينفق بلا حساب ، لا يضع ضوابط ، يمكنه شراء المسدس ، يشترى حزاما جلديا عريضا ، يراه الزعفرانيون ، يصوبه بين الحين والحين الى الفراغ ، يختار مكانا بعيدا ، يصوب الطلقات الى الصخر ، سينظفه كل أسبوع ، بالتأكيد سيحصل على كتيب صغير يشرح طريق الاستخدام والتنظيف ، سينظفه بقماش معين ، لكن .. « مصرع عاطف وهو ينظف سلاحه » ، « رجل يمشى فوق افريز يعلو سبعة طوابق أثناء نومه » ، آه ، « عاطف يطلق الرصاص على نفسه أثناء نومه » ، حادث غريب « تشبع القتيل بالفكرة حتى نفذها أثناء نومه » ، « .. والحقيقة أنه قام أثناء نومه فهو من المصابين بالمشى أثناء النوم ، أخرج المسدس بهدوء ، صوبه ناحية رأسه ... » ، روض تبكى ، تنظر إلى جثته ، تنزف دماؤه مبددة كل آمالها في نزهة يدعوها إليها يوما ، تصحبه في الحدائق ، تجلس معه بجوار النيل ، إنه يسرع الخطى الآن . تأخر عن ميعاد النوم نصف ساعة ، العجيب إنه لم يشعر بأى خوف أو اضطراب ، بل تتملكه رغبة في الوقوف وسط الزعفراني والصياح . لا يدرى ماذا يريده أو ما سيقوله ؟ لكنه سيحدث ضجة ، يلتف حوله الزعفرانيون ، سيفهمون ، لم يتمكن ما رغب فيه خوفه منه . هل أعد الشيخ طلسما خاصا بعجزه عن شراء المسدس ؟ يتجه الآن إلى مقهى صغير قريب من الزعفراني ، يطلب كوبا من الحلبة ، يشفق على رجل يرتدى جلبابا مبقعا بالحبر والأصباغ ، تبدو له روض الآن ، هل يصارحها بما فكر فيه أمس ؟ هل يطلب منها الزواج ؟ هل ينحنى عليها مقبلا ، يبكى طالبا منها الزواج . أول زواج زعفراني ، ما أسعد

حدى بمثل هذا الخبر . لشد ما تنأى رحمة عنه ، يثق الآن من حقيقة أكيدة . لن تذكره مهما سمعت عنه ، ستخفى اهتمامها حتى لا يلحظ نبيل شيئاً فهى شديدة الحرص على عدم اغضابه . من أين لها أن تعلم بشرائه مسدسا ، حتى لو التقت به صدفة ، هل ستتوقف لتحدثه ؟ هل ستسنح له الفرصة كي ترى المسدس الذى يتمنطق به يوما ، يملؤه أسى ، يجهد نفسه ليجد مبرراً لعجزه عن شراء المسدس . يقوم ، لا يريد أن يجلس ، لا يريد أن يمشى ، لا يريد الذهاب إلى البيت ، لا يريد الابتعاد عن روض . يخشى الاقتراب منها ، يقل المارة ، تهدأ الحركة ، كيف سيعلم الشيخ بعودته متأخرا ؟ مقهى الداطورى مغلق ، مصباح كهربائى ضعيف يرسل ضوءا شاحبا ، خيل إليه رؤية أشباح تتحرك في الزوايا المظلمة عند المنحنى . البيوت كلها مغلقة ، تذكر الشتاء ولمعان البلاط تحت المطر وضوء المصباح الوحيد ومساحة السماء الضيقة التى تبدو من خلال البيوت المتقاربة المنهكة بالزمن ، هل سيتحدث الزعفرانيون عما سيحدث له بسبب تحالفه المتعالى ؟ لم يفارقه إحساس قوى حتى دخوله الشقة أن ثمة من يرقبه . يتعقبه ، بل إنه فتح أبواب الغرف الثلاثة ، انحنى تحت السرير ، استدار فجأة أكثر من مرة ليضبط هذا الشىء الذى يتعقبه ، فوق السرير لمح قميصا داخليا تركته روض ، يود لو يراها الآن ، يتشمم القميص ، رائحة جسدها المميزة ، هل يسمع وقع أقدام فى الزعفرانى ؟ هل يخصص الشيخ بعض أتباعه للمرور ، هل هى أصوات المكان ؟ منذ عامين سافر إلى الاسكندرية ملتمسا الهدوء ، استعار مفتاح شقة أحد زملائه ، عندما عاد إليها أول مساء يقضيه فيها ، سمع أصواتا هامسة ، ثم زعيقا مفاجئا ، احتكاك أحذية ببلاط ، زفيرا قويا ، حفيف ثياب ، صفير قاطرة ، فى الليلة التالية أدرك إنها أصوات المكان ، مرور الهواء من خلال فتحات المنزل ، أو مروق مركبات فى الطريق القريب ، فى صمت الليل يتشكل هذا كله من جديد ، إن الشقة مضاءة ، يمكن للناظر من الزعفرانى رؤيتها وهكذا يستمر الضوء مشتعلا لأول مرة فى أحد المساكن الزعفرانية منذ

بداية زمن الظلام . إن عاطف أفندى لم يخلع ثيابه بعد ، يزداد اقتناعها بضرورة ذهابه إلى بيت أم صبرى الآن ، يعود مصطحبا روض لتواجه معه الليل .

نبيلة المدرسة ترقب من نافذة حجرتها شقة عاطف . تجذب مصراعى الشباك ، تضيء النور ، إن حالة من الضيق الممزوج بالقرف بالأسى تنتابها ، منذ عدة أيام تسأل نفسها ، وماذا بعد ؟ عمرها يقترب من السادسة والعشرين ، وكل ما فعلته ، كل ما أجبرت نفسها على الالتزام به لم يؤت ثمرا ، ولم ينته إلى نتيجه ، قبل العشرين قهرت عواطفها تجاه شعراوى صاحب دكان العطارة ، لم تلتفت إلى لم تستجب لنظراته الهادئة والتى أطلقت تيارات من الماء الدافيء تحت جلدها ، تعرف مراقبة العيون لأى بنت ، الانظار تتابعها بشكل خاص لسمعة والدها الذى أدمن الخمر آخر حياته ، لم يترك مقهى أو بيتا إلا وقف أمامه ، زعق مطالبا بفهم ما فى قلبه . عندما جاءها عريس بعد حصولها على الثانوية العامة ، رفضته . قالت أمها « نبيلة ستكمل فى الجامعة ولن تتزوج الآن » . ظنت الجامعة وسيلتها إلى زيجة راقية ، وشاب ينقلها من الزعفرانى . لكن ما أكثر الفتيات الجامعيات ، حتى جهودها العديدة ، الحذرة ، لم تجذب انتباه هذا الجامعى الأعزب الذى لا يخفى علاقته بتلك المرأة الضائعة ، روض ، إنها لا تفهم هؤلاء الرجال ، فى السابعة عشرة قالت : سيضمنى رجل عندما أبلغ الثامنة عشرة ، عند بلوغها الواحد والعشرين ، قالت ، سيحدث هذا فى الثالثة والعشرين ، كلما صادفت أكوابا أو فوطا أو ملاعق ، تشترى لبيتها المقبل ، لم يطلبها رجل حتى الآن ، لم يضمها إنسان ، لم تقبل قط ، لم تهصر ، متى إذن ؟ أغلقت حجرتها وسدت ثقب المفتاح بورق صحف قديم حتى لا ينظر شقيقها الأصغر من خلاله . بعد توقف قصير أمام مرآة الدولاب ، أخرجت لسانها مرات . إنها تبدأ المشيء ، تنثنى ، تبرز رد فيها ، تهمس « أطفى النور » ، تمر لحظات ، تهمس « لن أخلع ثيابى فى النور » ، تحدث صوتا بفمها كأن زر النور أغلق .

تهمس بدلع أنثوى « كن رقيقا » تخلع قميصها متمهلة ، تنثنى إلى خلف وقدام ويمين وشمال ، تسمع خطى تقترب منها ، ذراعان تحيطان خصرها ، تقول بضعف « ألم أطلب منك الانتظار » تستدير ، تفك السوتيان ، تتأمل ثدييها ، توجه إليها قبلات طائرة ، « لا . . انتظر » ، تتجرد تماماً من آخر قطعة ثياب ، تتجه إلى السرير الذى نقلته منذ فترة ليواجه المرآة ، تعلوفوقه ، ترتكز إلى ركبتها وساعديها ، تحبو ، تتأمل مؤخرتها من خلال انفراجة فخذيها ، تنقلب على ظهرها فجأة ، « لا تكن عنيفا » ، تضم ذراعيها ، تجول أصابعها متحسسة ظهرها ، تطلق صيحات مكتومة ، قصيرة ، تنظر إلى المرآة ، إنها وحيدة غارقة فى ضوء الغرفة البارد ، منكوشة الشعر ، لاهثة ، تعض حافة الوسادة ، إلى متى ، إلى متى إذن ؟ لا يعنيها تأخرها عن ميعاد النوم ، إن حزناً يكوى قلبها ، تعض الوسادة ، تبكى .

حسن أفندى لم يفارق شرفته حتى الآن ، لم تفلح توسلات امرأته ، أنه يرى حلقات الحصار تغلق واحدة بعد الأخرى ، آخرها تخلى حسان عنه ، لم يعد يهتم كثيراً بابنه الأكبر ، أو المكان الذى يمضى فيه نهاره ، أو أصحابه ، ما يشغل تفكيره طيلة اليومين الأخيرين ، الطريقة المثلى التى سيتم بها استسلامه ، اتخذ قرار الاستسلام حرصاً على أرواح الآلاف من جنوده ، فى نفس الوقت قرر ألا ينهى حياته ، لا تزال ملايين القلوب تتعلق به ، تؤمن بقدرته على تخليصهم من الشيخ وسيد أبو العاطى وحلفائهما ، فى لحظة معينة سينطلق نداء من مكان ما ، فلول جيشه مبعثرة ستنهض من أركان الدنيا الأربعة ، لهذا قرر الاستسلام بأفضل الشروط الممكنة . أنه يرتدى ثيابه كاملة ، يعلق كل أوسمته ونياشينه ، صباح هذا اليوم طلب من امرأته المحافظة على أوراقه ، ورفض تسليمها إلى أى شخص ، سألته ، إلى أين ؟ قال إنها ستعرف كل شيء فيما بعد ، حاولت منعه لكنه أزاحها عن طريقه بعنف ، وهكذا شهد الزعفرانيون مشهداً غريباً فى بداية ذلك النهار عندما اخترقها حسن أنور مرتديا زيه العسكرى القديم . ينظر إلى بعض المطلات من الشرفات . يرفع بيده التحية العسكرية ، أغرى منظره عدداً من صبية

الزعفراني ، طاردوه ، قذفوه ببعض الأحجار ، تحمل آلامه ، مضى ، مر أمام مقهى الداطوري ، حاول بعض الغرباء مناقشته بالكلمات ، رجف قلبه ، خيل إليه أنه لمح ابنه حسان ، بعد لحظات أيقن تطلع ابنه إليه من بين جمع وقف للفرجة عليه ، اعتبره المارة حول المسجد أحد المجاذيب الجدد الذين يغطون صدورهم بالنياشين ، وأغطية الزجاجات . في نفس الوقت ، لن يتوقف عن تنفيذ ما قرره ، حتى لو ظهر سمير بنفسه وقبل يده وأعلن أنه سيواصل اتمام دراسته ، وأنه سيتخرج مهندساً . كما رغب ابوه يوماً قرر ألا يتوقف ، وشأن كبار القادة عند اجتيازهم اللحظات الحاسمة والخطيرة في حياتهم ، و" ـ ستؤثر بالتالي في حياة الآلاف والملايين ، فانهم يستدعون مواقف صغيرة تمت إلى حياتهم الخاصة ، تذكر بأسى ذهابه مع ولديه صباح الأعياد إلى المسجد ، عند عودتهما يتوقفان لمصافحة الجيران والأحباب ، يتوقفان أمام دكان رأس الفجلة الذى يخرج من مخزنه مجموعة من لعب الأطفال والبالونات يعرضها في متجره برغم أنه بقال ، ما أبعد الزمن ، نظر إليه السعاة بدهشة لحظة دخوله المؤسسة ، تقدم من مدير مكتب سيد أبو المعاطي ، طلب منه مقابلة البك فورا ، نظر إليه السكرتير صامتاً ، عبر الحجرة إلى الباب المغطى بالقطيفة الخضراء ، لم يتأخر كثيرا ، لابد أنه أخبر البك بهيئة حسن أفندى فاستثار فضوله ، عندما دخل رأى ثلاثة رجال ، أحدهم ملامحه يابانية . أو صينية ، واوضح سيد بك أنه قطع اجتماعا ليستقبله ، أيقن أن الجالسين جاءوا خصيصا لرؤية المشهد الأخير ، ابتسم أبو المعاطي ، تأمل غرابة ملابسه ، تحدث إلى ضيوفه بالإنجليزية ، حسن أنور يمر بأشد اللحظات إيلاما ، لكن الشجاعة الحقيقية تتجلى في احتمال لحظات الهزيمة ، نزع سيفه . تقدم به إلى أبي المعاطي ، قال « .. لقد سلمت لكم .. سلمت » ، ضغط سيد بك زرا . طلب من السكرتير استدعاء مدير مكتب الأمن ، بعد لحظات جاء الرجل . بدأ حسن أنور يتنفس هواء الأسر ، ودع ماضيا معروفا ليبدأ مستقبلا مجهولا ، ربما حكم عليه بالإعدام ، استدعى رئيس مكتب الأمن أثنين من رجاله . أمسك بذراعيه . صمم

على بقاء لحظاته الأخيرة مليئة بالكبرياء . رفض أن يمسك . وسيمشي فى أى اتجاه يشاءون ، تذكر أن نابليون في سانت هيلانة لم يحن رأسا حتى تعمدوا بناء باب منخفض في الطريق الذى يمر به يوميا ، لكنه لحظة الاقتراب منه صار يثنى ساقيه قليلا ، وهكذا يعبر مرفوع الرأس ، سرى خبر قدوم حسن أنور بهذه الهيئة الغريبة بين الموظفين ، انزعج بعض الموظفين العجائز الذين زاملوه زمنا على عكس الآخرين الذين وجدوا في الحدث كسرا لإيقاع يومهم الرتيب ، تجمع العجائز فى مكتب عبد العظيم أفندى ، أبدى كل منهم رأيه ، لكنهم أجمعوا على ضرورة توسط بعضهم لدى سيد بك حتى يتستروا على مرض زميلهم و يعيدوه إلى بيته ، قال أحدهم إنه ربما ارتكب أمراً فيه خطورة على المجتمع . قال آخر إنه يبدو وديعاً مسالماً وما لحقه سببه الأحوال الزعفرانية ، أجمعوا على توكيل عبد العظيم أفندى لما له من كفاءة ، والحقيقة أن الرجل لم يقصر ، مشى واثقاً . يميل جسمه إلى الخلف ، يبرز كرشه بشكل لم يلحظه زملاؤه إلا عندما حصل على جهاز التليفون الخاص به ، لم يقل ما دار بينه وبين سيد بك ، وقبل دخوله مكتب الأمن التفت إلى زملائه ، قال ، والله سيد بك رجل لا يعوض . قامت عربة خاصة بتوصيل حسن أنور ، صحبه عبد العظيم أفندى ، واثنين آخرين من الإدارة الفنية ، من النافذة خيل لحسن أفندى أنه يلمح ابنه سمير ماشيا على الأرصفة . أو مستقبلا عربة مقابلة ، لو اقترب منه سيدفىء مشاعر الأبوة ، هروبه بداية الخيانة ، بداية الخطى نحو هذه النهاية المساق إليها الآن . وذلك الإذلال المتمثل في مصاحبة عبد العظيم أفندى له بدلا من أبو المعاطي شخصياً ، ألقى اللوم على هملر رئيس المخابرات ، وروميل ، لأنهما لم يحققاها معها بالاندفاع والتقدم حتى تخرج حسان طبيباً ، وسمير مهندساً ، أمام المقهى لم يخف الداطوري دموعه ، جاء اليوم الذى يسمع فيه البعض يصفون حسن أنور جار العمر بأنه ليس خطراً ، كأنه حيوان لا ضرر منه إذا اقتنى ، في صمت صحبه إلى داخل المقهى ، استدار إلى المتجمهرين ، فهم الجرسون العجوز ما يريده ، زعق طالباً من الناس الانصراف

ولا داعي للفضائح ، تأمل حسن أنور ما يحيطه ، إذا وقع اختيارهم على مقهى الداطوري لسجنه ، حاول تذكر مصير مماثل واجهه أحد الزعماء ، لم يستطيع ، حقا نهاية لم تخطر على بال منتقم ، عديدون يتطلعون ، شاب يتوقف ، يخرج من جيبه آله تصوير صغيرة ، يضغط زراً عدة مرات ، جاءه الجرسون بصينية فوقها فنجان قهوة ، رفض أي مظاهر عناية مفتعلة حتى لا تستخدم كمادة للدعاية ضده ، هؤلاء السذج ، يريدون نشر صوره وكأنه أسير حرب عادي يقدم له آسره كوب ماء . قال قبل أن يلفظ الداطوري أي كلمة إنه امتثل لكل ما يريدونه ، وبالطبع لن يستطيع فرض شروطه لكنه يطلب معاملة لائقة ومحاكمة عادلة . أشار الداطوري طالباً منه الجلوس . قال إن الحي كله يعرف حسن بك الطيب الذي لم يسمع له حس أو صوت . ضاق بعبارات الداطوري . لقد جرده من رتبه وهذا طبيعي ، ناداه حسن بك فقط ، لكن أن يقول إنه عاش بلا حس أو صوت فهذا تزييف للتاريخ . بدأ مسخ الحقائق ، هل هي فضيلة أن يعيش الأنسان بلا حس أو صوت ؟ لكنها بداية الإهانات فليحتمل ، قال الداطوري إنه يرجو من حسن أفندي الذهاب معه ، كل ما سيطلبه سيجاب فوراً . رفع حاجبيه ، أي نهاية دبروها له ، زعق طالباً من الداطوري الصمت ، اتجه إلى الخارج ، لحقه الجرسون العجوز ، تزاحم حوله الواقفون ، مد أحدهم يده يلمسه ، دفعه البعض ، سحب سيفه من جرابه الجلدي ، هاش به على وجوههم ، بدأ يعدو محاولا الإفلات ، قذفه أحد الصبية بطوبة ، نهره رجل ، أسرع يدخل الزعفراني ، رفض أن يحدث زواجته ، لم يفارق حجرته منذ رجوعه ، منذ بداية الليل لم تغادر الشرفة ، إنه يقرر الآن أمراً ، يعبر الصالة ، بحذر يفتح الباب ، يقطع الزعفراني إلى الخارج ، يتجه إلى قسم البوليس ، يسأل جندي الحراسة ، هل قائده موجود ؟ تسري حركة في المبنى الحكومي القديم ، لقد صدر صباح اليوم أمر بالقبض على الجنرال الزعفراني الخامس الذي خرج من الحارة بعد أن حير هيئات الأمن طويلا ، لكن قبل وصول القوة المخصصة للقبض عليه دخل الزعفراني من جديد ،

وها هوذا يصل بنفسه . ها هوذا يقف أخيراً أمام القائد العسكري المعادي ، إنه يحبط خطة أبو المعاطي والشيخ في معاملته بإهمال وازدراء .

« ها أناذا قد سلمت إليكم .. سلمت .. أطلب محاكمتي ، محاكمة عادلة » .

يبدأ بالتخلي عن سترته العسكرية . لكن استسلامه حاسماً ، سيلتمس المؤرخون المنصفون العذر له فيما بعد ، لقد فعل ما فعل رغبة في إنهاء المعارك الدائرة الآن غير المتكافئة بين جنوده وأعدائهم . يسأله الضابط عن اسمه ، يتباطأ في الرد ، يصفعه أحد الجنود على قفاه ، يبتسم جندي آخر وكأن هذا عمل طيب ، من الممكن لأي منهم أن يأتي معه بأي تصرف ولن يلق رد الفعل الطبيعي ، برغم قسوة الإهانة يرد . . .

« فيلد مارشال متقاعد ، وقائد أعلى القوات المتحالفة ضد الظلم ، حسن أنور . . . »

الضحك صاخب ، ينتهي من خلع ثيابه العلوية ، يفك أزرار بنطلونه ، الجدران حوله كالحة ، تخفي ما تدور وراءها إنه عار الآن تماماً ، بينما يصيح الضابط في التليفون مخاطباً جهة ما .

مع بداية النهار الزعفراني الجديد ، أطلقت أم حسان صوتاً متصلا ، عاطت عياطاً مؤلماً أعلنت من خلاله خراب بيتها ، إن جسد أم يوسف يقشعر فزعاً ، يتوقف طاحون عن مضغ لقمة ، يبدو ما جرى فظيعاً ، ولا أحد ينأى عنه في الزعفراني ، خلال الفترة الأخيرة لا يكف عن التفكير في مشروعه الخاص بحفر شبكة ضخمة من الإنفاق . هل يعد هذا جنوناً ، نفى الفكرة ، إن مشروعه واقعي تماماً ، بل يفكر في شراء بعض لوحات الورق الأبيض ليعد رسومات أولية

لتفكرته . لم يتوقف نواح امرأة حسن أفندى ، يهمس خائفاً ، « اللهم احفظنا » ، إن أم سهير تمصمص شفتيها ألماً ، تتساءل بصوت مرتفع عما جرى للدنيا والناس والزعفراني ؟ يعلوها غيظ ، يلاحظ الزعفرانيون تلميحاً إلى ما فعله الشيخ خاصة عندما أشارت إلى هدوء الزعفراني طوال عمرها ، في شرفتها وقفت نبيلة المدرسة ، إن هدوءاً يخط عليها ، لم تنم الليل كله ، ترتدى ثياب الخروج ، تمسك كشكول المحاضرات الذى تناولته قبل خروجها من الغرفة مباشرة ، تدس أصبعها بين الصفحات كيفما أتفق وليس حرصاً على إبقاء موضوع معين مفتوحا ، حتى توحى للأهالي بانشغالها الدائم ، وإنها تضطر لقطع قراءتها أو دراستها لتطل من الشرفة ، وكأن في مجرد ظهورها دعوة لكى يصمتوا ، لم تستطع اليوم أن تطلب منهم السكوت حرصاً على توفير الجو الملائم للمذاكرة ، وذلك لعدة أسباب ، ان النهار مازال في بدايته ؛ إن الاضطراب البادى يعكس مصيبة أكبر حجماً . إن عاطف لا يقف في الشرفة ، والأهم شعورها بالسأم ، وأنه لا فائدة ، وانها لم تتصرف أبداً على طبيعتها بل ارتدت دائماً أحوال غير أحوالها ، الست خديجة يعلو بكاؤها حزناً على الرجل الأمير وأحسن الجيران ، تعلن أم صبرى خلو الزعفراني من الرجال قبل الطلسم و بعده ، يصغى الجميع إليها ، يدركون على مهل أن الزعفراني تتعرض للشيخ نفسه . تقول إنه لا يوجد رجل في الزعفراني يملأ عينيها ، وإلا ، فلماذا يسكتون ، هل سيجرى لهم أكثر مما جرى ؟ تجاوبها أم يوسف مؤمنة على كلامها ، تقول إن بيوت الزعفراني ستخرب بيتا ، بيتا ، والكل يتفرجون ، ولا أحد يتكلم ، لا أحد يلفظ احتجاجا ، تصرخ أم يوسف ، لماذا لا يتكلمون ، لماذا ؟ يطلب طاحون منها الكف ، لم تستجب ، يقسم بالطلاق أن تدخل ، تضرب النافذة ساخطة ، تسخر بصوت عال « طلاق .. أهلا ياسي طلاق » ، يشعر طاحون أنه صفع على قفاه وانه مستسلم لا يأتى بأى رد فعل ، ألم تتأخر امرأته أكثر من مرة ولم يسألها أو يعارضها . يسرع حسان إلى القسم ، قالوا له إن حالة والده خطيرة ، تسلمه مندوب خاص من وزارة الصحة بعد ثبوت أنه

من أهالي الزعفراني وذلك لوضعه تحت فحوص ضرورية ، كما يشرف عليه ضباط من هيئة الأمن ، نصحوه بعدم استئناف بحثه أو محاولة لقائه لصعوبة ذلك ، لم يقتنع حسان ، اتصل بعبد العظيم أفندى ، أبدى الرجل انزعاجا ، قال إنه سيعرض الأمر على سيد بك ، و يطلب منه تدخله وإن بدا هذا صعبا نظرا لوصول الأمر إلى جهات رسمية أكثر تعقيدا ، اتصل حسان بعبده البرتقاني الذى أصبح عضوا برلمانيا لكنه لم يجده ، إنه يفكر غاضبا ، هذه المصائب كلها بدأت مع الطلسم ، عاد إلى الحى القديم متورما ، لا يدرى كيف سيحتمل خلو البيت ، تذكر حزينا ضيقه بوالده خلال الأسبوعين الأخيرين ، ليته استجاب إليه و بقى إلى جواره . كيف كانت ستجرى الأمور لو أن الطلسم لم يلحق الزعفراني ؟ كل المصائب جاءت معه ، ومازال المنذر الأول يبشر بسعادة آتية ، وعدل سيتحقق ، أغرب ما يقوله ، حب الشيخ للأهالي الذى سيحفظ لهم فضل الريادة في بناء العالم العادل ، أى حب ، أى عدل هذا ؟ ، هل يذهب إلى الشيخ نفسه ؟ يخبره بما جرى لوالده ؟ يسأله هل يرضى بما جرى له ؟ لكنه محتجب لا يقابل مخلوقا ، بل تدور همسات كثيرة بعدم وجوده في تلك الحجرة ، وأن الصوت الذى سمعه الأهالي عندما ذهبوا في بداية زمن الطلسم ، وما يسمعه عويس وسلام ، إنما يتردد بدون مصدر ، قال آخرون إنها مؤامرة من عويس والصول سلام المتحكم في الزعفراني ، والخطوة التالية فرض أتاوات على السكان ، ومحاولة الاستيلاء على ثروة رأس الفجلة ، وبرغم وصول هذه الهمسات إلى رأس الفجلة إلا أنه لم يحرك ساكنا ، لم يتخل عن هيئته التى اعتادها الناس خلال الأيام الأخيرة . اطراقة رأسه الدائمة ، لعابه المستمر ، في الفترة الأخيرة سمع صراخ أمه كثيرا ، منذ ثلاثة أيام فاجأ رأس الفجلة كابوس مزعج ، كاد يختنق ولم يوقظه أحد ، فكر في استدعاء أمه من حجرتها فوق السطح لتشاركه البيت ، لكنه خشى ازعاجها له ، لن تدعه يخلو إلى نفسه . لن تسمح له بفرصة للتفكير في فريدة مرة واحدة . كما أنها ستزعجة باستيقاظها المبكر ودخولها الحمام في عز الشتاء ، أمس أمسكت به

لحظة خروجه ، لا يدرى أحد من أين واتتها القوة التى جعلتها تطرحه أرضا ؟ وتلكمه فى ضلوعه . ثم تدس يدها فى جيبه ، وتخرج خمس ورقات من فئة العشر جنيهات . لطمت وجهها . صاحت ليلحقها الناس ، ولينقذوا ابنها الخائب الذى لا حول له ولا قوة ، قالت إن العاهرة التى خربت بيتها واصطحبت ابنتها إلى بيت عشيقها ترسل إليه وتطلب منه نقودا ، آخرها طلبته مصاريف المصيف . رفعت النقود ملوحة للنوافذ والشرفات ، مصمصت خديجة الصعيدية ــ التى لم تر فى حياتها خمسين جنيها ــ شفتيها ، تأسفت أم صابر على رجال هذا الزمان . والحقيقة أن رأس الفجلة يتزايد إحساسه بالراحة منذ ذهاب امرأته وابنته ، بل تمر به لحظات فكأنه لم يتزوج أبداً ، ولم ينجب قط . ظلت لحظات هجرها وخيانتها له أفكارا وصورا فى مخيلته منذ زواجه حتى تحققت أخيراً ، غير أن خواطر مزعجة أقضت راحته ونمت بجوار إحساسه بالخلاص ، تساءل ، أين تقيمان ؟ يتخيلها تنظر إلى المدرس ، لا تبدى سخرية منه . تقبله فى فمه ، تهمس « ياحبيبى » ، بعد بلوغها ذروة النشوة يسألها عما فعله رأس الفجلة معها ؟ خجل رأس الفجلة إذ تخيل سخرية المدرس بعد استماعه إلى ما جرى بعد الطلسم ، لم ينتظم فى تناوله الطعام الزعفرانى ، عندما وقف فى الطابور بعد انقطاعه يومين لاحظ نظرات الزعفرانيين ، تمنى لو انشقت الأرض وابتلعته ، همست زنوبة المطلقة بكلمات ما إلى قرقر ، غرق رأس الفجلة فى عرق غزير ، عندما وصل إلى لولى ، الذى يتولى اليوم مسئولية توزيع طعام الأفطار طبقاً للنظام الزعفرانى الدورى . قال لولى ، لا تضايق نفسك ياسى حسن ، رفع عينيه المستديرتين ، غمغم غمغمات بسيطة ، تساءل بينه وبين نفسه ، هل وصل شىء مما تقوله فريدة عنه إلى الزعفرانى ، إلى لولى ؟ عاد حاملا طبقه مضطرب الخطى ، يود الاختفاء بسرعة ، ستحكى عنه فريدة . سيهدى السيف وبدلة مصارع الثيران إلى المدرس لا لكى يعيد امرأته إليه ، إنما ليكذبها إذا حكت له عن خيبة زوجها القديم ، لا ، بل سيرسل إليها هى ، لابد أن يسكتها ، فكر فى

الذهاب إلى عويس راجياً منه إبلاغ الشيخ بخجله الذى يمنعه من الرقاد ، أن يعد طلسما يخرس فريدة إذا ما شرعت فى السخرية منه أمام هذا المدرس ، فكر فى كتابة خطاب إلى امرأته يذكرها فيه بطيبته معها ، واستجابته لكل ما تمنته ، ولنزواتها الغريبة ، ثم استقر به الحال على امدادها الدائم بالنقود . يتمنى الا يقدر المدرس على مصاريفها ، أن يطلب منها نقودا ، لن تجد إلا رأس الفجلة تلجأ إليه ، سيشترط أمراً واحداً ، الا تسخر منه ، غير أن الخجل يتزايد به حتى ليكاد يوقف دقات قلبه كلما تخيل لهجتها فى الحديث معه . أثناء عودته أمس من الدكان قابله أحد الغرباء قال له إن سبب ما حل بالزعفرانى رمانة السياسى ، وأنه أحدث حالة من الاضطراب حتى ينقض على المجتمع ، وفى نفس الليلة التقى عدد من الغرباء بالأهالى وأكدوا لهم ذلك ، لكن الزعفرانيين رفضوا ما قيل لهم ، وصاح طاحون فى وجه محدثه طالبا منه السكوت والكف عن الفتن وقال إن رمانة من أكثر الزعفرانيين شهامة .. أوشك على التفوه بلفظ « ورجولة » لكنه خجل ، وفى الحارة زعق بسيونى والد لولى أكثر من مرة لأمرأة ابنه وقال إن لولى مسئول عما جرى للزعفرانى ، وراح يحرض عاطف وطاحون وعويس وسلام ولم يصدقه أحد ، قوبل بلا مبالاة ، عندئذ خرج إلى مقهى الداطورى وكتب بلاغا جديداً بخصوص نشاط لولى الهدام ، لم يقتنع الزعفرانيون بما تردد ، لا يمكن ارجاع ما جرى إلى شخص واحد ، ثمة أفكار أخرى ترددت حول خراب الزعفرانى ، دخول المصائب إلى البيوت ، اليوم بعد عودة حسان من تردده على عدد من المعارف ، بخصوص والده فوجىء بازدحام مقهى الداطورى ، رأى طاحون ، والبنان ، وزوج ابنة أم صابر ، سألوه عن والده ، قال إن كل شىء سيتكشف خلال الأيام القادمة . سكت ، ولكنه لم يخف دهشته ، تساءل ، هل صدرت تعليمات جديدة تسمح بتجاوزهم الحدا لمسموح به للسهر ؟ قال طاحون إنه لم تصدر تعليمات بخصوص هذا الشأن ، لكن تعليمات أخرى صدرت لا يمكن لعاقل تقبلها ، لو طال الصمت ستخرب البيوت كلها ، بدا حسان مرهقا ،

مثقل القلب واللسان ، لا يدرى ما سيفعل غداً أو بعد غد ، كيف سيسلك طريقه وسط هذه المتاهات من الادارات ، والابواب الموصدة ، والحراس غلاظ القلوب ؟ ولا فتات المستشفيات ، واقسام الشرطة ، لكن ما سمعه شد انتباهه ، شيئا فشيئاً بدأ يدرك ما استجد فى الزعفرانى ، والحقيقة أن ثمة حركة دبت خلال الثلث الأخير من النهار بعد اجتماع المنذر الأول سلام بعدد من الزعفرانيين وبعد نداء العصر الذى أعلنه عويس ، لقد تبادلوا الحديث حول نصوص غامضة تتحدث عن اتاحة فرصة الأختيار من جديد ، اختيار المهنة ، شريكة العمر ، الآمال والامكانيات ، أختيار أهداف الطموح من جديد ، احياء الآمال التى ماتت ، ثم أعلن عويس أنه سيتم تخصيص البيوت رقم ١ و ٣ و ٥ ، لرجال الحارة وأطفالها الذكور ، البيوت رقم ٢ ، ٦ ، ٨ ، للنساء الزعفرانيات ، وعند حد معين يبدأ كل منهم فى ممارسة حرية اعادة الأختيار من جديد .

إن سكان الزعفرانى يخرجون إلى شرفاتهم ونوافذهم ، يبدو وقوفهم الجماعى وكأنه تحد لليل المقبل ، خاصة عندما أطلقت أم سهير صيحتها المشهورة « الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر » ، لن تنتقل من شقتها شبراً ، ولو اقتضى الأمر ستقتحم حجرة هذا الشيخ الملعون وليفعل بها ما يشاء ، لن تخاف .

يندفع رأس الفجلة خارجا ، تظهر أمه ، تتعثر خطواتها ، تعلن بكلمات ممزقة الحروف « راح ها » ، تعلو ضجة لم تعرفها الزعفرانى منذ فترة تمتد إلى أبعد من تاريخ بدء سريان مفعول الطلسم ، صخب لا يعلو إلا وقت الحوادث المفاجئة ، كأن ينهال زوج على امرأته ضربا فى تمام الثانية صباحا ، يشهر فى وجهها سكينا ، مهددا بذبحها ، عندئذ تجرى مندفعة ، تفتح الشباك ، يستيقظ الزعفرانيون ، يتساءلون عما يجرى ؟ بعد أن يفهموا يقوم بعض العقلاء منهم بالتدخل ، يذهبون إلى منزل المشاجرة حيث يرفض الزوج فى البداية فتح الباب . فى هذا الوقت يتبادل الجيران الحديث عبر النوافذ . يطرقون موضوعات

بعيدة تماما عن الخناقة ، لفترة تتصاعد أصوات مبهمة يفلت منها بين الحين والحين عياط طفل ، أو كلمات معينة متفرقة كحبات سبحة انفرطت ، إن الضجة الزعفرانية الآن تشبه هذا الاستيقاظ الفاجىء للحارة ، صاحبها خروج البعض ، وسرت أخبار بظهور التكرلى أمام مقهى الداطورى محرضا ومهيجا ، وقيل إن امرأته هجرته إلى طالب أحبته ، لا يدرى أحد كيف تستقى الزعفرانى الأخبار لكن غالبا ما يصدق المتردد فيها ، أبدت زنوبة المطلقة اعجابا بما أقدمت عليه امرأة التكرلى وتمنت لها الهناء ، وفكر طاحون لحظة سماع الخبر أن الحال لا يتبدل إذا ابتعد الزعفرانى عن حارته .

تتنهد خديجة الصعيدية أسفا ، أين الست بثينة الآن ؟ ، تجيب أم صبرى ، إنها تهرب من بلدة إلى أخرى خوفا من الموت ، تمصمص شفتيها أسفا ، مع نزول الليل تتزايد الضجة ، يشاهد رمانة مطلا ، قبل فيما بعد إنه لم يتخل عن ابتسامة غامضة بقيت معلقة إلى شفتيه . لا بد أن أحد الزعفرانيين نقل الخبر إلى جهات الأمن ، إذ أن مسئول مكافحة الأفكار الهدامة ، رفع مذكرة يصف فيها وقفة رمانة وصمته ، بالغ فى ذكر التفاصيل التى نسبها إلى مصدر ما ، ربما أحد الأهالى ، أو حكايات سمعها المخبرون من الحى القديم ، وذلك بقصد اظهار نجاحه فى إيجاد مصادر خاصة به فى الحارة من ناحية ، وإسقاط أكبر قدر من المسئولية على رمانة ثانياً .

حوالى العاشرة مساء ، رأى الزعفرانيون الذين خرقوا كل القواعد رأس الفجلة عائدا من خارج الحارة . إنه يحبو على أربع ، يتلفت حوله ، قرب باب المخزن يقف ، يتلفت ، يكتم الزعفرانيون أنفاسهم ، ينزع العارضة الحديدية ، يختفى بعد إغلاقه الباب بصوت مسموع ، يبدو أن أمه العجوز راقبته أو تتبعته . إنها تظهر فجأة عند باب المخزن ، تطلق صرخات حادة ، لكن الباب يبقى موصدا لا ينفتح ، إن صوتها يبح بعد فترة ، تجلس أمام المخزن ، تسند الكيس الذى يتدلى

من عنقها أمامها ، تهز أصبعها وكأنها تخاطب شخصا يقف أمامها ، تقول بصوت باك ، بلهجة كالأطفال « .. قلبي لا يطمئن أبدا .. »

تقرير رقم (١) عاجل مرفوع الى اللجنة العليا لمتابعة الأحوال الزعفرانية :

« .. أفادت التقارير بوقوع تمرد زعفراني ، تم على الفور تدعيم القوات السرية المنتشرة بالحي القديم ، اصدر أمر إلى كافة المقاهي بالبقاء مفتوحة طوال الأربع وعشرين ساعة ، ومتابعة المراسلين الأجانب لعدم اقترابهم من الحي القديم . كما يقوم مكتب البحث والتحري الآن بالبحث عن الصحفي حمدى عباس الذى بدأ تردده على الحي منذ فترة . وتمكن من توثيق علاقاته بالزعفرانيين ، ورفض التعاون مع كافة أجهزة الأمن . وأفاد رئيس تحرير الجريدة أنه ليس مسئولا عن تردد الصحفي حمدى عباس على الحي القديم ، ويعتبر متغيبا منذ أربعة أيام بدون إذن . وتؤكد معلوماتنا عدم وجود علاقة بين الصحفي وتسرب الأنباء الزعفرانية إلى خارج البلاد . وتغذية هذه الضجة العالمية ، وباعتبارنا جهة مسئولة عن الأمن الأعلى ، نرجو من اللجنة الموافقة على ما قررنا أتباعه من إجراءات :

توجيه رسالة علنية من جانبنا إلى الزعفرانيين جميعا ، نطالبهم باقتحام حجرة الشيخ ، والقبض عليه حيا .

نطلب منهم التأهب وإخلاء الحارة تماما ، على أن تتولى المحافظة نقلهم إلى مساكنها .

يمكن رصد مبلغ من مصاريفنا السرية لمكافأة كل زعفراني يساهم في تسليم الشيخ ، والمنادى الخاص ، والنذر الأول . ويلاحظ أن معظم أهالي

الزعفراني فقراء ، ويمكن أن يمثل مبلغ مائة جنيه إغراء شديدا لهم ، مع الوعد بشفائهم جميعا ..

— المشرف على الأمن الأعلى —

* * *

خبر عن مؤتمر شبابي في باريس :

« .. عقد جمع ضخم من الشباب مؤتمرا كبيرا بالعاصمة الفرنسية ، ويبدو أن هذا الاجتماع أقيم كرد مسبق على الاجتماع الذى قرر أنصار « الزعفرانيزم » عقده صباح الغد . ندد الخطباء بهذا المشعوذ الآتي من الشرق ، أجمعوا على وصول الإنسانية إلى مرحلة لا يمكن معها تقبل هذه الأفكار ، ولكي تسود العدالة حياة البشر ، ولكي تنتهي المنازعات والحروب فليأت هذا عن طريق التطور الطبيعي ، وليس بالخوارق المشكوك فيها . وأثناء الاجتماع وصل عدد جم من الزعفرانيين المؤيدين للشيخ ، وعلى الفور وقعت اشتباكات دامية بين الطرفين . من ناحية أخرى علقت صحيفة (لوجريون) قائلة أن الحضارة الأوروبية وصلت إلى حد من الميكانيكية بحيث أصبح الإنسان الأوروبي على استعداد لتصديق أي غيبيات أو أي قضايا لاعقلية .

ملحوظة .

« .. لم ينشر هذا الخبر ، شأن كل الأخبار الواردة من الخارج والتي تمس أحوالا زعفرانية ...

نص تقرير عاجل من المشرف على علاقات الجوار الحسن والصداقات الدائمة ، الى رئيس اللجنة العليا للأحوال الزعفرانية .

« .. أرسل ممثلنا الدائم في موسكو تقريرا هاما ، فقد أصدرت اللجنة الإعلامية العامة ، بالحزب الشيوعي السوفيتي ، بيانا نشر في الصفحة الأولى من « البرافدا — العمود الثالث » ، و يبدو أن هذا البيان وزع على كوادر الحزب قبل نشره وأشار البيان إلى وجود لغط في صفوف الجماهير حول ما يسمى بالزعفرانيزم ، وما تتضمنه من طلسمة العالم تمهيدا لاحداث عدد من المتغيرات ، تؤدى إلى مساواة شاملة . ثم استعرض البيان المحاولات التي بذلها الإنسان من أجل إيجاد عالم خال من الفوارق الطبقية ، وتسوده المساواة . إلى أن بلور كارل ماركس نظرية الصراع الطبقي مع وصول المجتمع الرأسمالي إلى درجة معينة من التطور ، وتعد الماركسية هي السلاح النظري للطبقة العاملة في خوض آخر الصراعات الاجتماعية . وهذا هو التطور الطبيعي ، وإذا ظهرت محاولات تستعين بقوى غيبية للإسراع بتطوير الصراعات الاجتماعية والإنسانية ، فإنها تعتبر مرفوضة من وجهة النظر العلمية ، لن يحسم الصراع إلا النضال المستمر ضد الطبقات المستغلة ، والنضال من أجل تحقيق الاشتراكية . واختتمت البرافدا مقالها — الذي يعد أول رد فعل من جانب الدول الاشتراكية — بقولها إن الصراعات لن تحسم بالوصفات السريعة أو الخوارق التي لا يدعيها إلا الحمقى ، وعلى هذا فإن الحزب الشيوعي السوفيتي سوف يناضل بلا هوادة ضد أي مروج للزعفرانيزم » .

○ ○ ○

تعليق مسئول مكافحة الأفكار الهدامة على النسخة الخاصة به من التقرير

« .. يجب تناول ما كتبته « البرافدا » بحذر ، إذ لا نستبعد أن يعد المقال كتغطية للدور الذي يقوم به رمانة من نشاط في الزعفراني ، والتي تشير كل الدلائل إلى قيامه بذلك ، وأهمها ثبات أعصابه وعدم مغادرته الحجيرة ، وابتسامته التي أشار إليها ما وصلنا من التقارير ، لهذا يجب الحذر ... »

« تقرير رقم « ٢ » عاجل جدا »

« مجرد وقوع الأحداث المشار إليها سابقا في الزعفراني قمنا بتدعيم القوة المرابطة في الحي القديم ، ونشطت الجماعات الخاصة في استخلاص المعلومات ، ويمكن ايجاز أهم الأحداث فيما يلي :

« حتى ساعة إعداد هذا التقرير لم ترد أي أخبار عن رأس الفجلة بل لا تزال أمه تجلس أمام المخزن ، تبكي ، وتردد الفاظا غامضة .

« سرت إشاعات حذرة في الزعفراني ملخصها أن ثمة حجرا وجد أمام بيت رأس الفجلة ، حجر يشبه جزرة أو فجلة ، ما هو إلا رأس الفجلة ، مسخه الشيخ حجرا لا ينطق إنما يعي كل ما يدور حوله ، وهذا انذار للاهالي وأن الشيخ في سبيله إلى أن يمسخ الزعفرانيين كلهم ، غير أن أحد النجار أعلن بصوت عال تفضيله المسخ على البقاء كما هو ، ثم توجه إلى الحجر وتأمله قليلا ثم صفعه بقوة . على أثر ذلك تجمع عدد من الصبية الزعفرانيين ، راحوا يصفعونه ، يبصقون عليه ، وقيل إن انينا سمع من الحجر ، ولعابا سال منه ، عندما قال البعض لأم رأس الفجلة إن ابنها مسخ حجرا . رفضت أن تصدق ، اشارت إلى باب المخزن الموصد ، قالت إنه اختفى هنا ، وتنتظر خروجه .

• أشارت التقارير إلى أن عاطف حسنين لم يعد يقيم بمفرده ، لا نقصد بهذا روض التى ترددت عليه كثيراً منذ بدء الطلسم ، لكننا نشير إلى وجود شاب معه . لم يتحقق أحد مصادرنا من شخصية هذا الساكن الذى يعتبر أول إنسان غريب يدخل إلى الزعفرانى ، كما لوحظ أن عاطف المذكور لا يخفى علاقته بجارته « روض » وشوهدا معا صباح اليوم ، يخرجان معا ، يمسك كل منهما بيد الآخر ، و باقتفاء أثرهما اتضح اتجاههما إلى حديقة الحرية ، جلسا فوق الحشائش فى الشمس ، وضحكا ، ولعبا معا ، وأكلا جبنا روميا ، وسميطا ، و بيضا ، ودفعت روض عاطف حسنين المذكور ثلاث مرات فى صدره ، كما قرصها مرة فى ذراعها .

• فى العاشرة صباحا طلب طاحون غريب بصوت عال من الأهالى حفر مجموعة من الأنفاق تؤدى إلى أسفل حجرة الشيخ حتى يمكن مهاجمته ، وابطال أثر الطلسم ، قال إن الانفاق ستنهى كل المشاكل .

• دار عبده البنان وامرأته على جميع رواد المقاهى بالحى وتوسلوا إليهم لمنع ولدهما من دخول الزعفرانى لو لمحوه ، لأنه أرسل يخطرهما بقرب وصوله ، الآن لا يغادران مكانهما الذى اتخذاه أمام الحارة لمنع ابنهما .

• منذ ساعتين وصل إلى الحارة ، شخص مختل اسمه رضوان ، و بائع غزل بنات ، أعلنا إنهما سيلزمان الزعفرانى ، لأن الطلسم لحقهما .

• حتى الآن لم يتحرك المنذر الأول سلام ، كذلك لم يقم عويس بتوجيه نداءاته فى مواعيدها .

• قامت احدى مجموعاتنا بتركيب مكبر صوت وجهت من خلاله نداءات متوالية إلى أهالى الزعفرانى ، وذلك « لطرق الحديد الساخن » ،

واستغلال الحالة التى وصل إليها الأهالى . وتضمنت النداءات نصحا باقتحام حجرة الشيخ والقبض عليه ، وتسليمه .

• زعق أحمد النجار مطالبا الشخص الوحيد الذى استثناه الشيخ من الطلسم بالكشف عن حقيقة شخصيته حتى تهدأ الخواطر وتتكشف الحقائق . هذا ملخص باجمالى الموقف حتى الساعة الثالثة بعد الظهر» .

تعليمات الهيئة العليا المشرفة على الاعلام .

« لوحظ خلال الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ورود أخبار كثيرة من مختلف انحاء العالم بخصوص الأحوال الزعفرانية ، يراعى استمرار عدم النشر .

* * *

تقرير رقم « ٣ » عاجل جدا .

« بعد العصر ، خرج وفد زعفرانى يضم الآتى اسماؤهم :

المعلم أحمد حسنى حنفى الداطورى .
طاحون غريب .
عاطف حسنين .
أبلغوا رجالنا أن أهالى الزعفرانى سمعوا كل ما وجه إليهم من نداءات ، و يعتبرون ما يجرى فى الزعفرانى أمراً يخصهم ، وهم بأنفسهم الذين سيتولون أمورهم مع الشيخ ، ولن يسمحوا إطلاقا لأى جهة مسئولة أو غير مسئولة بالتدخل ، وفيما يلى نص ما قاله طاحون غريب :

« لو أخذتم الشيخ فمن يضمن لنا زوال الطلسم » :

وطلب قائد المجموعة من طاحون غريب مساعدته باعتباره موظفا رسميا ، لكن طاحون قال إن الأمر ليس بيده ، ومهما بلغت الاغراءات والوعود فالأهالى مصرون على معالجة الأمور بأنفسهم » .

* * *

برقية عاجلة لوكالة « رويتر » من بيونس ايرس .

« هرع آلاف من سكان العاصمة إلى الأطباء ، تجمهروا أمام العيادات ، والمستشفيات يشكون عجزا جنسيا غريبا » .

* * *

برقية عاجلة لوكالة « ا . و . ن » من باريس .

« صرح مصدر مسئول بوزارة الصحة الفرنسية ، أن العجز الجنسى ظهر فى البلاد بشكل وبائى ، صرح فى بيان وجهه إلى الشعب الفرنسى أن الوباء يبحث بشكل علمى واسع . وحاول أن يطمئن الجماهير ، لكن هذا لم يمنع حالات الفوضى والاضطراب التى سادت ، امتلأت الشوارع برجال يحاولون إختبار قواهم مع أقرب النساء اليهم فى الطرقات » .

* * *

برقية من مالا واندا ، وكالة أ . ب

« اختفت جميع المقويات والمنشطات الجنسية ، أصدرت المعارضة بياناً تتهم فيه الحكومة بالتهاون فى شأن التصدى لهذا الوباء الذى يجتاح البلاد ،

وطوال اليوم استمر الراديو يذيع موسيقى جنسية وأغانى فاضحة لمساعدة الرجال » .

* * *

برقية من جالانشيا :

أعلنت منظمة الزعفرانيزم المشكلة حديثا ، أن البلاد كلها سوف تخضع لتأثير الطلسم اعتباراً من اكتمال القمر بدرا ، وأن الأمور منذ الآن ستتخذ مسارا جديداً وعلى الإنسانية أن تفيق » .

برقية من اصطفانديال :

« أغلقت الموانىء والمطارات ، بأمر من رئيس الجمهورية فى محاولة لمنع الوباء الزعفرانى » .

نبا عاجل من عاصمة كيرليانا الهندية :

نظم أنصار « الزعفرانيزم » مسيرة ضخمة اتجهت إلى مركز المدينة ، قام شخص نحيل ، يتحدث إليهم واصفا نفسه بأنه المنذر الثانى ، وبعد أن تلا نصوصا من المناظير الزعفرانية المعروفة ، أعلن جزءاً من منظور جديد لم يعرف بعد ، يتضمن بشرى للمتزعفرين ، بأن الأوان حل ، وأن اللطمة قد وجهت إلى الانسان فى كل مكان ليفيق إلى الأبد ، لتعدل الأوضاع ، لتصحح الأحوال ، فى البداية ستضطرب الأمور ، كما يخلط العجان الدقيق ، واللبن ، والماء ، لتظهر الفطائر والكعكات . أو كما يتكوم الأثاث فيبدو بلا معنى قبل تنظيم البيت ، ثم تبتل القلوب برضى ، قال إن الدنيا ستقسم إلى سبعة أقسام ، يتولى كل منها منذر

يبلغ ، ينبه ، يشرح ، يفسر ، يوضح ، ينظم العلاقات والمصائر ، و يرتب الأحوال ، قال إن كل شيء سيبدل تبديلا ، وإن الأحوال الخاطئة ستصحح ، وإن الجماد سيتكلم ، وستضيق البحور بالحب ، واليوم العظيم الذى تسود فيه العدالة آت لا ريب فيه . ثم ختم حديثه قائلا .. « وداعا للزمن القديم ، لعصور الضلال ، وتحريف الحقائق ، والموت جوعا . والحب التعس ، والأمل المخفق ، والرغبة المكبوتة ، والوعد الملوع ، والنظام الجائر ، والعدالة النسبية ، وتعقيد السهل ، وتصعيب البسيط ، لن يطول الانتظار .. فقد بدأ زمن الطلسم ، ليتغير العالم » .

جمال الغيطانى ١٩٧٣ ـ ١٩٧٥

صدر للمؤلف

- اوراق شاب عاش منذ الف عام — مجموعة قصصية ـ طبقة اولى ١٩٦٩ طبعة رابعة ١٩٨٠
- ارض ـ ارض — مجموعة قصيصة ـ طبعه اولى ١٩٧٢ طبعة ثانية ١٩٨٠
- الزينى بركات — رواية ـ طبعة اولى ١٩٧٤ طبعة ثالثة ١٩٨٤
- الزويل — قصص طبعة اولى ١٩٧٥ طبعة ثانية ١٩٨٠
- الحصار من ثلاث جهات — مجموعة قصصية طبعة اولى ١٩٧٥ طبعة ثانية ١٩٨٠
- وقائع حارة الزعفرانى — رواية طبعة اولى ١٩٧٦
- حكايات الغريب — مجموعة قصصية طبعة اولى ١٩٧٦ طبعة ثانية ١٩٨٠
- ذكر ما جرى — مجموعة قصصية طبعة اولى ١٩٧٧ طبقة ثانية، ١٩٨١
- الرفاعى — رواية طبعة اولى ١٩٧٨ طبعة ثانية ١٩٨١
- خطط الغيطانى — رواية طبعة اولى ١٩٨١

- كتاب التجليات (السفر الأول) طبعة اولى ١٩٨٣
- اتحاف الزمان بحكاية جلبى السلطان مجموعة قصصية طبعة اولى ١٩٨٤
- كتاب التجليات ـ السفر الثانى ١٩٨٥
- دراسات ومشاهدات

- المصريون والحرب ١٩٧٤
- حراس البوابة الشرقية ١٩٧٥
- نجيب محفوظ يتذكر ١٩٨٠
- مصطفى امين يتذكر ١٩٨٣
- ملامح القاهرة فى الف عام ١٩٨٣
- قاهريات (اسبلة القاهرة) ١٩٨٤

تحت الطبع

كتاب التجليات « السفر الثالث »

رقم الإيداع بدار الكتب ٣٢٨٠ / ٨٥

الترقيم الدولى ٢ ـ ٠٣٢ ـ ١٣٣ ـ ٩٧٧

طبع على مطابع شركة تريكرومى للطباعة
ت ٩٢٥٧٥٦ القاهرة